كتاب الشعب

إحياء علوم الدّين

للإمام أبي حامد الغزالي

الجزء الخامس عشر

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العيني ـ القاهرة ت: ٢١٨١

كتاب المراقبة والمحاسبة

كتاب المراقبة والمحاسبة

وهو الكتاب الثامن من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت ، الرقيب على كل جارحة بما اجترحت ، المطلع على ضمائر القلوب إذا هجست ، الحسيب على خواطر عباده إذا اختلجت ، الذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات والأرض تحركت أو سكنت ، المحاسب على النقير والقطمير والقليل والكثير من الأعمال وإن خفيت ، المتفضل بقبول طاعات العباد وإن صغرت ، المتطول بالعفو عن معاصيهم وإن كثرت ، وإنما يحاسبهم لتعلم كل نفس ما أحضرت ، وتنظر فيما قدمت وأخرت ، فتعلم أنه لولا لزومها المراقبة والمحاسبة فى الدنيا لشقيت فى صعيد القيامة وهلكت ، وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراقبة لولا فضله بقبول بضاعتها المزجاة لخابت وخسرت . فسبحان من عمّت نعمته كافة العباد وشملت، واستغرقت رحمته الخلائق فى الدنيا والآخرة وغمرت ، فبنفحات فضله اتسعت القلوب للإيمان وانشرحت ، وبيمن توفيقه تقيدت الجوارح بالعبادات وتأدبت ، وبحسن هدايته انجلت عن القلوب ظلمات الجهل وانقشعت ، وبتأييده ونصرته انقطعت مكايد الشيطان واندفعت وبلطف عنايته تترجح كفة الحسنات إذا ثقلت ، وبتيسيره تيسرت من الطاعات ما تيسرت فمنه العطاء ، والجزاء ، والإبعاد ، والإدناء ، والإسعاد ، والإشقاء

والصلاة على محمد سيد الأنبياء ، وعلى آله سادة الأصفياء ، وعلى أصحابه قادة الأتقياء

أما بعد : فقد قال الله تعالى (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ[1]) وقال تعالى (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا[2])

---

(١) الأنبياء : ٤٧ (٢) الكهف : ٤٩

وقال تعالى (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [١]) وقال تعالى (يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ [٢]) وقال تعالى (ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ [٣]) وقال تعالى (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ [٤]) وقال تعالى (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ [٥]) فعرف أرباب البصائر من جملة العباد أن الله تعالى لهم بالمرصاد ، وأنهم سيناقشون فى الحساب . ويطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات . وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة ، وصدق المراقبة ، ومطالبة النفس فى الأنفاس والحركات ، ومحاسبتها فى الخطرات واللحظات فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف فى القيامة حسابه ، وحضر عند السؤال جوابه ، وحسن منقلبه ومآبه . ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته ، وطالت فى عرصات القيامة وقفاته ، وقادته إلى الخزي والمقت سيئاته

فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا طاعة الله ، وقد أمرهم بالصبر والمرابطة فقال عز من قائل (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا [٦]) فرابطوا أنفسهم أولا بالمشارطة ، ثم بالمراقبة ، ثم بالمحاسبة ، ثم بالمعاقبة ، ثم بالمجاهدة ، ثم بالمعاتبة ، فكانت لهم فى المرابطة ست مقامات ، ولا بد من شرحها وبيان حقيقتها وفضيلتها ، وتفصيل الأعمال فيها ، وأصل ذلك المحاسبة ، ولكن كل حساب فبعد مشارطة ومراقبة ، ويتبعه عند الخسران المعاتبة والمعاقبة ، فلنذكر شرح هذه المقامات وبالله التوفيق

المقام الأول من المرابطة

المشارطة

اعلم أن مطلب المتعاملين فى التجارات ، المشتركين فى البضائع عند المحاسبة سلامة الربح وكما أن التاجر يستعين بشريكه . فيسلم إليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه ، فكذلك العقل

(١) المجادلة : ٦ (٢) الزلزلة : ٦ ، ٧ ، ٨ (٣) البقرة : ٢٨١ (٤) آل عمران : ٣٠ (٥) البقرة : ٢٣٥
(٦) آل عمران : ٢٠٠

هو التاجر فى طريق الآخرة ، وإنما مطلبه وربحه تزكية النفس ، لأن بذلك فلاحها .
قال الله تعالى (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا [1]) وإنما فلاحها بالأعمال
الصالحة . والعقل يستعين بالنفس فى هذه التجارة ، إذ يستعملها ويستسخرها فيما يزكيها
كما يستعين التاجر بشريكه وغلامه الذى يتجر فى ماله

وكما أن الشريك يصير خصما منازعا يجاذبه فى الربح ، فيحتاج إلى أن يشارطه أولا ،
ويراقبه ثانيا ، ويحاسبه ثالثا ، ويعاقبه أو يعاتبه رابعا ، فكذلك العقل يحتاج إلى مشارطة
النفس أولا ، فيوظف عليها الوظائف ، ويشرط عليها الشروط ، ويرشدها إلى طرق الفلاح
ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق ، ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة ، فإنه لو أهملها لم ير
منها إلا الخيانة وتضييع رأس المال ، كالعبد الخائن إذا خلا له الجو وانفرد بالمال . ثم بعد الفراغ
ينبغى أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها ، فإن هذه تجارة ربحها الفردوس الأعلى ؛
وبلوغ سدرة المنتهى مع الأنبياء والشهداء ، فتدقيق الحساب فى هذا مع النفس أهم كثيراً
من تدقيقه فى أرباح الدنيا ، مع أنها محتقرة بالإضافة إلى نعيم العقبى ثم كيفما كانت فمصيرها
إلى التصرم والانقضاء ، ولا خير فى خير لا يدوم . بل شر لا يدوم خير من خير لا يدوم ،
لأن الشر الذى لا يدوم إذا انقطع بقى الفرح بانقطاعه دائما وقد انقضى الشر ، والخير الذى
لا يدوم يبقى الأسف على انقطاعه دائما وقد انقضى الخير ، ولذلك قيل :

أشد الغم عندى فى سرور تيقن عنه صاحبه انتقالا

فحتم على كل ذى حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه ، والتضييق عليها
فى حركاتها ، وسكناتها ، وخطراتها ، وحظواتها ، فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة
نفيسة لا عوض لها ، يمكن أن يشترى بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد . فانقضاء
هذه الأنفاس ضائعة أو مصروفة إلى ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل

فإذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح ، ينبغى أن يفرغ قلبه ساعة لمشارطة النفس ،
كما أن التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك العامل يفرغ المجلس لمشارطته ، فيقول للنفس .
مالى بضاعة إلا العمر ، ومهما فنى فقد فنى رأس المال ، ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح ،

---
(١) الشمس : ٩ ، ١٠

وهـذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه ؛ وأنسأ في أجلي ، وأنعم عليّ به ، ولو توفاني لـكنت أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا يوماً واحداً حتى أعمل فيه صالحاً. فاحسبي أنك قد توفيت، ثم قد رُددت، فإياك ثم إياك أن تضيعي هذا اليوم ؛ فإن كل نفس من الأنفاس جوهرة لا قيمة لها، واعلمي يا نفس أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة، وقد ورد في الخبر أنه [1] ينشر للعبد بكل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة ، فيفتح له منها خزانة فيراها مملوأة نوراً من حسناته التي عملها في تلك الساعة ؛ فيناله من الفرح والسرور والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التي هي وسيلته عند الملك الجبار ، مالو وزع على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عند الإحساس بألم النار . ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة ، يفوح نتنها ، ويغشاه ظلامها ، وهي الساعة التي عصى الله فيها ، فيناله من الهول والفزع مالو قسم على أهل الجنـة لتنغص عليهم نعيمها. ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس له فيها مايسره ولا ما يسوؤه ، وهي الساعة التي نام فيها ، أو غفل ، أو اشتغل بشيء من مباحات الدنيا ، فيتحسر على خلوها ، ويناله من غبن ذلك ماينال القادر على الربح الـكثير والملك الـكبير، إذا أهمله وتساهل فيـه حتى فاته، وناهيك به حسرة وغبناً. وهكذا تعرض عليـه خزائن أوقاته طول عمره ، فيقول لنفسه: اجتهدي اليوم في أن تعمري خزانتك، ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التي هي أسباب ملـكك، ولا تميلي إلى الـكسل والدّعة والاستراحة ، فيفوتك من درجات عليين مايدركه غيرك ، وتبقى عندك حسرة لا تفارقك وإن دخلت الجنة ، فألم الغبن وحسرته لا يطاق وإن كان دون ألم النار

وقد قال بعضهم : هب أن المسيء قد عفي عنه ، أليس قد فاته ثواب المحسنين ؟ أشار بها إلى الغبن والحسرة : وقال الله تعالى . ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ [1]﴾

فهذه وصيته لنفسه في أوقاته . ثم ليستأنف لهـا وصية في أعضائه السبعة : وهي العين ، والأذن ، واللسان ، والبطن ، والفرج ، واليد ، والرجل، وتسليمها إليها ؛ فإنها رعايا خادمة لنفسه في هذه التجارة، وبها تتم أعمال هذه التجارة. وإن لجهنم سبعة أبواب ، لكل باب منهم جزء

﴿ كتاب المحاسبة والمراقبة ﴾

(١) حديث ينشر للعبد كل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة فيفتح له منها خزانة فيراها مملوأة من حسناته ـ الحديث : بطوله لم أجد له أصلا

(١) التغابن : ٩

مقسوم. وإنما تتعين تلك الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء، فيوصيها بحفظها عن معاصيها

أما العين ، فيحفظها عن النظر إلى وجه من ليس له بمحرم ، أو إلى عورة مسلم ، أو النظر إلى مسلم بعين الاحتقار ، بل عن كل فضول مستغنى عنه . فإن الله تعالى يسأل عبده عن فضول النظر ، كما يسأله عن فضول الكلام ، ثم إذا صرفها عن هذا لم تقنع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها ، وهو ما خلقت له من النظر إلى عجائب صنع الله بعين الاعتبار والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء ، والنظر في كتاب الله وسنة رسوله ، ومطالعة كتب الحكمة للاتعاظ والاستفادة . وهكذا ينبغي أن يفصل الأمر عليها في عضو عضو ، لاسيما اللسان والبطن

أما اللسان فلأنه منطلق بالطبع ، ولا مؤنة عليه في الحركة ، وجنايته عظيمة بالغيبة ، والكذب ، والنميمة ، وتزكية النفس ، ومذمة الخلق والأطعمة ، واللعن ، والدعاء على الأعداء والمماراة في الكلام ، وغير ذلك مما ذكرناه في كتاب آفات اللسان ، فهو بصدد ذلك كله مع أنه خلق للذكر ، والتذكير ، وتكرار العلم ، والتعليم ، وإرشاد عباد الله إلى طريق الله وإصلاح ذات البين ، وسائر خيراته فليشترط على نفسه أن لا يحرك اللسان طول النهار إلا في الذكر ، فنطق المؤمن ذكر ، ونظره عبرة ، وصمته فكرة ، وما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد

وأما البطن فيكلفه ترك الشره ، وتقليل الأكل من الحلال ، واجتناب الشبهات ، ويمنعه من الشهوات ، ويقتصر على قدر الضرورة ، ويشرط على نفسه أنها إن خالفت شيئاً من ذلك عاقبها بالمنع عن شهوات البطن ، ليفوتها أكثر مما نالته بشهواتها

وهكذا يشرط عليها في جميع الأعضاء ، واستقصاء ذلك يطول ، ولا تخفى معاصي الأعضاء وطاعاتها . ثم يستأنف وصيتها في وظائف الطاعات التي تتكرر عليه في اليوم والليلة ، ثم في النوافل التي يقدر عليها ، ويقدر على الاستكثار منها ، ويرتب لها تفصيلها ، وكيفيتها ، وكيفية الاستعداد لها بأسبابها . وهذه شروط يفتقر إليها في كل يوم ، ولكن إذا تعوّد الإنسان شرط ذلك على نفسه أياما ، وطاوعته نفسه في الوفاء بجميعها ، استغنى عن المشارطة فيها . وإن أطاع في بعضها بقيت الحاجة إلى تجديد المشارطة فيما بقي ولكن لا يخلو كل يوم عن مهم جديد ، وواقعة حادثة لها حكم جديد ، ولله عليه في ذلك حق ، ويكثر هذا على من يشتغل بشيء من أعمال الدنيا من ولاية ، أو تجارة ، أو تدريس ، إذ قلما يخلو يوم

عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضي حق الله فيها . فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها ، والانقياد للحق فى مجاريها ، ويحذّرها مغبة الإهمال ، ويعظها كما يوعظ العبد الآبق المتمرد ، فإن النفس بالطبع متمردة عن الطاعات ، مستعصية عن العبودية ، ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها ، وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين

فهذا وما يجرى مجراه هو أول مقام المرابطة مع النفس ، وهي محاسبة قبل العمل والمحاسبة تارة تكون بعد العمل ، وتارة قبله للتحذير . قال الله تعالى (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ [1]) وهذا المستقبل . وكل نظر فى كثرة ومقدار لمعرفة زيادة ونقصان فإنه يسمى محاسبة . فالنظر فيما بين يدي العبد فى نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة . وقد قال الله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا [2]) وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا [3]) وقال تعالى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ [4]) ذكر ذلك تحذيرا وتنبيها للاحتراز منه فى المستقبل . وروى [1] عبادة بن الصامت ، أنه عليه السلام قال لرجل سأله أن يوصيه ويعظه « إِذَا أَرَدْتَ أَمْرًا فَتَدَبَّرْ عَاقِبَتَهُ فَإِنْ كَانَ رُشْدًا فَامْضِهِ وَإِنْ كَانَ غَيًّا فَانْتَهِ عَنْهُ »

وقال بعض الحكماء : إذا أردت أن يكون العقل غالبا للهوى فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر العاقبة ، فإن مكث الندامة فى القلب أكثر من مكث خفة الشهوة . وقال لقمان: إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن النـــدامة

وروي شداد بن أوس عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال [2] « الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ » دان نفسه أي حاسبها . ويوم الدين يوم الحساب . وقوله (أَئِنَّا لَمَدِينُونَ [5]) أى لمحاسبون

وقال عمر رضي الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا ، وتهيؤا للعرض الأكبر . وكتب إلى أبي موسى الأشعرى : حاسب نفسك فى الرخاء قبل

---

(١) حديث عبادة بن الصامت إذا أردت أمرا فتدبر عاقبته ـ الحديث : تقدم

(٢) حديث الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ـ الحديث : تقدم

---

(١) البقرة : ٢٣٥ (٢) النساء : ٩٤ (٣) الحجرات : ٦ (٤) ق : ١٦ (٥) الصافات : ٥٢

حساب الشدة . وقال لكعب : كيف تجدها فى كتاب الله ؟ قال ويل لديان الأرض من ديان السماء ، فعلاه بالدرة وقال : إلا من حاسب نفسه . فقال كعب : ياأمير المؤمنين، إنها إلى جنبها فى التوراة ، مابينهما حرف ، إلا من حاسب نفسه

وهذا كله إشارة إلى المحاسبة للمستقبل ، إذ قال : من دان نفسه يعمل لما بعد الموت ومعناه وزن الأمور أولا ، وقدرها ، ونظر فيها ، وتدبرها ، ثم أقدم عليها فباشرها

المرابطة الثانية

المراقبة

إذا أوصى الإنسان نفسه ، وشرط عليها ماذكرناه ، فلا يبقى إلا المراقبة لها عندالخوض فى الأعمال ، وملاحظتها بالعين الكالئة ، فإنها إن تركت طغت وفسدت . ولنذكر فضيلة المراقبة ثم درجاتها

أما الفضيلة فقد [١] سأل جبريل عليه السلام عن الإحسان . فقال : أن تعبد الله كأنك تراه . وقال عليه السلام [٢] « اعْبُدِ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » وقد قال تعالى (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ [١]) وقال تعالى (أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى [٢]) وقال الله تعالى (إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا [٣]) وقال تعالى (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ [٤])

وقال ابن المبارك لرجل : راقب الله تعالى . فسأله عن تفسيره ، فقال : كن أبدا كأنك ترى الله عز وجل . وقال عبد الواحد بن زيد : إذا كان سيدى رقيبا عليّ فلا أبالى بغيره

وقال أبو عثمان المغربى : أفضل مايلزم الإنسان نفسه فى هذه الطريقة المحاسبة والمراقبة ، وسياسة عمله بالعلم . وقال ابن عطاء : أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات

وقال الجريرى : أمرنا هذا مبني على أصلين : أن تلزم نفسك المراقبة لله عز وجل ، ويكون العلم على ظاهرك قائما . وقال أبو عثمان : قال لى أبو حفص : إذا جلست للناس فكن واعظا

---

(١) حديث سأل جبريل عن الاحسان فقال أن تعبد الله كأنك تراه : متفق عليه من حديث أبى هريرة ورواه مسلم من حديث عمر وقد تقدم

(٢) حديث اعبد الله كأنك تراه ـ الحديث : تقدم

---

(١) الرعد : ٣٣ (٢) العلق : ١٤ (٣) النساء : ١ (٤) المعارج : ٣٢ ، ٣٣

لنفسك وقلبك ، ولا يغرنك اجتماعهم عليك ، فإنهم يراقبون ظاهرك ، والله رقيب على باطنك

وحكي أنه كان لبعض المشايخ من هذه الطائفة تلميذ شاب ، وكان يكرمه ويقدمه ، فقال له بعض أصحابه : كيف تكرم هذا وهو شاب ونحن شيوخ ! فدعا بعدة طيور ، وناول كل واحد منهم طائرا وسكينا ، وقال : ليذبح كل واحد منكم طائره في موضع لا يراه أحد. ودفع إلى الشاب مثل ذلك ، وقال له كما قال لهم . فرجع كل واحد بطائره مذبوحا ، ورجع الشاب والطائر حي في يده . فقال مالك لم تذبح كما ذبح أصحابك ؟ فقال لم أجد موضعا لا يراني فيه أحد ، إذ الله مطلع عليّ في كل مكان . فاستحسنوا منه هذه المراقبة ، وقالوا حق لك أن تكرم

وحكي أن زليخا لما خلت بيوسف عليه السلام ، قامت فغطت وجه صنم كان لها ، فقال يوسف : مالك ؟ أتستحيين من مراقبة جماد ، ولا أستحي من مراقبة الملك الجبار !

وحكي عن بعض الأحداث أنه راود جارية عن نفسها ، فقالت له : ألا تستحي ؟ فقال ممن أستحي وما يرانا إلا الكواكب ؟ قالت فأين مكوكبها ؟

وقال رجل للجنيد : بم أستعين على غض البصر ؟ فقال : بعلمك أن نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه . وقال الجنيد : إنما يتحقق بالمراقبة من يخاف على فوت حظه من ربه عز وجل

وعن مالك بن دينار قال : جنات عدن من جنات الفردوس ، وفيها حور خلقن من ورد الجنة . قيل له ومن يسكنها ؟ قال : يقول الله عز وجل . إنما يسكن جنات عدن الذين إذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمتي فراقبوني ، والذين انثنت أصلابهم من خشيتي . وعزتي وجلالي ، إني لأهم بعذاب أهل الأرض ، فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب

وسئل المحاسبي عن المراقبة فقال : أولها علم القلب بقرب الرب تعالى

وقال المرتعش : المراقبة مراعاة السر بملاحظة الغيب مع كل لحظة ولفظة

ويروى أن الله تعالى قال لملائكته : أنتم موكلون بالظاهر ، وأنا الرقيب على الباطن

وقال محمد بن علي الترمذي : اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك ، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك ، واجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه ، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه

وقال سهل : لم يتزين القلب بشيء أفضل ولا أشرف من علم العبد بأن الله شاهده حيث كان

وسئل بعضهم عن قوله تعالى (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ[1])
فقال: معناه ذلك لمن راقب ربه عز وجل، وحاسب نفسه، وتزود لمعاده

وسئل ذوالنون: بم ينال العبد الجنة؟ فقال: بخمس استقامة ليس فيها روغان، واجتهاد ليس معه سهو، ومراقبة الله تعالى في السر والعلانية، وانتظار الموت بالتأهب له، ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب وقد قيل:

إذا ماخلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ولكن قل علي رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ماتخفيه عنه يغيب
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب وأن غدا للناظرين قريب

وقال حميد الطويل لسليمان بن علي عظني فقال: لئن كنت إذا عصيت الله خاليا ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم. ولئن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرت

وقال سفيان الثوري: عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية، وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء، وعليك بالحذر ممن يملك العقوبة

وقال فرقد السبخي: إن المنافق ينظر، فإذا لم ير أحدا دخل مدخل السوء، وإنما يراقب الناس ولا يراقب الله تعالى. وقال عبدالله بن دينار: خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مكة، فعرسنا في بعض الطريق، فانحدر عليه راع من الجبل فقال له: ياراعي، بعني شاة من هذه الغنم. فقال إني مملوك. فقال قل لسيدك أكلها الذئب: قال فأين الله؟ قال فبكى عمر رضي الله عنه، ثم غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه، وقال أعتقتك في الدنيا هذه الكلمة، وأرجو أن تعتقك في الآخرة

بيان

حقيقة المراقبة ودرجاتها

اعلم أن حقيقة المراقبة هي ملاحظة الرقيب، وانصراف الهم إليه. فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال إنه يراقب فلانا ويراعي جانبه. ويعني بهذه المراقبة حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة، وتثمر تلك الحالة أعمالا في الجوارح وفي القلب

(1) البينة: ٨

أما الحالة فهي مراعاة القلب للرقيب ، واشتغاله به، والتفاته إليه، وملاحظته إياه، وانصرافه إليه

وأما المعرفة التي تثمر هذه الحالة فهو العلم بأن الله مطلع على الضمائر ، عالم بالسرائر، رقيب على أعمال العباد ،قائم على كل نفس بما كسبت . وأن سر القلب في حقه مكشوف ، كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف ، بل أشد من ذلك . فهذه المعرفة إذا صارت يقينا ، أعني أنها خلت عن الشك ،ثم استولت بعد ذلك على القلب وقهرته ، فرب علم لاشك فيه لايغلب على القلب ،كالعلم بالموت ، فإذا استولت على القلب استجرت القلب إلى مراعاة جانب الرقيب ، وصرفت همه إليه .

والموقنون بهذه المعرفة هم المقربون ، وهم ينقسمون إلى الصديقين ، وإلى أصحاب اليمين فمراقبتهم على درجتين :

الدرجة الأولى : مراقبة المقربين من الصديقين ، وهي مراقبة التعظيم والإجلال ، وهو أن يصير القلب مستغرقا بملاحظة ذلك الجلال ، ومنكسرا تحت الهيبة ، فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير أصلا . وهذه مراقبة لانطول النظر في تفصيل أعمالها ، فإنها مقصورة على القلب أما الجوارح فإنها تتعطل عن التلفت إلى المباحات فضلا عن المحظورات وإذا تحركت بالطاعات كانت كالمستعملة بها ، فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت في حفظها على سنن السداد ، بل يسدد الرعية من ملك كلية الراعي ، والقلب هو الراعي، فإذا صار مستغرقا بالمعبود صارت الجوارح مستعملة جارية على السداد والاستقامة من غير تكلف

وهذا هو الذي صار همه هما واحدا ، فكفاه الله سائر الهموم ، ومن نال هذه الدرجة فقد يغفل عن الخلق ، حتى لايبصر من يحضر عنده وهو فاتح عينيه ، ولا يسمع مايقال له مع أنه لاصمم به . وقد يمر على ابنه مثلا فلا يكلمه ، حتى كان بعضهم يجرى عليه ذلك ، فقال لمن عاتبه : إذا مررت بي فحركني

ولا تستبعد هذا ، فإنك تجد نظير هذا في القلوب المعظمة لملوك الأرض ، حتى أن خدم الملك قد لايحسون بما يجرى عليهم في مجالس الملوك لشدة استغراقهم بهم. بل قد يشتغل القلب بمهم حقير من مهمات الدنيا ، فيغوص الرجل في الفكر فيه ويمشي ، فربما يجاوز الموضع الذي قصده ، وينسى الشغل الذي نهض له ، وقد قيل لعبد الواحد بن زيد :

هل تعرف فى زمانك هذا رجلا قد اشتغل بحاله عن الخلق ؟ فقال ما أعرف إلا رجلا سيدخل عليكم الساعة . فما كان إلا سريعا حتى دخل عتبة الغلام ، فقال له عبد الواحد بن زيد : من أين جئت ياعتبة ؟ فقال : من موضع كذا ، وكان طريقه على السوق ، فقال : من لقيت فى الطريق ؟ فقال : مارأيت أحـــــدا

ويروى عن يحيى بن زكريا عليهما السلام أنه مر بامرأة ، فدفعها فسقطت على وجهها، فقيل له لم فعلت هذا ؟ فقال ماظننتها إلا جدارا

وحكي عن بعضهم أنه قال : مررت بجماعة يترامون ، وواحد جالس بعيدا منهم ، فتقدمت إليه ، فأردت أن أكلمه ، فقال : ذكرُ الله تعالى أشهى . فقلت أنت وحدك : فقال : معي ربي وملكاي . فقلت من سبق من هؤلاء ؟ فقال : من غفر الله له . فقلت أين الطريق؟ فأشار نحو السماء ، وقام ومشى وقال : أكثر خلقك شاغل عنك

فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله تعالى ، لايتكلم إلا منه ، ولا يسمع إلا فيه . فهذا لايحتاج إلى مراقبة لسانه وجوارحه ، فإنها لاتتحرك إلا بما هو فيه

ودخل الشبلي على أبي الحسين النوري وهو معتكف ، فوجده ساكنا حسن الاجتماع لايتحرك من ظاهره شيء . فقال له : من أين أخذت هذه المراقبة والسكون ؟ فقال من سنور كانت لنا ، فكانت إذا أرادت الصيد رابطت رأس الحجر لاتتحرك لها شعرة

وقال أبو عبد الله بن خفيف : خرجت من مصر أريد الرملة للقاء أبي علي الروذبارى فقال لى عيسى بن يونس المصرى المعروف بالزاهد : إن فى صور شابا وكهلا قد اجتمعا على حال المراقبة فلو نظرت إليهما نظرة لعلك تستفيد منهما . فدخلت صور وأنا جائع عطشان ، وفى وسطى خرقة، وليس على كتفي شيء . فدخلت المسجد ، فإذا بشخصين قاعدين مستقبلي القبلة فسلمت عليهما فما أجاباني . فسلمت ثانية وثالثة ، فلم أسمع الجواب . فقلت : نشدتكما بالله إلا رددتما عليّ السلام . فرفع الشاب رأسه من مرقعته ، فنظر إليّ وقال : ياابن خفيف ، الدنيا قليل ، ومابقى من القليل إلا القليل ، فخذ من القليل الكثير . ياابن خفيف ، ماأقل شغلك حتى تتفرغ إلى لقائنا . قال : فأخذ بكليتي ثم طأطأ رأسه فى المكان ، فبقيت عندهما حتى صلينا الظهر والعصر ، فذهب جوعي وعطشي وعنائي . فلما كان وقت العصر قلت : عظني

فرفع رأسه إليّ وقال : ياابن خفيف ، نحن أصحاب المصائب ، ليس لنا لسان العظة فبقيت عندهما ثلاثة أيام لا آكل ولا أشرب ولا أنام ، ولا رأيتهما أكلا شيئا ولا شربا . فلما كان اليوم الثالث قلت في سرى : أحلفهما أن يعظاني لعلي أن أنتفع بعظتهما . فرفع الشاب رأسه وقال لي : ياابن خفيف ، عليك بصحبة من يذكّرك الله رؤيته ؛ وتقع هيبته على قلبك ، يعظك بلسان فعله ، ولا يعظك بلسان قوله والسلام ، قم عنا . فهذه درجة المراقبين الذين غلب على قلوبهم الإجلال والتعظيم ، فلم يبق فيهم متسع لغير ذلك

الدرجة الثانية : مراقبة الورعين من أصحاب اليمين ، وهم قوم غلب يقين اطلاع الله على ظاهرهم وباطنهم على قلوبهم ، ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال ، بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال ، متسعة للتلفت إلى الأحوال والأعمال ، إلا أنها مع ممارسة الأعمال لا تخلو عن المراقبة نعم غلب عليهم الحياء من الله فلا يقدمون ولا يحجمون إلا بعد التثبت فيه ، ويمتنعون عن كل مايفتضحون به في القيامة ، فإنهم يرون الله في الدنيا مطلعا عليهم فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة

وتعرف اختلاف الدرجتين بالمشاهدات ، فإنك في خلوتك قد تتعاطى أعمالا ، فيحضرك صبي أو امرأة ، فتعلم أنه مطلع عليك ، فتستحيي منه ، فتحسن جلوسك ، وتراعي أحوالك لا عن إجلال وتعظيم ، بل عن حياء . فإن مشاهدته وإن كانت لا تدهشك ولا تستغرقك فإنها تهيج الحياء منك . وقد يدخل عليك ملك من الملوك ، أو كبير من الأكابر ، فيستغرقك التعظيم حتى تترك كل ماأنت فيه شغلا به ، لا حياء منه

فهكذا تختلف مراتب العباد في مراقبة الله تعالى . ومن كان في هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته ، وسكناته ، وخطراته ، ولحظاته ، وبالجملة جميع اختياراته وله فيها نظران ، نظر قبل العمل ، ونظر في العمل

أما قبل العمل فلينظر أن ماظهر له وتحرك بفعله خاطره ، أهو لله خاصة ؟ أوهو في هوى النفس ومتابعة الشيطان فيتوقف فيه ويتثبت ، حتى ينكشف له ذلك بنور الحق ؟ فإن كان لله تعالى أمضاه . وإن كان لغير الله استحيا من الله وانكف عنه ، ثم لام نفسه على رغبته فيه ،

وهمه به ، وميله إليه ، وعرفها سوء فعلها ، وسعيها فى فضيحتها ، وأنها عدوة نفسها إن لم يتداركها الله بعصمته . وهذا التوقف فى بداية الأمور إلى حد البيان واجب محتوم لامحيص لأحد عنه ، فإن فى الخبر أنه [1] ينشر للعبد فى كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين، الديوان الأول لم ؟ والثانى كيف ؟ والثالث لمن ؟ ومعنى لم أي لم فعلت هذا ؟ أكان عليك أن تفعله لمولاك أوملت إليه بشهوتك وهواك ؟ فإن سلم منه بأن كان عليه أن يعمل ذلك لمولاه سئل عن الديوان الثانى، فقيل له كيف فعلت هذا ؟ فإن لله فى كل عمل شرطا وحكما لا يدرك قدره ، ووقته ، وصفته إلا بعلم ، فيقال له كيف فعلت ، أبعلم محقق ، أم بجهل وظن ؟ فإن سلم من هذا نشر الديوان الثالث ، وهو المطالبة بالإخلاص ، فيقال له : لمن عملت ؟ ألوجه الله خالصا وفاء بقولك لا إله إلا الله ، فيكون أجرك على الله ؟ أو لمرآة خلق مثلك ،فخذ أجرك منه أم عملته لتنال عاجل دنياك ، فقد وفيناك نصيبك من الدنيا ، أم عملته بسهو وغفلة ؛ فقد سقط أجرك ، وحبط عملك ، وخاب سعيك . وإن عملت لغيرى فقد استوجبت مقتى وعقابى، إذ كنت عبدا لى ، تأكل رزقى ، وتترفه بنعمتى ، ثم تعمل لغيرى . أما سمعتنى أقول (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ [1]) (إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ [2]) ويحك ، أما سمعتنى أقول (أَلَا لِلّٰهِ الدِّينُ الْخَالِصُ [3]) .

فإذا عرف العبد أنه بصدد هذه المطالبات والتوبيخات طالب نفسه قبل أن تطالب ، وأعد للسؤال جوابا ، وليكن الجواب صوابا ، فلا يبدىء ولا يعيد إلا بعد التثبت ، ولا يحرك جفنا ولا أنملة إلا بعد التأمل . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ [2] « إِنَّ الرَّجُلَ لَيُسْأَلُ عَنْ كُحْلِ عَيْنَيْهِ وَعَنْ فَتِّ الطِّينِ بِأُصْبُعَيْهِ وَعَنْ لَمْسِهِ ثَوْبَ أَخِيهِ » وقال الحسن : كان أحدهم إذا أراد أن يتصدق بصدقة نظر وتثبت ، فإن كان لله أمضاه . وقال الحسن : رحم الله تعالى عبدا وقف عند همه ؛ فإن كان لله مضى ، وإن كان لغيره تأخر

---

(١) حديث ينشر للعبد فى كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين الأول لم والثانى كيف والثالث لمن : لم أقف له على أصل

(٢) حديث قال لمعاذ إن الرجل ليسأل عن كحل عينيه ـ الحديث : تقدم فى الذى قبله

(١) الأعراف : ١٩٤ (٢) العنكبوت : ١٧ (٣) الزمر : ٣

وقال في حديث (١) سعد حين أوصاه سلمان : اتق الله عند همك إذا هممت . وقال محمد ابن علي : إن المؤمن وقاف متأن ، يقف عند همه ، ليس كحاطب ليل

فهذا هو النظر الأول في هذه المراقبة ، ولا يخلص من هذا إلا العلم المتين ؛ والمعرفة الحقيقية بأسرار الأعمال ، وأغوار النفس ، ومكايد الشيطان . فمتى لم يعرف نفسه ، وربه وعدوّه إبليس ، ولم يعرف مايوافق هواه ، ولم يميز بينه وبين مايحبه الله ويرضاه في نيته وهمته ، وفكرته ، وسكونه ، وحركته ، فلا يسلم في هذه المراقبة ، بل الأكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله تعالى ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا

ولا تظنن أن الجاهل بما يقدر على التعلم فيه يعذر . هيهات ، بل طلب العلم فريضة على كل مسلم ، ولهذا كانت ركعتان من عالم أفضل من ألف ركعة من غير عالم ، لأنه يعلم آفات النفوس ومكايد الشيطان ، ومواضع الغرور ، فيتقي ذلك . والجاهل لايعرفه ، فكيف يحترز منه ! فلا يزال الجاهل في تعب ، والشيطان منه في فرح وشماتة . فنعوذ بالله من الجهل والغفلة ، فهو رأس كل شقاوة ، وأساس كل خسران

فحكم الله تعالى على كل عبد أن يراقب نفسه عند همه بالفعل وسعيه بالجارحة ، فيتوقف عن الهم وعن السعي حتى ينكشف له بنور العلم أنه لله تعالى فيمضيه ، أو هو لهوى النفس فيتقيه ، ويزجر القلب عن الفكر فيه ، وعن الهم به . فإن الخطرة الأولى في الباطل إذا لم تدفع أورثت الرغبة ، والرغبة تورث الهم ، والهم يورث جزم القصد ، والقصد يورث الفعل ، والفعل يورث البوار والمقت . فينبغي أن تحسم مادة الشر من منبعه الأول ، وهو الخاطر ، فإن جميع ماوراءه يتبعه . ومهما أشكل على العبد ذلك ، وأظلمت الواقعة فلم ينكشف له ، فيتفكر في ذلك بنور العلم ، ويستعيذ بالله من مكر الشيطان بواسطة الهوى . فإن عجز عن الاجتهاد والفكر بنفسه فيستضيء بنور علماء الدين وليفر من العلماء المضلين المقبلين على الدنيا فراره من الشيطان ، بل أشد ، فقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : لاتسأل عني عالما أسكره حب الدنيا فيقطعك عن محبتي ، أولئك قطاع الطريق على

---

(١) حديث سعد حين أوصاه سلمان أن اتق الله عند همك اذا هممت : أحمد والحاكم وصححه وهذا القدر منه موقوف وأوله مرفوع تقدم

عبادى . فالقلوب المظلمة بحب الدنيا ، وشدة الشره ، والتكالب عليها محجوبة عن نور الله تعالى ، فإن مستضاء أنوار القلوب حضرة الربوبية ، فكيف يستضىء بها من استدبرها وأقبل على عدوّها ، وعشق بغيضها ومقيتها ، وهى شهوات الدنيا !

فلتكن همة المريد أولا فى أحكام العلم ، أو فى طلب عالم معرض عن الدنيا ، أو ضعيف الرغبة فيها إن لم يجد من هو عديم الرغبة فيها . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْبَصَرَ النَّاقِدَ عِنْدَ وُرُودِ الشُّبُهَاتِ وَالْعَقْلَ الْكَامِلَ عِنْدَ هُجُومِ الشَّهَوَاتِ » جمع بين الأمرين ، وهما متلازمان حقا . فمن ليس له عقل وازع عن الشهوات فليس له بصر ناقد فى الشبهات . ولذلك قال عليه السلام[٢] « مَنْ قَارَفَ ذَنْباً فَارَقَهُ عَقْلٌ لاَ يَعُودُ إِلَيْهِ أَبَداً » فما قدر العقل الضعيف الذى سعد الآدمي به ، حتى يعمد إلى محوه ومحقه بمقارفة الذنوب

ومعرفة آفات الأعمال قد اندرست فى هذه الأعصار ، فإن الناس كلهم قد هجروا هذه العلوم ، واشتغلوا بالتوسط بين الخلق فى الخصومات الثائرة فى اتباع الشهوات ، وقالوا هذا هو الفقه ، وأخرجوا هذا العلم الذى هو فقه الدين عن جملة العلوم ، وتجردوا لفقه الدنيا الذى ماقصد به إلا دفع الشواغل عن القلوب ليتفرغ لفقه الدين ، فكان فقه الدنيا من الدين بواسطة هذا الفقه . وفى الخبر[٣] « أَنْتُمُ الْيَوْمَ فِى زَمَانٍ خَيْرُكُمْ فِيهِ الْمُسَارِعُ وَسَيَأْتِى عَلَيْكُمْ زَمَانٌ خَيْرُكُمْ فِيهِ الْمُتَثَبِّتُ » ولهذا توقف طائفة من الصحابة فى القتال مع أهل العراق وأهل الشام ، لما أشكل عليهم الأمر ، كسعد بن أبى وقاص ، وعبد الله بن عمر ، وأسامة ، ومحمد بن مسلمة ، وغيرهم

فمن لم يتوقف عند الاشتباه كان متبعا لهواه ، معجبا برأيه ، وكان ممن وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال[٤] « فَإِذَا رَأَيْتَ شُحّاً مُطَاعاً وَهَوًى مُتَّبَعاً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِى رَأْىٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ » وكل من خاض فى شبهة بغير تحقيق فقد خالف قوله تعالى

---

(١) حديث ان الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات ـ الحديث : أبو نعيم فى الحلية من حديث عمران ابن حصين وفيه حفص بن عمر العدنى ضعفه الجمهور

(٢) حديث من قارف ذنبا فارقه عقل لايعود اليه أبدا : تقدم ولم أجده

(٣) حديث أنتم اليوم فى زمان خيركم فيه المسارع وسيأتى عليكم زمان خيركم فيه المتثبت : لم أجده

(٤) حديث فاذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ـ الحديث : تقدم

(وَلاَ تَقْفُ مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ [(١)]) وقوله عليه السلام [(١)] « إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ » وأراد به ظنا بغير دليل ، كما يستفتي بعض العوام قلبه فيما أشكل عليه ويتبع ظنه . ولصعوبة هذا الأمر وعظمه كان دعاء الصدّيق رضي الله تعالى عنه : اللهم أرنى الحق حقا وارزقنى اتباعه ، وأرنى الباطل باطلا وارزقنى اجتنابه ، ولا تجعله متشابها علي فأتبع الهوى [(٢)] وقال عيسى عليه السلام : الأمور ثلاثة: أمر استبان رشده فاتبعه ، وأمر استبان غيه فاجتنبه ، وأمر أشكل عليك فكله إلى عالمه . وقد كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم [(٣)] « اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَقُولَ فِي الدِّينِ بِغَيْرِ عِلْمٍ » فأعظم نعمة الله على عباده هو العلم ، وكشف الحق والإيمان عبارة عن نوع كشف وعلم ، ولذلك قال تعالى امتنانا على عبده (وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً [(٢)])وأراد به العلم . وقال تعالى(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ [(٣)]) وقال تعالى (إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى [(٤)]) وقال (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ [(٥)]) وقال (وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ [(٦)])

وقال علي كرم الله وجهه : الهوى شريك العمى ، ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ، ونعم طارد الهم اليقين ، وعاقبة الكذب الندم ، وفى الصدق السلامة . رب بعيد أقرب من قريب ، وغريب من لم يكن له حبيب ، والصديق من صدق غيبه . ولا يعدمك من حبيب سوء ظن ، نعم الخلق التكرم ، والحياء سبب إلى كل جميل ، وأوثق العرى التقوى ، وأوثق سبب أخذت به سبب بينك وبين الله تعالى . إنما لك من دنياك ماأصلحت به مثواك ، والرزق رزقان : رزق تطلبه ورزق يطلبك ، فإن لم تأته أتاك ، وإن كنت جازعا على ماأصيب مما فى يديك فلا تجزع على مالم يصل إليك ، واستدل على مالم يكن بما كان ، فإنما الأمور أشباه ، والمرء يسره درك مالم يكن ليفوته ، ويسوؤه فوت مالم يكن ليدركه . فما نالك من دنياك فلا تكثرن به فرحا ، وما فاتك منها فلا تتبعه نفسك أسفا . وليكن سرورك بما قدمت ، وأسفك على ماخلفت ، وشغلك لآخرتك ، وهمك فيما بعد الموت . وغرضنا

---

(١) حديث اياكم والظن ــ الحديث : تقدم

(٢) حديث قال عيسى الامور ثلاثة ــ الحديث : الطبرانى من حديث ابن عباس باسناد ضعيف

(٣) حديث اللهم إنى أعوذ بك أن أقول فى الدين بغير علم : لم أجده

(١) الاسراء : ٣٦ (٢) النساء : ١١٣ (٣) النحل : ٤٣ (٤) الليل : ١٢ (٥) القيامة : ١٩ (٦) النحل : ٩

من نقل هذه الحكايات أوله ومن التوفيق التوقف عند الحيرة

فإذاً النظر الأول للمراقب نظره في الهم والحركة ،أهي لله أم للهوى وقد قال صلى الله عليه وسلم (١) « ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ اسْتَكْمَلَ إِيمَانَهُ لَا يَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ وَلَا يُرَائِي بِشَيْءٍ مِنْ عَمَلِهِ وَإِذَا عَرَضَ لَهُ أَمْرَانِ أَحَدُهُمَا لِلدُّنْيَا وَالْآخَرُ لِلْآخِرَةِ آثَرَ الْآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا » وأكثر ماينكشف له في حركاته أن يكون مباحا ، ولكن لايعنيه فيتركه لقوله صلى الله عليه وسلم (٢) « مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَالَا يَعْنِيهِ »

النظر الثاني : للمراقبة عند الشروع في العمل ، وذلك بتفقد كيفية العمل ليقضي حق الله فيه ، ويحسن النية في إتمامه ، ويكمل صورته ، ويتعاطاه على أكمل مايمكنه وهذا ملازم له في جميع أحواله، فإنه لايخلو في جميع أحواله عن حركة وسكون . فإذا راقب الله تعالى في جميع ذلك قدر على عبادة الله تعالى فيها بالنية ، وحسن الفعل ، ومراعاة الأدب . فإن كان قاعدا مثلا، فينبغي أن يقعد مستقبل القبلة ،لقوله صلى الله عليه وسلم (٣) « خَيْرُ الْمَجَالِسِ مَا اسْتُقْبِلَ بِهِ الْقِبْلَةُ » ولايجلس متربعا ، إذلايجالس الملوك كذلك ، وملك الملوك مطلع عليه . قال ابراهيم بن أدهم رحمه الله : جلست مرة متربعا ، فسمعت هاتفا يقول : هكذا تجالس الملوك؟ فلم أجلس بعد ذلك متربعا . وإن كان ينام فينام على اليد اليمنى مستقبل القبلة ، مع سائر الآداب التي ذكرناها في مواضعها ، فكل ذلك داخل في المراقبة . بل لوكان في قضاء الحاجة فراعاته لآدابها وفاء بالمراقبة . فإذاً لايخلو العبد إما أن يكون في طاعة ، أو معصية ، أو في مباح. فمراقبته في الطاعة بالإخلاص، والإكمال، ومراعاة الأدب، وحراستها عن الآفات. وإن كان في معصية فمراقبته بالتوبة ،والندم ، والإقلاع ، والحياء ،والاشتغال بالتفكر. وإن كان في مباح فمراقبته بمراعاة الأدب ، ثم بشهود المنعم في النعمة ، وبالشكر عليها

ولايخلو العبد في جملة أحواله عن بلية لابدله من الصبر عليها . ونعمة لابدله من الشكر عليها . وكل ذلك من المراقبة . بل لاينفك العبد في كل حال من فرض لله تعالى عليه إما فعل

---

(١) حديث ثلاث من كن فيه استكمل ايمانه لايخاف في الله لومة لائم ـ الحديث : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وقد تقدم

(٢) حديث من حسن اسلام المرء تركه مالايعنيه : تقدم

(٣) حديث خير المجالس مااستقبل به القبلة الحاكم من حديث ابن عباس : وقد تقدم

يلزمه مباشرته ، أو محظور يلزمه تركه ، أو ندب حث عليه ليسارع به إلى مغفرة الله تعالى ، ويسابق به عباد الله ، أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه ،وفيه عون له على طاعته ولكل واحد من ذلك حدود لابد من مراعاتها بدوام المراقبة (وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ [١])

فينبغي أن يتفقد العبد نفسه في جميع أوقاته في هذه الأقسام الثلاثة . فإذا كان فارغا من الفرائض، وقدر على الفضائل، فينبغي أن يلتمس أفضل الأعمال ليشتغل بها ، فإن من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو مغبون ، والأرباح تنال بمزايا الفضائل ، فبذلك يأخذ العبد من دنياه لآخرته ، كما قال تعالى (وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا [٢])

وكل ذلك إنما يمكن بصبر ساعة واحدة ، فإن الساعات ثلاث . ساعة مضت لاتعب فيها على العبد كيفما انقضت في مشقة أو رفاهية ، وساعة مستقبلة لم تأت بعد ، لايدري العبد أيعيش إليها أم لا ، ولا يدري مايقضي الله فيها ، وساعة راهنة ينبغي أن يجاهد فيها نفسه ، ويراقب فيها ربه . فإن لم تأته الساعة الثانية لم يتحسر على فوات هذه الساعة ، وإن أتته الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى من الأولى . ولا يطول أمله خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها ، بل يكون ابن وقته ، كأنه في آخر أنفاسه ، فلعله آخر أنفاسه وهو لايدري . وإذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه فينبغي أن يكون على وجه لايكره أن يدركه الموت وهو على تلك الحالة ، وتكون جميع أحواله مقصورة على مارواه أبو ذر رضي الله تعالى عنه ، من قوله عليه السلام [١] « لاَ يَكُونُ الْمُؤْمِنُ ظَاعِناً إِلَّا فِي ثَلاَثٍ تَزَوُّدٍ لِمَعَادٍ أَوْ مَرَمَّةٍ لِمَعَاشٍ أَوْ لَذَّةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ » وما روي عنه أيضا في معناه [٢] « وَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ تَكُونَ لَهُ أَرْبَعُ سَاعَاتٍ سَاعَةٌ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ وَسَاعَةٌ يُحَاسِبُ فِيهَا نَفْسَهُ وَسَاعَةٌ يَتَفَكَّرُ فِيهَا فِي صُنْعِ اللهِ تَعَالَى وَسَاعَةٌ يَخْلُو فِيهَا لِلْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ » فإن في هذه الساعة عونا له على بقية الساعات ، ثم هذه الساعة التي هو فيها مشغول

---

(١) حديث أبي ذر لايكون المؤمن ظاعنا الا في ثلاث تزود لمعاد ـ الحديث : أحمد وابن حبان والحاكم وصححه انه صلى الله عليه وسلم قال انه في صحف موسى وقد تقدم

(٢) حديث وعلى العاقل أن يكون له ثلاث ساعات ساعة يناجي فيها ربه ـ الحديث : وهي بقية حديث أبي ذر الذي قبله

---

(١) الطلاق : ١. (٢) القصص : ٧٧

الجوارح بالمطعم والمشرب لاينبغى أن يخلو عن عمل هو أفضل الأعمال ، وهو الذكر والفكر ، فإن الطعام الذى يتناوله مثلا فيه من العجائب مالو تفكر فيه وفطن له ، كان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح

والناس فيه أقسام : قسم ينظرون إليه بعين التبصر والاعتبار ، فينظرون فى عجائب صنعته ، وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به ، وكيفية تقدير الله لأسبابه ، وخلق الشهوات الباعثة عليه ، وخلق الآلات المسخرة للشهوة فيه ، كما فصلنا بعضه فى كتاب الشكر ، وهـــــذا مقام ذوى الألباب

وقسم ينظرون فيه بعين المقت والكراهة ، ويلاحظون وجه الاضطرار إليه ، ويودهم لو استغنوا عنه ، ولكن يرون أنفسهم مقهورين فيه ، مسخرين لشهواته ، وهذا مقام الزاهدين . وقوم يرون فى الصنعة الصانع ، ويترقون منها إلى صفات الخالق ، فتكون مشاهدة ذلك سببا لتذكر أبواب من الفكر تنفتح عليهم بسببه ، وهو أعلى المقامات ، وهو من مقامات العارفين وعلامات المحبين ، إذ المحب إذا رأى صنعة حبيبه ، وكتابه ، وتصنيفه ، نسي الصنعة ، واشتغل قلبه بالصانع . وكل مايتردد العبد فيه صنع الله تعالى ، فله فى النظر منه إلى الصانع مجال رحب إن فتحت له أبواب الملكوت وذلك عزيز جدا . وقسم رابع ينظرون إليه بعين الرغبة والحرص ، فيتأسفون على مافاتهم منه ، ويفرحون بما حضرهم من جملته ، ويذمون منه مالا يوافق هواهم ، ويعيبونه ويذمون فاعله ، فيذمون الطبيخ والطباخ ، ولا يعلمون أن الفاعل للطبيخ والطباخ ولقدرته ولعلمه هو الله تعالى ، وأن من ذم شيئا من خلق الله بغير إذن الله فقد ذم الله ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم [1] « لاتَسُبُّوا الدَّهْرَ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ »

فهذه المرابطة الثانية بمراقبة الأعمال على الدوام والاتصال . وشرح ذلك يطول ، وفيما ذكرناه تنبيه على المنهاج لمن أحكم الأصول

---

(١) حديث لاتسبوا الدهر فان الله هو الدهر : مسلم من حديث أبي هريرة

المرابطة الثالثة

محاسبة النفس بعد العمل . ولنذكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها

أما الفضيلة فقد قال الله تعالى (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَاقَدَّمَتْ لِغَدٍ [1]) وهذه إشارة إلى المحاسبة على مامضى من الأعمال . ولذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا . وفى الخبر أنه عليه السلام جاءه رجل فقال : يارسول الله أوصنى . فقال « أَمُسْتَوْصٍ أَنْتَ » فقال نعم : قال « إِذَا هَمَمْتَ بِأَمْرٍ فَتَدَبَّرْ عَاقِبَتَهُ فَإِنْ كَانَ رُشْداً فَامْضِهِ وَإِنْ كَانَ غَيّاً فَانْتَهِ عَنْهُ »

وفى الخبر ، وينبغي للعاقل أن يكون له أربع ساعات ، ساعة يحاسب فيها نفسه

وقال تعالى (وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [2]) والتوبة نظر فى الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (١)« إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ تَعَالَى وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ » وقال الله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ [3]) . وعن عمر رضي الله تعالى عنه ، أنه كان يضرب قدميه بالدرة إذا جنه الليل ويقول لنفسه : ماذا عملت اليوم ؟

وعن ميمون بن مهران أنه قال : لايكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه . والشريكان يتحاسبان بعد العمل

وروي عن عائشة رضي الله تعالى عنها ، أن أبا بكر رضوان الله عليه قال لها عند الموت ماأحد من الناس أحب إليّ من عمر . ثم قال لها : كيف قلت ؟ فأعادت عليه ماقال ، فقال: لا أحد أعز عليّ من عمر . فانظر كيف نظر بعد الفراغ من الكلمة ، فتدبرها وأبدلها بكلمة غيرها . وحديث (٢) أبى طلحة حين شغله الطائر فى صلاته ، فتدبر ذلك ، فجعل حائطه صدقة لله تعالى ندما ورجاء للعوض مما فاته

---

(١) حديث انى لأستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم مائة مرة : تقدم غير مرة

(٢) حديث أبى طلحة حين شغله الطائر عن صلاته فجعل حديقته صدقة : تقدم غير مرة

[1] الحشر : ١٧ [2] النور : ٣١ [3] الاعراف : ٢٠١

وفى حديث ابن سلام أنه حمل حزمة من حطب . فقيل له ياأبا يوسف ، قد كان فى بنيك وغلمانك مايكفونك هذا . فقال : أردت أن أجرب نفسى هل تكره

وقال الحسن : المؤمن قوّام على نفسه يحاسبها لله . وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم فى الدنيا ، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة. ثم فسر المحاسبة فقال : إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول : والله إنك لتعجبنى ، وإنك من حاجتى ، ولكن هيهات ، حيل بينى وبينك . وهذا حساب قبل العمل . ثم قال : ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول : ماذا أردت بهذا ؟ والله لا أعذر بهذا ، والله لا أعود لهذا أبدا إن شاء الله . وقال أنس بن مالك : سمعت عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يوما ، وقد خرج وخرجت معه حتى دخل حائطا ، فسمعته يقول ، وبينى وبينه جدار وهو فى الحائط . عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ! بخ بخ ، والله لتتقين الله أو ليعذبنك

وقال الحسن فى قوله تعالى (وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ [1]) قال لايلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه ، ماذا أردت بكلمتى ؟ ماذا أردت بأكلتى ؟ ماذا أردت بشربتى ؟ والفاجر يمضى قدما لا يعاتب نفسه . وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى : رحم الله عبدا قال لنفسه ألست صاحبة كذا ؟ ألست صاحبة كذا ؟ ثم ذمها ، ثم خطمها ، ثم ألزمها كتاب الله تعالى فكان له قائدا . وهذا من معاتبة النفس كما سيأتى فى موضعه

وقال ميمون بن مهران : التقي أشد محاسبة لنفسه من سلطان غاشم ، ومن شريك شحيح

وقال ابراهيم التيمى : مثلت نفسى فى الجنة آكل من ثمارها ، وأشرب من أنهارها وأعانق أبكارها . ثم مثلت نفسى فى النار آكل من زقومها ، وأشرب من صديدها ، وأعالج سلاسلها وأغلالها . فقلت لنفسى : يانفس ، أي شيء تريدين ، فقالت أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحا . قلت : فأنت فى الأمنية فاعملى

وقال مالك بن دينار : سمعت الحجاج يخطب وهو يقول . رحم الله امرأ حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره ، رحم الله امرأ أخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به ، رحم الله امرأ نظر فى مكياله ، رحم الله امرأ نظر فى ميزانه . فما زال يقول حتى أبكانى

---

(1) القيامة : ٢

وحكى صاحب للأحنف بن قيس قال : كنت أصحبه ، فكان عامة صلاته بالليل الدعاء وكان يجيء إلى المصباح فيضع أصبعه فيه حتى يحس بالنار ، ثم يقول لنفسه . ياحنيف ، ماحملك على ماصنعت يوم كذا ؟ ماحملك على ماصنعت يوم كذا ؟

بيان

حقيقة المحاسبة بعد العمل

اعلم أن العبد كما يكون له وقت فى أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق فينبغى أن يكون له فى آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها ، كما يفعل التجار فى الدنيا مع الشركاء فى آخر كل سنة ، أو شهر ، أو يوم ، حرصا منهم على الدنيا ، وخوفا من أن يفوتهم منها مالو فاتهم لكانت الخيرة لهم فى فواته ، ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى إلا أياما قلائل . فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد ! ماهذه المساهلة إلا عن الغفلة ، والخذلان ، وقلة التوفيق ، نعوذ بالله من ذلك . ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر فى رأس المال ، وفى الربح والخسران ، ليتبين له الزيادة من النقصان . فإن كان من فضل حاصل استوفاه وشكره وإن كان من خسران طالبه بضمانه وكلفه تداركه فى المستقبل . فكذلك رأس مال العبد فى دينه الفرائض ، وربحه النوافل والفضائل ، وخسرانه المعاصى . وموسم هذه التجارة جملة النهار ، ومعاملة نفسه الأمارة بالسوء فيحاسبها على الفرائض أولا ، فإن أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه ، ورغبها فى مثلها ، وإن فوتها من أصلها طالبها بالقضاء ، وإن أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل ، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها ، وتعذيبها ، ومعاتبتها ليستوفى منها مايتدارك به مافرط ، كما يصنع التاجر بشريكه

وكما أنه يفتش فى حساب الدنيا عن الحبة والقيراط ، فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يغبن فى شيء منها ، فينبغى أن يتقى غبينة النفس ومكرها ، فإنها خداعة ملبسة مكارة فليطالبها أولا بتصحيح الجواب عن جميع ماتكلم به طول نهاره ، وليتكفل بنفسه من الحساب ماسيتولاه غيره فى صعيد القيامة ، وهكذا عن نظره ، بل عن خواطره ، وأفكاره

وقيامه ، وقعوده ، وأكله ، وشربه ، ونومه ، حتى عن سكوته إنه لم سكت ، وعن سكونه لم سكن . فإذا عرف مجموع الواجب على النفس ، وصح عنده قدر أدى الواجب فيه ، كان ذلك القدر محسوبا له ، فيظهر له الباقى على نفسه ، فليثبته عليها ، وليكتبه على صحيفة قلبه كما يكتب الباقى الذى على شريكه على قلبه وفى جريدة حسابه

ثم النفس غريم يمكن أن يستوفى منه الديون . أما بعضها فبالغرامة والضمان ، وبعضها برد عينه ، وبعضها بالعقوبة لها على ذلك . ولا يمكن شىء من ذلك إلا بعد تحقيق الحساب وتمييز الباقى من الحق الواجب عليه . فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء

ثم ينبغى أن يحاسب النفس على جميع العمر يوما يوما ، وساعة ساعة ، فى جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة ، كما نقل عن توبة بن الصمة ، وكان بالرقة ، وكان محاسبا لنفسه ، فحسب يوما فإذا هو ابن ستين سنة ، فحسب أيامها فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم ، فصرخ وقال . ياويلتى ، ألقى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب ! فكيف وفى كل يوم عشرة آلاف ذنب ! ثم خر مغشيا عليه فإذا هو ميت . فسمعوا قائلا يقول . يالك ركضة إلى الفردوس الأعلى !

فهكذا ينبغى أن يحاسب نفسه على الأنفاس ، وعلى معصيته بالقلب والجوارح فى كل ساعة . ولو رمى العبد بكل معصية حجرا فى داره لامتلأت داره فى مدة يسيرة قريبة من عمره ، ولكنه يتساهل فى حفظ المعاصى ، والملكان يحفظان عليه ذلك ، أحصاه الله ونسوه

المرابطة الرابعة

فى معاقبة النفس على تقصيرها

مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارفة معصية ، وارتكاب تقصير فى حق الله تعالى ، فلا ينبغى أن يهملها ، فإنه إن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصى ، وأنست بها نفسه ، وعسر عليه فطامها ، وكان ذلك سبب هلاكها . بل ينبغى أن يعاقبها . فإذا أكل لقمة شبهة بشهوة نفس ينبغى أن يعاقب البطن بالجوع . وإذا نظر إلى غير محرم ينبغى أن يعاقب العين بمنع النظر . وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته هكذا كانت عادة

سالكي طريق الآخرة ، فقد روي عن منصور بن ابراهيم ، أن رجلا من العبّاد كلم امرأة فلم يزل حتى وضع يده على فخذها ، ثم ندم فوضع يده على النار حتى يبست

وروي أنه كان في بني اسرائيل رجل يتعبد في صومعته ، فمكث كذلك زمانا طويلا ، فأشرف ذات يوم فإذا هو بامرأة ، فافتتن بها وهمّ بها ، فأخرج رجله لينزل إليها ، فأدركه الله بسابقة فقال : ماهذا الذي أريد أن أصنع ؟ فرجعت إليه نفسه ، وعصمه الله تعالى ، فندم . فلما أراد أن يعيد رجله إلى الصومعة قال : هيهات هيهات ، رجل خرجت تريد أن تعصي الله تعود معي في صومعتي ! لايكون والله ذلك أبدا . فتركها معلقة في الصومعة تصيبها الأمطار ، والرياح ، والثلج ، والشمس ، حتى تقطعت فسقطت ، فشكر الله له ذلك ، وأنزل في بعض كتبه ذكره

ويحكي عن الجنيد قال : سمعت ابن الكريبي يقول : أصابتني ليلة جنابة ، فاحتجت أن أغتسل ، وكانت ليلة باردة ، فوجدت في نفسي تأخرا وتقصيرا ، فحدثتني نفسي بالتأخير حتى أصبح وأسخن الماء أو أدخل الحمام ، ولا أعني على نفسي . فقلت واعجبا ! أنا أعامل الله في طول عمري ، فيجب له عليّ حق ، فلا أجد فيّ المسارعة ، وأجد الوقوف والتأخر ! آليت أن لا أغتسل إلا في مرقعتي هذه ، وآليت أن لا أنزعها ، ولا اعصرها ، ولا أجففها في الشمس . ويحكى أن غزوان وأباموسى كانا في بعض مغازيهما ، فتكشفت جارية ، فنظر إليها غزوان ، فرفع يده فلطم عينه حتى بقرت وقال : إنك للحّاظة إلى مايضرك

ونظر بعضهم نظرة واحدة إلى امرأة ، فجعل على نفسه أن لايشرب الماء البارد طول حياته ، فكان يشرب الماء الحار لينغص على نفسه العيش . ويحكى أن حسان بن أبي سنان مر بغرفة فقال : متى بنيت هذه ؟ ثم أقبل على نفسه فقال : تسألين عما لايعنيك ، لأعاقبنك بصوم سنة ، فصامها . وقال مالك بن ضيغم : جاء رباح القيسي يسأل عن أبي بعد العصر ، فقلنا إنه نائم . فقال أنوم هذه الساعة ! هذا وقت نوم ! ثم ولى منصرفا . فأتبعناه رسولا وقلنا . ألا نوقظه لك ؟ فجاء الرسول وقال . هو أشغل من أن يفهم عني شيئا ، أدركته وهو يدخل المقابر وهو يعاتب نفسه ويقول . أقلت وقت نوم هذه الساعة ؟ أفكان هذا عليك ؟ ينام الرجل متى شاء . ومايدريك أن هذا ليس وقت نوم ؟ تتكلمين بما لا تعلمين ؟ أما إن لله علي عهدا لا أنقضه أبدا لاأوسدك الأرض لنوم حولا إلا لمرض حائل ، أو لعقل

زائل ، سوأة لك ، أما تستحين ؟ كم توبخين ؟ وعن غيك لا تنتهين ؟ قال وجعل يبكي وهو لايشعر بمكاني . فلما رأيت ذلك انصرفت وتركته . ويحكى عن تميم الداري أنه نام ليلة لم يقم فيها يتهجد ، فقام سنة لم ينم فيها عقوبة للذي صنع

وعن[1] طلحة رضي الله تعالى عنه قال. انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرغ في الرمضاء فكان يقول لنفسه . ذوقي ونار جهنم أشد حرا . أجيفة بالليل بطالة بالنهار ! فبينما هو كذلك إذ أبصر النبي صلى الله عليه وسلم في ظل شجرة ، فأتاه فقال : غلبتني نفسي . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « أَلَمْ يَكُنْ لَكَ بُدٌّ مِنَ الَّذِي صَنَعْتَ أَمَا لَقَدْ فُتِحَتْ لَكَ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَقَدْ بَاهَى اللهُ بِكَ الْمَلَائِكَةَ » ثم قال لأصحابه « تَزَوَّدُوا مِنْ أَخِيكُمْ » فجعل الرجل يقول له يافلان ادع لي ، يافلان ادع لي ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « عُمَّهُمْ » فقال . اللهم اجعل التقوى زادهم ، واجمع على الهدى أمرهم . فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول « اللَّهُمَّ سَدِّدْهُ » فقال الرجل اللهم اجعل الجنة مآبهم

وقال حذيفة بن قتادة : قيل لرجل كيف تصنع بنفسك في شهواتها ؟ فقال ما على وجه الأرض نفس أبغض إليّ منها : فكيف أعطيها شهواتها !

ودخل ابن السماك على داود الطائي حين مات وهو في بيته على التراب ، فقال يا داود ، سجنت نفسك قبل أن تسجن، وعذبت نفسك قبل أن تعذب، فاليوم ترى ثواب من كنت تعمل له . وعن وهب بن منبه ، أن رجلا تعبد زمانا ، ثم بدت له إلى الله تعالى حاجة ، فقام سبعين سبتا يأكل في كل سبت إحدى عشرة تمرة ، ثم سأل حاجته فلم يعطها ، فرجع إلى نفسه وقال . منك أتيت ، لو كان فيك خير لأعطيت حاجتك . فنزل إليه ملك وقال. يا ابن آدم ، ساعتك هذه خير من عبادتك التي مضت ، وقد قضى الله حاجتك

وقال عبد الله بن قيس : كنا في غزاة لنا ، فحضر العدو ، فصيح في الناس ، فقاموا إلى المصاف في يوم شديد الريح ، وإذا رجل أمامي وهو يخاطب نفسه ويقول . أي نفسي ، ألم أشهد مشهد كذا وكذا فقلت لي أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت ؟ ألم أشهد مشهد كذا

---

(١) حديث طلحة انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرغ في الرمضاء وكان يقول لنفسه ونار جهنم أشد حرا ـ الحديث : بطوله ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس من رواية لبث بن أبي سليم عنه وهذا منقطع أو مرسل ولا أدري من طلحة هذا

وكذا فعلت لى أهلك وعيالك فأطعمك ورجعت ؟ والله لأعرضنك اليوم على الله أخذك أو تركك . فقلت لأرمقنه اليوم ، فرمقته ، فحمل الناس على عدوهم فكان فى أوائلهم ، ثم إن العدو حمل على الناس فانكشفوا ، فكان فى موضعه حتى انكشفوا مرات ، وهو ثابت يقاتل فو الله مازال ذلك دأبه حتى رأيته صريعا . فعددت به وبدابته ستين أو أكثر من ستين طعنة . وقد ذكرنا حديث أبى طلحة لما اشتغل قلبه فى الصلاة بطائر فى حائطه فتصدق بالحائط كفارة لذلك . وأن عمر كان يضرب قدميه بالدرة كل ليلة ويقول . ماذا عملت اليوم

وعن مجمع أنه رفع رأسه إلى السطح ، فوقع بصره على امرأة ، فجعل على نفسه أن لا يرفع رأسه إلى السماء مادام فى الدنيا . وكان الأحنف بن قيس لا يفارقه المصباح بالليل ، فكان يضع أصبعه عليه ويقول لنفسه . ماحملك على أن صنعت يوم كذا كذا ؟

وأنكر وهيب بن الورد شيئا على نفسه ، فنتف شعرات على صدره حتى عظم ألمه ، ثم جعل يقول لنفسه . ويحك ، إنما أريد بك الخير

ورأى محمد بن بشر داود الطائى وهو يأكل عند إفطاره خبزا بغير ملح ، فقال له : لو أكلته بملح ؟ فقال : إن نفسى لتدعونى إلى الملح منذ سنة ، ولا ذاق داود ملحا مادام فى الدنيا

فهكذا كانت عقوبة أولى الحزم لأنفسهم . والعجب أنك تعاقب عبدك ، وأمتك ، وأهلك ، وولدك ، على مايصدر منهم من سوء خلق وتقصير فى أمر ، وتخاف أنك لو تجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن الاختيار وبغوا عليك ، ثم تهمل نفسك وهي أعظم عدو لك ، وأشد طغيانا عليك ، وضررك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهلك ، فإن غايتهم أن يشوشوا عليك معيشة الدنيا ، ولو عقلت لعلمت أن العيش عيش الآخرة ، وأن فيه النعيم المقيم الذى لا آخر له . ونفسك هي التى تنغص عليك عيش الآخرة ، فهي بالمعاقبة أولى من غيرها

المرابطة الخامسة

المجاهدة

وهو أنه إذا حاسب نفسه فرآها قد قارفت معصية ، فينبغى أن يعاقبها بالعقوبات التى مضت . وإن رآها تتوانى بحكم الكسل فى شيء من الفضائل أو ورد من الأوراد ،

فينبغي أن يؤدبها بتثقيل الأوراد عليها ، ويلزمها فنونا من الوظائف جبرا لما فات منه ، وتداركا لما فرط ؛ فهكذا كان يعمل عمال الله تعالى . فقد عاقب عمر بن الخطاب نفسه حين فاتته صلاة العصر في جماعة ، بأن تصدق بأرض كانت له قيمتها مائتا ألف درهم

وكان ابن عمر إذا فاتته صلاة في جماعة أحيا تلك الليلة . وأخر ليلة صلاة المغرب حتى طلع كوكبان ، فأعتق رقبتين . وفات ابن أبي ربيعة ركعتا الفجر . فأعتق رقبة . وكان بعضهم يجعل على نفسه صوم سنة ، أو الحج ماشيا ، أو التصدق بجميع ماله ، كل ذلك مرابطة للنفس ومؤاخذة لها بما فيه نجاتها

فإن قلت : إن كانت نفسي لا تطاوعني على المجاهدة والمواظبة على الأوراد، فا سبيل معالجتها؟

فأقول : سبيلك في ذلك أن تسمعها ماورد في الأخبار من فضل المجتهدين [1] ومن أنفع أسباب العلاج أن تطلب صحبة عبد من عباد الله مجتهد في العبادة ، فتلاحظ أقواله وتقتدي به . وكان بعضهم يقول : كنت إذا اعترتني فترة في العبادة نظرت إلى أحوال محمد بن واسع ، وإلى اجتهاده ، فعملت على ذلك أسبوعا . إلا أن هذا العلاج قد تعذر ، إذ قد فقد في هذا الزمان من يجتهد في العبادة اجتهاد الأولين ، فينبغي أن يعدل من المشاهدة إلى السماع ، فلا شيء أنفع من سماع أحوالهم ، ومطالعة أخبارهم وما كانوا فيه من الجهد الجهيد ، وقد انقضى تعبهم ، وبقي ثوابهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع ، فما أعظم ملكهم ، وما أشد حسرة من لا يقتدي بهم ، فيمتع نفسه أياما قلائل بشهوات مكدرة ، ثم يأتيه الموت ، ويحال بينه وبين كل ما يشتهيه أبد الآباد ! نعوذ بالله تعالى من ذلك

ونحن نورد من أوصاف المجتهدين وفضائلهم ما يحرك رغبة المريد في الاجتهاد اقتداء بهم . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] « رَحِمَ اللهُ أَقْوَامًا يَحْسَبُهُمُ النَّاسُ مَرْضَى

---

(١) الأخبار الواردة في حق المجتهدين : أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين وله وللنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة باسناد صحيح رحم الله رجلا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته وللترمذي من حديث بلال عليكم بقيام الليل فانه دأب الصالحين قبلكم ـ الحديث: وقال غريب ولا يصح وقد تقدم في الاوراد مع غيره من الأخبار في ذلك

(٢) حديث رحم الله أقواما تحسبهم مرضى وماهم بمرضى : لم أجد له أصلا في حديث مرفوع ولكن رواه أحمد في الزهد موقوفا على علي في كلام له قال فيه ينظر اليهم الناظر فيقول مرضى وما بالقوم من مرض

وَمَا هُمْ بِمَرْضَى » قال الحسن : أجهدتهم العبادة . قال الله تعالى (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ [1]) قال الحسن : يعملون ماعملوا من أعمال البر ، ويخافون أن لاينجيهم ذلك من عذاب الله . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [(1)] « طُوبَى لِمَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ » . ويروى أن الله تعالى يقول لملائكته : مابال عبادى مجتهدين ، فيقولون إلهنا خوفتهم شيئا فخافوه ، وشوقتهم إلى شىء فاشتاقوا إليه . فيقول الله تبارك وتعالى : فكيف لو رآنى عبادى لكانوا أشد اجتهادا

وقال الحسن : أدركت أقواما وصحبت طوائف منهم ، ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ، ولا يتأسفون على شيء منها أدبر ، ولهي كانت أهون فى أعينهم من هذا التراب الذى تطؤنه بأرجلكم إن كان أحدهم ليعيش عمره كله ماطوى له ثوب ، ولا أمر أهله بصنعة طعام قط ، ولا جعل بينه وبين الأرض شيئا قط . وأدركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم ، إذا جنهم الليل فقيام على أطرافهم ، يفترشون وجوههم ، تجرى دموعهم على خدودهم يناجون ربهم فى فكاك رقابهم . إذا عملوا الحسنة فرحوا بها ، ودأبوا فى شكرها ، وسألوا الله أن يتقبلها . وإذا عملوا السيئة أحزنتهم ، وسألوا الله أن يغفرها لهم . والله مازالوا كذلك وعلى ذلك ، ووالله ماسلموا من الذنوب ، ولا نجوا إلا بالمغفرة

ويحكى أن قوما دخلوا على عمر بن عبد العزيز يعودونه فى مرضه ، وإذا فيهم شاب ناحل الجسم . فقال عمر له : يافتى ، ما الذى بلغ بك ما أرى ؟ فقال ياأمير المؤمنين ، أسقام وأمراض . فقال سألتك بالله إلا صدقتني . فقال ياأمير المؤمنين، ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مرة ، وصغر عندى زهرتها وحلاوتها ، واستوى عندى ذهبها وحجرها ، وكأنى أنظر إلى عرش ربى والناس يساقون إلى الجنة والنار ، فأظمأت لذلك نهارى ، وأسهرت ليلى ، وقليل حقير كل ماأنا فيه فى جنب ثواب الله وعقابه

وقال أبو نعيم : كان داود الطائى يشرب الفتيت ولا يأكل الخبز ، فقيل له فى ذلك ، فقال :

---

(١) حديث طوبى لمن طال عمره وحسن عمله : الطبرانى من حديث عبد الله بن بشر وفيه بقية رواه بصيغة عن وهو مدلس وللترمذى من حديث أبى بكرة خير الناس من طال عمره وحسن عمله وقال حسن صحيح وقد تقدم

---

[1] المؤمنون : ٦٠

بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية . ودخل رجل عليه يوما فقال : إن فى سقف بيتك جذعا مكسورا . فقال : يا ابن أخى ، إن لى فى البيت منذ عشرين سنة ما نظرت إلى السقف . وكانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام

وقال محمد بن عبد العزيز : جلسنا إلى أحمد بن رزين من غدوة إلى العصر ، فما التفت يمنة ولا يسرة ، فقيل له فى ذلك ، فقال : إن الله عز وجل خلق العينين لينظر بهما العبد إلى عظمة الله تعالى . فكل من نظر بغير اعتبار كتبت عليه خطيئة

؛ وقالت امرأة مسروق : ما كان يوجد مسروق إلا وساقاه منتفختان من طول الصلاة . وقالت : والله إن كنت لأجلس خلفه فأبكى رحمة له

وقال أبو الدرداء : لولا ثلاث ما أحببت العيش يوما واحدا : الظمأ لله بالهواجر ، والسجود لله فى جوف الليل ، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب الثمر .

وكان الأسود بن يزيد يجتهد فى العبادة ، ويصوم فى الحر ، حتى يخضر جسده ويصفر ، فكان علقمة بن قيس يقول له : لم تعذب نفسك ؟ فيقول كرامتها أريد . وكان يصوم حتى يخضر جسده ، ويصلى حتى يسقط . فدخل عليه أنس بن مالك والحسن ، فقالا له : إن الله عز وجل لم يأمرك بكل هذا . فقال إنما أنا عبد مملوك ، لا أدع من الاستكانة شيئا إلا جئت به . وكان بعض المجتهدين يصلى كل يوم ألف ركعة حتى أقعد من رجليه ، فكان يصلى جالسا ألف ركعة ، فإذا صلى العصر احتبى ثم قال : عجبت للخليقة كيف أرادت بك بدلا منك ! عجبت للخليقة كيف أنست بسواك ! بل عجبت للخليقة كيف استنارت قلوبها بذكر سواك ،

وكان ثابت البنانى قد حببت إليه الصلاة ، فكان يقول : اللهم إن كنت أذنت لأحد أن يصلى لك فى قبره فائذن لى أن أصلى فى قبرى . وقال الجنيد : ما رأيت أعبد من السرى ، أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رؤى مضطجعا إلا فى علة الموت .

وقال الحارث بن سعد : مر قوم براهب ، فرأوا ما يصنع بنفسه من شدة اجتهاده ، فكلموه فى ذلك فقال : وما هذا عند ما يراد بالخلق من ملاقاة الأهوال وهم غافلون ! قد اعتكفوا على حظوظ أنفسهم ، ونسوا حظهم الأكبر من ربهم . فبكى القوم عن آخرهم

وعن أبي محمد المغازلي قال : جاور أبو محمد الجريري بمكة سنة ، فلم ينم ، ولم يتكلم ، ولم يستند إلى عمود ولا إلى حائط ، ولم يمد رجليه . فعبر عليه أبو بكر الكتاني ، فسلم عليه وقال له : ياأبا محمد ، بم قدرت على اعتكافك هذا ؟ فقال : علم صدق باطني فأعانني على ظاهري فأطرق الكتاني ومشى مفكرا

وعن بعضهم قال : دخلت على فتح الموصلي ، فرأيته قد مدّ كفيه يبكي حتى رأيت الدموع تنحدر من بين أصابعه . فدنوت منه ، فإذا دموعه قد خالطها صفرة . فقلت ولمَ بالله يافتح بكيت الدم ؟ فقال لولا أنك أحلفتني بالله ماأخبرتك . نعم بكيت دما فقلت له : على ماذا بكيت الدموع ؟ فقال على تخلفي عن واجب حق الله تعالى . وبكيت الدم على الدموع لئلا يكون ماصحت لي الدموع . قال : فرأيته بعد موته في المنام فقلت : ماصنع الله بك ؟ قال . غفر لي . فقلت له فماذا صنع في دموعك ؟ فقال : قربني ربي عز وجل وقال لي : يافتح الدمع على ماذا ؟ قلت يارب على تخلفي عن واجب حقك ، فقال والدم على ماذا ؟ قلت على دموعي أن لاتصح لي . فقال لي : يافتح ماأردت بهذا كله ؟ وعزتي وجلالي لقد صعد حافظاك أربعين سنة بصحيفتك مافيها خطيئة

وقيل إن قوما أرادوا سفرا ، فحادوا عن الطريق ، فانتهوا إلى راهب منفرد عن الناس فنادوه ، فأشرف عليهم من صومعته ، فقالوا ياراهب ، إنا قد أخطأنا الطريق ، فكيف الطريق ؟ فأومأ برأسه إلى السماء . فعلم القوم ماأراد . فقالوا ياراهب ، إنا سائلوك فهل أنت مجيبنا ؟ فقال سلوا ولا تكثروا ، فإن النهار لن يرجع ، والعمر لايعود ، والطالب حثيث . فعجب القوم من كلامه فقالوا : ياراهب ، علام الخلق غداً عند مليكهم ؟ فقال على نياتهم . فقالوا : أوصنا . فقال : تزودوا على قدر سفركم ، فإن خير الزاد مابلّغ البغية . ثم أرشدهم إلى الطريق ، وأدخل رأسه في صومعته

وقال عبد الواحد بن زيد : مررت بصومعة راهب من رهبان الصين ، فناديته ياراهب فلم يجبني ، فناديته الثانية فلم يجبني ، فناديته الثالثة فأشرف علي وقال : ياهذا ماأنا براهب ، إنما الراهب من رهب الله في سمائه ، وعظمه في كبريائه ، وصبر على بلائه ، ورضي بقضائه

وحمده على آلائه، وشكره على نعمائه، وتواضع لعظمته، وذل لعزته، واستسلم لقدرته، وخضع لهابته، وفكر فى حسابه وعقابه، فنهاره صائم، وليله قائم، قد أسهره ذكر النار ومسألة الجبار، فذلك هو الراهب، وأما أنا فكلب عقور، حبست نفسى فى هذه الصومعة عن الناس لئلا أعقرهم. فقلت ياراهب : فما الذى قطع الخلق عن الله بعد أن عرفوه؟ فقال ياأخى لم يقطع الخلق عن الله إلا حب الدنيا وزينتها، لأنها محل المعاصى والذنوب، والعاقل من رمى بها عن قلبه، وتاب إلى الله تعالى من ذنبه، وأقبل على مايقربه من ربه

وقيل لداود الطائى : لو سرحت لحيتك؟ فقال إنى إذاً لفارغ

وكان أويس القرنى يقول : هذه ليلة الركوع، فيحيى الليل كله فى ركعة. وإذا كانت الليلة الآتية قال : هذه ليلة السجود، فيحيى الليل كله فى سجدة

وقيل لما تاب عتبة الغلام : كان لايتهنأ بالطعام والشراب؟ فقالت له أمه : لو رفقت بنفسك؟ قال: الرفق أطلب، دعينى أتعب قليلا وأتنعم طويلا

وحج مسروق فما نام قط إلا ساجدا. وقال سفيان الثورى : عند الصباح يحمد القوم السرى، وعند الممات يحمد القوم التقى

وقال عبد الله بن داود : كان أحدهم إذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه، أى كان لاينام طول الليل. وكان كهمس بن الحسن يصلى كل يوم ألف ركعة، ثم يقول لنفسه : قومى ياماوى كل شر. فلما ضعف اقتصر على خمسمائة، ثم كان يبكى ويقول : ذهب نصف عملى

وكانت ابنة الربيع بن خثيم تقول له : ياأبت مالى أرى الناس ينامون وأنت لاتنام؟ فيقول : يابنتاه، إن أباك يخاف البيات

ولما رأت أم الربيع مايلقى الربيع من البكاء والسهر، نادته يابنى : لعلك قتلت قتيلا؟ قال : نعم ياأماه، قالت : فمن هو حتى نطلب أهله فيعفو عنك، فو الله لو يعلمون ماأنت فيه لرحموك وعفوا عنك؟ فيقول : ياأماه هى نفسى

وعن عمر ابن أخت بشر بن الحارث قال : سمعت خالى بشر بن الحارث يقول لأمى : ياأختى، جوفى وخواصرى تضرب على. فقالت له أمى : ياأخى، تأذن لى حتى أصلح لك قليل حساء بكف دقيق عندى تتحساه يرم جوفك؟ فقال لها : ويحك، أخاف أن يقول

من أين لك هذا الدقيق ؟ فلا أدرى ايش أقول له . فبكت أمى ، وبكى معها ، وبكيت معهم قال عمر : ورأت أمى مابشر من شدة الجوع ، وجعل يتنفس نفسا ضعيفا ، فقالت له أمى : ياأخى ، ليت أمك لم تلدنى ، فقد والله تقطعت كبدى مما أرى بك . فسمعته يقول لها : وأنافليت أمى لم تلدنى ، وإذ ولدتنى لم يدرّ ثديها علي . قال عمر : وكانت أمى تبكى عليه الليل والنهار . وقال الربيع : أتيت أويسا فوجدته جالسا قد صلى الفجر ، ثم جلس فجلست ، فقلت لاأشغله عن التسبيح ، فمكث مكانه حتى صلى الظهر ، ثم قام إلى الصلاة حتى صلى العصر ، ثم جلس موضعه حتى صلى المغرب ، ثم ثبت مكانه حتى صلى العشاء ، ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح ، ثم جلس فغلبته عيناه فقال : اللهم إنى أعوذ بك من عين نوّامة ، ومن بطن لاتشبع . فقلت حسبي هذا منه ، ثم رجعت

ونظر رجل إلى أويس فقال : ياأبا عبد الله ، مالى أراك كأنك مريض ؟ فقال ومالأويس أن لايكون مريضا؟ يُطْعَمُ المريض وأويس غير طاعم، وينام المريض وأويس غير نائم وقال أحمد بن حرب : ياعجبا لمن يعرف أن الجنة تزين فوقه ، وأن النار تسعر تحته ، كيف ينام بينهما . وقال رجل من النساك : أتيت إبراهيم بن أدهم فوجدته قد صلى العشاء ، فقعدت أرقبه ، فلف نفسه بعباءة ، ثم رمى بنفسه ، فلم ينقلب من جنب إلى جنب الليل كله حتي طلع الفجر وأذن المؤذن ، فوثب إلى الصلاة ولم يحدث وضوأ . فخالج ذلك فى صدرى ، فقلت له : رحمك الله ، قد نمت الليل كله مضطجعا ، ثم لم تجدد الوضوء؟ فقال كنت الليل كله جائلا فى رياض الجنة أحيانا، وفى أودية النار أحيانا، فهل فى ذلك نوم

وقال ثابت البنانى : أدركت رجالا كان أحدهم يصلى فيعجز عن أن يأتى فراشه إلا حبوا

وقيل مكث أبو بكر بن عياش أربعين سنة لايضع جنبه على فراش ، ونزل الماء فى إحدى عينيه فمكث عشرين سنة لايعلم به أهله، وقيل كان ورد سمنون فى كل يوم خمسمائة ركعة، وعن أبى بكر المطوعى قال : كان وردى فى شبيبتى كل يوم وليلة أقرأ فيه : قل هو الله أحد إحدى وثلاثين ألف مرة ، أو أربعين ألف مرة ، شك الراوى

وكان منصور بن المعتمر إذا رأيته قلت : رجل أصيب بمصيبة ، منكسر الطرف ، منخفض الصوت ، رطب العينين ، إن حركته جاءت عيناه بأربع . ولقد قالت له أمه

ماهذا الذى تصنع بنفسك ؟ بكى الليل عامته لا تسكت ! لعلك يابنى أصبت نفسا ، لعلك قتلت قتيلا . فيقول ياأمه ، أنا أعلم بما صنعت بنفسى

وقيل لعامر بن عبد الله : كيف صبرك على سهر الليل وظمأ الهواجر ؟ فقال هل هو إلا أنى صرفت طعام النهار إلى الليل ، ونوم الليل إلى النهار ، وليس فى ذلك خطير أمر وكان يقول : مارأيت مثل الجنة نام طالبها ، ولا مثل النار نام هاربها .. وكان إذا جاء الليل قال : أذهب حر النار النوم ، فما ينام حتى يصبح . فإذا جاء النهار قال. أذهب حر النار النوم ، فما ينام حتى يمسى فإذا جاء الليل قال : من خاف أدلج. وعند الصباح يحمد القوم السرى

وقال بعضهم : صحبت عامر بن عبد القيس أربعة أشهر فما رأيته نام بليل ولا نهار

ويروى عن رجل من أصحاب علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال : صليت خلف علي رضي الله تعالى عنه الفجر ، فلما سلم انفتل عن يمينه وعليه كآبة ، فمكث حتى طلعت الشمس ، ثم قلب يده وقال : والله لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، وما أرى اليوم شيئا يشبههم ، كانوا يصبحون شعثا ، غبرا ، صفرا ، قد باتوا لله سجدا وقياما يتلون كتاب الله ، يراوحون بين أقدامهم وجباههم . وكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما يميد الشجر فى يوم الريح . وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم ، وكأن القوم باتوا غافلين يعنى من كان حوله

وكان أبو مسلم الخولانى قد علق سوطا فى مسجد بيته يخوف به نفسه ، وكان يقول لنفسه : قومى فوالله لأزحفن بك زحفا حتى يكون الكلل منك لا منى . فإذا دخلت الفترة تناول سوطه وضرب به ساقه ويقول : أنت أولى بالضرب من دابتى. وكان يقول : أيظن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن يستأثروا به دوننا ؟ كلا والله ، لنزاحمهم عليه زحاما حتى يعلموا أنهم قد خلفوا وراءهم رجالا . وكان صفوان بن سليم قد تعقدت ساقاه من طول القيام ، وبلغ من الاجتهاد مالو قيل له القيامة غدا ماوجد متزايدا. وكان إذا جاء الشتاء اضطجع على السطح ليضر به البرد ، وإذا كان فى الصيف اضطجع داخل البيوت ليجد الحر فلا ينام . وإنه مات وهو ساجد ، وإنه كان يقول : اللهم إنى أحب لقاءك فأحب لقائى

وقال القاسم بن محمد : غدوت يوما ، وكنت إذا غدوت بدأت بعائشة رضي الله عنها

أسلم عليها . فغدوت يوما إليها ، فإذا هي تصلي صلاة الضحى وهي تقرأ (فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ [1]) وتبكي وتدعو وتردد الآية . فقمت حتى مللت ، وهي كما هي ، فلما رأيت ذلك ذهبت إلى السوق ، فقلت أفرغ من حاجتي ثم أرجع . ففرغت من حاجتي ثم رجعت وهي كما هي ، تردد الآية وتبكي وتدعو

وقال محمد بن إسحق: لما ورد علينا عبد الرحمن بن الأسود حاجا اعتلت إحدى قدميه ، فقام يصلي على قدم واحدة ، حتى صلى الصبح بوضوء العشاء

وقال بعضهم : ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بيني وبين قيام الليل

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : سيما الصالحين صفرة الألوان من السهر ، وعمش العيون من البكاء ، وذبول الشفاه من الصوم ، عليهم غبرة الخاشعين

وقيل للحسن : ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوها ؟ فقال لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نورا من نوره . وكان عامر بن عبد القيس يقول: إلهي خلقتني ولم تؤامرني ، وتميتني ولا تعلمني ، وخلقت معي عدوا ، وجعلته يجري مني مجرى الدم ، وجعلته يراني ولا أراه ، ثم قلت لي استمسك ، إلهي كيف استمسك إن لم تمسكني ؟ إلهي في الدنيا الهموم والأحزان ، وفي الآخرة العقاب والحساب ، فأين الراحة والفرح ؟

وقال جعفر بن محمد : كان عتبة الغلام يقطع الليل بثلاث صيحات ، كان إذا صلى العتمة وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر ، فإذا مضى ثلث الليل صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر ، فإذا مضى الثلث الثاني صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر ، فإذا كان السحر صاح صيحة . قال جعفر بن محمد : فحدثت به بعض البصريين فقال : لا تنظر إلى صياحه ، ولكن انظر إلى ما كان فيه بين الصيحتين حتى صاح

وعن القاسم بن راشد الشيباني قال : كان زمعة نازلا عندنا بالمحصب ، وكان له أهل وبنات ، وكان يقوم فيصلي ليلا طويلا ، فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته : أيها الركب المعرسون ، أكل هذا الليل ترقدون ! أفلا تقومون فترحلون ؟ فيتواثبون ، فيسمع من ههنا باك ، ومن ههنا داع ، ومن ههنا قارىء ، ومن ههنا متوضىء . فإذا طلع الفجر نادى

---

(1) الطور : ٢٧

بأعلى صوته . عند الصباح يحمد القوم السرى

وقال بعض الحكماء : إن لله عبادا أنعم عليهم فعرفوه ، وشرح صدورهم فأطاعوه ، وتوكلوا عليه فسلموا الخلق والأمر إليه ، فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين ، وبيوتا للحكمة ، وتوابيت للعظمة ، وخزائن للقدرة ، فهم بين الخلق مقبلون ومدبرون ، وقلوبهم تجول في الملكوت ، وتلوذ بمحجوب الغيوب ، ثم ترجع ومعها طوائف من لطائف الفوائد ، ومالا يمكن واصفا أن يصفه ، فهم في باطن أمورهم كالديباج حسنا ، وهم في الظاهر مناديل مبذولون لمن أرادهم تواضعا . وهذه طريقة لايبلغ إليها بالتكلف ، وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء

وقال بعض الصالحين : بينما أنا أسير في بعض جبال بيت المقدس ، إذ هبطت إلى واد هناك ، فإذا أنا بصوت قد علا ، وإذا تلك الجبال تجيبه لها دوي عال . فاتبعت الصوت ، فإذا أنا بروضة عليها شجر ملتف ، وإذا أنا برجل قائم فيها يردد هذه الآية (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً [١]) إلى قوله (وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ [٢]) قال فجلست خلفه أسمع كلامه وهو يردد هذه الآية إذ صاح صيحة خر مغشيا عليه . فقلت وا أسفاه ، هذا لشقائي . ثم انتظرت إفاقته ، فأفاق بعد ساعة ، فسمعته وهو يقول : أعوذ بك من مقام الكذابين ، أعوذ بك من أعمال البطالين ، أعوذ بك من إعراض الغافلين . ثم قال: لك خشعت قلوب الخائفين ، وإليك فزعت آمال المقصرين ، ولعظمتك ذلت قلوب العارفين ثم نفض يده فقال : مالي وللدنيا ، وماللدنيا ولي . عليك يادنيا بأبناء جنسك ، وألاف نعيمك ، إلى محبيك فاذهبي ، وإياهم فاخدعي . ثم قال : أين القرون الماضية ، وأهل الدهور السالفة ، في التراب يبلون ، وعلى الزمان يفنون . فناديته ياعبد الله ، أنا منذ اليوم خلفك أنتظر فراغك . فقال: وكيف يفرغ من يبادر الأوقات وتبادره ، يخاف سبقها بالموت إلى نفسه ! أم كيف يفرغ من ذهبت أيامه وبقيت آثامه ! ثم قال : أنت لها ولكل شدة أتوقع نزولها . ثم لها عني ساعة وقرأ (وَبَدَا لَهُم مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ [٣]) ثم صاح صيحة أخرى أشد من الأولى ، وخر مغشيا عليه ، فقلت قد خرجت روحه .

(١ ، ٢) آل عمران : ٣٠ (٣) الزمر : ٤٧

فدنوت منه فإذا هو يضطرب ، ثم أفاق وهو يقول : من أنا ؟ ماخاطرى ؟ هب لى إساءتى من فضلك ؛ وجللنى بسترك ، واعف عن ذنوبى بكرم وجهك إذا وقفت بين يديك. فقلت له : بالذى ترجوه لنفسك وتثق به إلا كلمتنى. فقال: عليك بكلام من ينفعك كلامه ، ودع كلام من أوبقته ذنوبه . إنى لنى هذا الموضع مذ شاء الله أجاهد إبليس ويجاهدنى ، فلم يجد عوناً علي ليخرجنى مما أنا فيه غيرك . فإليك عنى يامخدوع ، فقد عطلت عليّ لسانى ، وميلت إلى حديثك شعبة من قلبي . وأنا أعوذ بالله من شرك ، ثم أرجو أن يعيذنى من سخطه ، ويتفضل عليّ برحمته قال: فقلت هذا وليّ الله أخاف أن أشغله فأعاقب فى موضعى هذا . فانصرفت وتركته

وقال بعض الصالحين : بينما أنا أسير فى مسير لى ، إذ ملت إلى شجرة لأستريح تحتها فإذا أنا بشيخ قد أشرف عليّ فقال لى : ياهذا قم ، فإن الموت لم يمت ، ثم هام على وجهه فاتبعته ، فسمعته وهو يقول (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ [١]) اللهم بارك لى فى الموت . فقلت وفيما بعد الموت . فقال:من أيقن بما بعد الموت شمر مئزر الحذر ، ولم يكن له فى الدنيا مستقر . ثم قال : يامن لوجهه عنت الوجوه ، بيض وجهى بالنظر إليك ، واملأ قلبي من المحبة لك ، وأجرنى من ذل التوبيخ غدا عندك ، فقد آن لى الحياء منك ، وحان لى الرجوع عن الإعراض عنك ثم قال : لولا حلمك لم يسعنى أجلى ، ولولا عفوك لم ينبسط فيما عندك أملى . ثم مضى وتركنى ، وقد أنشدوا فى هذا المعنى

نحيل الجسم مكتئب الفؤاد ... تراه بقمة أو بطن وادى
ينوح على معاص فاضحات ... يكدر ثقلها صفو الرقاد
فإن هاجت مخاوفه وزادت ... فدعوته أغثنى ياعمادى
فأنت بما ألاقيه عليم ... كثير الصفح عن زلل العباد

وقيل أيضا

ألذ من التلذذ بالغوانى ... إذا أقبلن فى حلل حسان
منيب فر من أهل ومال ... يسيح إلى مكان من مكان

(١) آل عمران : ١٨٥

ليخمل ذكره ويعيش فردا ويظهر فى العبادة بالأمانى
تلذذه التلاوة أين ولى وذكر بالفؤاد وباللسان
وعند الموت يأتيه بشير يبشر بالنجاة من الهوان
فيدرك ماأراد وما تمنى من الراحات فى غرف الجنان

وكان كرز بن وبرة يختم القرآن فى كل يوم ثلاث مرات . ويجاهد نفسه فى العبادات غاية المجاهدة ، فقيل له : قد أجهدت نفسك . فقال: كم عمر الدنيا؟ فقيل: سبعة آلاف سنة فقال: كم مقدار يوم القيامة ؟ فقيل: خمسون ألف سنة فقال: كيف يعجز أحدكم أن يعمل سبع يوم حتى يأمن ذلك اليوم ! يعنى أنك لو عشت عمر الدنيا ، واجتهدت سبعة آلاف سنة ، وتخلصت من يوم واحد كان مقداره خمسين ألف سنة ، لكان ربحك كثيرا ، وكنت بالرغبة فيه جديرا . فكيف وعمرك قصير ، والآخرة لا غاية لها

فهكذا كانت سيرة السلف الصالحين فى مرابطة النفس ومراقبتها فمهما تمردت نفسك عليك ، وامتنعت من المواظبة على العبادة ، فطالع أحوال هؤلاء ، فإنه قد عز الآن وجود مثلهم . ولو قدرت على مشاهدة من اقتدى بهم فهو أنجع فى القلب ، وأبعث على الاقتداء فليس الخبر كالمعاينة . وإذا عجزت عن هذا فلا تغفل عن سماع أحوال هؤلاء ، فإن لم تكن إبل فمعزى ، وخيّر نفسك بين الاقتداء بهم والكون فى زمرتهم وغمارهم ، وهم العقلاء والحكماء وذوو البصائر فى الدين ، وبين الاقتداء بالجهلة الغافلين من أهل عصرك . ولا ترضى لها أن تنخرط فى سلك الحمق ، وتقنع بالتشبه بالأغبياء ، وتؤثر مخالفة العقلاء ، فإن حدثتك نفسك بأن هؤلاء رجال أقوياء لا يطاق الاقتداء بهم ، فطالع أحوال النساء المجتهدات وقل لها يانفس لا تستنكفى أن تكونى أقل من امرأة ، فأخسس برجل يقصر عن امرأة فى أمر دينها ودنياها

ولنذكر الآن نبذة من أحوال المجتهدات . فقد روي عن حبيبة العدوية أنها كانت إذا صلت العتمة قامت على سطح لها ، وشدت عليها درعها وخمارها ، ثم قالت . إلهى قد غارت النجوم ، ونامت العيون ، وغلقت الملوك أبوابها ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، وهذا مقامى بين يديك . ثم تقبل على صلاتها . فإذا طلع الفجر قالت : إلهى هذا الليل قد أدبر ،

وهذا النهار قد أسفر، فليت شعري أقبلت مني ليلتي فأهنأ، أم رددتها عليّ فأعزى؟ وعزتك لهذا دأبي ودأبك ما أبقيتني . وعزتك لو انتهرتني عن بابك مابرحت لما وقع في نفسي من جودك وكرمك. ويروى عن عجرة أنها كانت تحيي الليل، وكانت مكفوفة البصر؛ فإذا كان في السحر نادت بصوت لها محزون ،إليك قطع العابدون دجى الليالي يستبقون إلى رحمتك وفضل مغفرتك ، فبك ياإلهي أسألك لابغيرك أن تجعلني في أول زمرة السابقين ، وأن ترفعني لديك في عليين في درجة المقربين، وأن تلحقني بعبادك الصالحين فأنت أرحم الرحماء، وأعظم العظماء ، وأكرم الكرماء ياكريم . ثم تخر ساجدة فيسمع لها وجبة ، ثم لاتزال تدعو وتبكي إلى الفجر . وقال يحيي بن بسطام : كنت أشهد مجلس شعوانة ، فكنت أرى ماتصنع من النياحة والبكاء ، فقلت لصاحب لي . لو أتيناها إذا خلت فأمرناها بالرفق بنفسها ؟ فقال أنت وذاك قال فأتيناها فقلت لها : لو رفقت بنفسك وأقصرت عن هذا البكاء شيئا فكان لك أقوى على ماتريدين؟ قال فبكت ثم قالت : والله لوددت أني أبكي حتى تنفد دموعي ، ثم أبكي دما حتى لاتبقى قطرة من دم في جارحة من جوارحي ، وأنى لي بالبكاء ، وأنى لي بالبكاء. فلم تزل تردد وأنى لي بالبكاء ، حتى غشي عليها

وقال محمد بن معاذ : حدثتني امرأة من المتعبدات قالت : رأيت في منامي كأني أدخلت الجنة ، فإذا أهل الجنة قيام على أبوابهم ، فقلت ماشأن أهل الجنة قيام ؟ فقال لي قائل . خرجوا ينظرون إلى هذه المرأة التي زخرفت الجنان لقدومها . فقلت ومن هذه المرأة؟ فقيل أمة سوداء من أهل الأيكة يقال لها شعوانة . قالت فقلت أختي والله . قالت فبينما أنا كذلك إذ أقبل بها على نجيبة تطير بها في الهواء ، فلما رأيتها ناديت ياأختي أما ترين مكاني من مكانك فلو دعوت لي مولاك فألحقني بك ، قالت فتبسمت إليّ وقالت لم يأن لقدومك ولكن احفظي عني اثنتين ، ألزمي الحزن قلبك ، وقدمي محبة الله على هواك ولايضرك متى مت

وقال عبد الله بن الحسن : كانت لي جارية رومية ، وكنت بها معجبا ، فكانت في بعض الليالي نائمة إلى جنبي ، فانتبهت فالتمستها فلم أجدها ، فقمت أطلبها فإذا هي ساجدة وهي تقول . بحبك لي ألا ماغفرت لي ذنوبي . فقلت لها :لاتقولي بحبك لي،

ولكن قولى بحبي لك ، فقالت: لا،يامولاى بحبه لى أخرجنى من الشرك إلى الإسلام،وبحبه لى أيقظ عينى وكثير من خلقه نيام

وقال أبو هاشم القرشي : قدمت علينا امرأة من أهل اليمن يقال لها سرية ، فنزلت فى بعض ديارنا ، قال فكنت أسمع لها من الليل أنينا وشهيقا ، فقلت يوما لخادم لى : أشرف على هذه المرأة ماذا تصنع ، قال فأشرف عليها فما رآها تصنع شيئا غير أنها لا ترد طرفها عن السماء وهي مستقبلة القبلة تقول : خلقتَ سرية ، ثم غذيتها بنعمتك من حال إلى حال ، وكل أحوالك لها حسنة ، وكلّ بلائك عندها جميل ، وهي مع ذلك متعرضة لسخطك بالتوثب على معاصيك فلتة بعد فلتة ، أتراها تظن أنك لا ترى سوء فعالها وأنت عليم خبير ، وأنت على كل شيء قدير .

وقال ذو النون المصرى : خرجت ليلة من وادى كنعان ، فلما علوت الوادى إذا سواد مقبل عليّ وهو يقول (وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللهِ مَالَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ [1]) ويبكى . فلما قرب منى السواد إذا هي امرأة عليها جبة صوف ، وبيدها ركوة ، فقالت لى : من أنت؟ غير فزعة منى . فقلت رجل غريب . فقالت ياهذا ،وهل يوجد مع الله غربة ؟ قال فبكيت لقولها . فقالت لى : ماالذى أبكاك ؟ فقلت قد وقع الدواء على داء قدقرح فأسرع فى نجاحه قالت . فإن كنت صادقا فلم بكيت ؟ قلت . يرحمك الله والصادق لايبكى ؟. قالت : لا . قلت : ولم ذاك ؟قالت لأن البكاء راحة القلب فسكتّ متعجبا من قولها

وقال أحمد بن عليّ: استأذنا على عفيرة فحجبتنا ، فلازمنا الباب ، فلما علمت ذلك قامت لتفتح الباب لنا ، فسمعتها وهي تقول : اللهم إنى أعوذ بك ممن جاء يشغلنى عن ذكرك . ثم فتحت الباب ودخلنا عليها ، فقلنا لها : ياأمة الله ادعي لنا ، فقالت ، جعل الله قراكم فى بيتي المغفرة ، ثم قالت لنا . مكث عطاء السلمى أربعين سنة ، فكان لاينظر إلى السماء ، فحانت منه نظرة ، فخر مغشيا عليه ، فأصابه فتق فى بطنه . فياليت عفيرة إذا رفعت رأسها لم تعص ، وياليتها إذا عصت لم تعد

وقال بعض الصالحين : خرجت يوما إلى السوق ومعى جارية حبشية ، فاحتبستها

---

(١) الزمر : ٤٣

فى موضع بناحية السوق، وذهبت فى بعض حوائجى ، وقلت : لاتبرحى حتى انصرف إليك قال فانصرفت فلم أجدها فى الموضع . فانصرفت إلى منزلى وأنا شديد الغضب عليها ، فلما رأتنى عرفت الغضب فى وجهى ، فقالت يا ولاي لاتعجل عليّ ، إنك اجلستنى فى موضع لم أر فيه ذاكراً لله تعالى ، فخفت أن يخسف بذلك الموضع . فعجبت لقولها.وقلت لها : أنت حرة فقالت ساء ماصنعت، كنت أخدمك فيكون لى أجران، وأما الآن فقد ذهب عنى أحدهما

وقال ابن العلاء السعدى : كانت لى ابنة عم يقال لها بريرة ، تعبّدت وكانت كثيرة القراءة فى المصحف ، فكلما أتت على آية فيها ذكر النار بكت ، فلم تزل تبكى حتى ذهبت عيناها من البكاء . فقال بنو عمها . انطلقوا بنا إلى هذه المرأة حتى نعذلها فى كثرة البكاء . قال فدخلنا عليها ، فقلنا يابريرة ، كيف أصبحت ؟ قالت أصبحنا أضيافا منيخين بأرض غربة ننتظر متى ندعى فنجيب . فقلنا لها كم هذا البكاء قد ذهبت عيناك منه ، فقالت إن يكن لعينيّ عند الله خير فما يضرهما ماذهب منهما فى الدنيا . وإن كان لهما عند الله شر فسيزيدهما بكاء أطول من هذا . ثم أعرضت . قال فقال القوم قوموا بنا ، فهي والله فى شيء غير مانحن فيه

وكانت معاذة العدوية إذا جاء النهار تقول : هذا يومى الذى أموت فيه . فما تطعم حتى تمسى . فإذا جاء الليل تقول : هذه الليلة التى أموت فيها . فتصلى حتى تصبح

وقال أبو سليمان الدارانى : بت ليلة عند رابعة ، فقامت إلى محراب لها ، وقمت أنا إلى ناحية من البيت ، فلم تزل قائمة إلى السحر . فلما كان السحر قلت : ماجزاء من قوّانا على قيام هذه الليلة ؟ قالت جزاؤه أن تصوم له غدا

وكانت شعوانة تقول فى دعائها : إلٰهى ماأشوقنى إلى لقائك ، وأعظم رجائى لجزائك ، وأنت الكريم الذى لايخيب لديك أمل الآملين ، ولايبطل عندك شوق المشتاقين . إلٰهى إن كان دنا أجلى ولم يقرّبنى منك عملى ، فقد جعلت الاعتراف بالذنب وسائل عللى ، فإن عفوت فمن أولى منك بذلك ؟ وإن عذبت فمن أعدل منك هنالك ! إلٰهى قدجرتُ على نفسى فى النظر لها وبقى لها حسن نظرك ، فالويل لها إن لم تسعدها . إلٰهى إنك لم تزل بى برا أيام حياتى ، فلاتقطع عنى برك بعد مماتى . ولقد رجوت ممن تولانى فى حياتى

بإحسانه ، أن يسعفني عند مماتي بغفرانه . إلٰهي كيف أيأس من حسن نظرك بعد مماتى ، ولم تولنى إلا الجميل في حياتى . إلٰهى إن كانت ذنوبى قد أخافتنى ، فإن محبتى لك قد أجارتنى ، فتولّ من أمرى ماأنت أهله ، وعد بفضلك على من غره جهله إلٰهى لوأردت إهانتى لماهديتنى ، ولو أردت فضيحتى لم تسترنى ، فتمنى بماله هديتنى ، وأدم لى مابه سترتنى . إلٰهى ماأظنك تردنى فى حاجة أفنيت فيها عمرى . إلٰهى لولاماقارفت من الذنوب ماخفت عقابك ، ولولاماعرفت من كرمك مارجوت ثوابك

وقال الخواص : دخلنا على رحلة العابدة ، وكانت قدصامت حتى اسودت ، وبكت حتى عميت ، وصلت حتى أقعدت ، وكانت تصلى قاعدة . فسلمنا عليها ، ثم ذكرناها شيئا من العفو ليهون عليها الأمر ، قال فشهقت ثم قالت : علمى بنفسى قرّح فؤادى وكلم كبدى . والله لوددت أن الله لم يخلقنى ولم أك شيئا مذكورا . ثم أقبلت على صلاتها

فعليك إن كنت من المرابطين المراقبين لنفسك أن تطالع أحوال الرجال والنساء من المجتهدين ، لينبعث نشاطك ، ويزيد حرصك . وإياك أن تنظر إلى أهل عصرك ، فإنك إن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله

وحكايات المجتهدين غير محصورة ، وفيما ذكرناه كفاية للمعتبر . وإن أردت مزيدا فعليك بالمواظبة على مطالعة كتاب حلية الأولياء ، فهو مشتمل على شرح أحوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، وبالوقوف عليه يستبين لك بعدك وبعد أهل عصرك من أهل الدين فإن حدثتك نفسك بالنظر إلى أهل زمانك ، وقالت إنما تيسر الخير فى ذلك الزمان لكثرة الأعوان ، والآن فإن خالفت أهل زمانك رأوك مجنونا ، وسخروا بك ، فوافقهم فيما هم فيه وعليه ، فلا يجرى عليك إلا مايجرى عليهم ، والمصيبة إذا عمت طابت ، فإياك أن تتدلى بحبل غرورها وتنخدع بتزويرها ، وقل لها : أرأيت لوهجم سيل جارف يغرق أهل البلد ، وثبتوا على مواضعهم ولم يأخذوا حذرهم لجهلهم بحقيقة الحال ، وقدرت أنت على أن تفارقيهم وتركبي فى سفينة تتخلصين بها من الغرق ، فهل يختلج فى نفسك أن المصيبة إذا عمت طابت ؟ أم تتركين موافقتهم ، وتستجهلينهم فى صنيعهم ، وتأخذين حذرك مما دهاك ! فإذا كنت تتركين موافقتهم خوفا من الغرق ، وعذاب الغرق لا يتمادى إلا ساعة ، فكيف

لاتهربين من عذاب الأبد وأنت متعرضة له فى كل حال ! ومن أين تطيب المصيبة إذا عمت ولأهل النار شغل شاغل عن الالتفات إلى العموم والخصوص ! ولم يهلك الكفار إلا بموافقة أهل زمانهم حيث قالوا (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ [1])

فعليك إذا اشتغلت بمعاتبة نفسك ، وحملها على الاجتهاد فاستعصت ، أن لاتترك معاتبتها وتوبيخها ، وتقريعها ، وتعريفها سوء نظرها لنفسها ، فعساها تنزجر عن طغيانها

المرابطة السادسة

فى توبيخ النفس ومعاتبتها

اعلم أن أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك . وقد خلقت أمارة بالسوء ، ميالة إلى الشر ، فرارة من الخير . وأمرت بتزكيتها ، وتقويمها ، وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها ، ومنعها عن شهواتها ، وفطامها عن لذاتها . فإن أهملتها جمحت وشردت ، ولم تظفر بها بعد ذلك . وإن لازمتها بالتوبيخ ، والمعاتبة ، والعذل ، والملامة ، كانت نفسك هي النفس اللوامة التى أقسم الله بها ، ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل فى زمرة عباد الله راضية مرضية . فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ، ولا تشتغلن بوعظ غيرك مالم تشتغل أولا بوعظ نفسك . أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام : يابن مريم ، عظ نفسك ، فإن اتعظت فعظ الناس ، وإلا فاستحى منى وقال تعالى (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ [2])

وسبيلك أن تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغباوتها ، وأنها أبدا تتعزز بفطنتها وهدايتها ، ويشتد أنفها واستنكافها إذا نسبت إلى الحمق ، فتقول لها يانفس ، ماأعظم جهلك ، تدعين الحكمة والذكاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقا ، أماتعرفين مابين يديك من الجنة والنار ، وأنك صائرة إلى إحداهما على القرب ، فمالك تفرحين ، وتضحكين ، وتشتغلين باللهو ، وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم ، وعساك اليوم تختطفين أوغداً ! فأراك ترين الموت بعيدا ويراه الله قريبا . أماتعلمين أن كل ماهوآت قريب ، وأن البعيد ماليس بآت ؟

---

(1) الزخرف : ٢٣ (2) الداريات : ٥٥

أما تعلمين أن الموت يأتي بغتة من غير تقديم رسول ، ومن غير مواعدة ومواطأة ، وأنه لا يأتى فى شيء دون شيء ، ولا فى شتاء دون صيف ، ولا فى صيف دون شتاء ، ولا فى نهار دون ليل ، ولا فى ليل دون نهار ، ولا يأتى فى الصبا دون الشباب ، ولا فى الشباب دون الصبا ، بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة ، فإن لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فجأة ، ثم يفضى إلى الموت ، فمالك لا تستعدين للموت وهو أقرب إليك من كل قريب . أما تتدبرين قوله تعالى (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ[1]) ويحك يا نفس ، إن كانت جراءتك على معصية الله لاعتقادك أن الله لا يراك ، فما أعظم كفرك . وإن كان مع علمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك ، وأقل حياءك

ويحك يا نفس ، لو واجهك عبد من عبيدك ، بل أخ من إخوانك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه ، ومقتك له ، فبأي جسارة تتعرضين لمقت الله ، وغضبه ، وشديد عقابه ! أفتظنين أنك تطيقين عذابه ؟ هيهات هيهات ، جربى نفسك ، إن ألهاك البطر عن أليم عذابه فاحتبسى ساعة فى الشمس ، أو فى بيت الحمام ، أو قربى أصبعك من النار ، ليتبين لك قدر طاقتك . أم تغترين بكرم الله وفضله ، واستغنائه عن طاعتك وعبادتك ، فما لك لا تعولين على كرم الله تعالى فى مهمات دنياك . فإذا قصدك عدو فلم تستنبطين الحيل فى دفعه ، ولا تكلينه إلى كرم الله تعالى ! وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقضى إلا بالدينار والدرهم ، فمالك تنزعين الروح فى طلبها وتحصيلها من وجوه الحيل ، فلم لا تعولين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك على كنز ، أو يسخر عبدا من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غير سعي منك ولا طلب ، أفتحسبين أن الله كريم فى الآخرة دون الدنيا ، وقد عرفت أن سنة الله لا تبديل لها ، وأن رب الآخرة والدنيا واحد وأن ليس للإنسان إلا ما سعى

ويحك يا نفس ، ما أعجب نفاقك ودعاويك الباطلة ، فإنك تدعين الإيمان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك ، ألم يقل لك سيدك ومولاك (وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا[2]) وقال فى أمر الآخرة (وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ[3]) فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة

---

(١) الأنبياء : ١ ، ٢ ، ٣ (٢) هود : ٦ (٣) النجم : ٣٩

وصرفك عن السعى فيها ، فكذبته بأفعالك ، وأصبحت تتكالبين على طلبها تكالب المدهوش المستهتر ،ووكل أمرالآخرة إلىسعيك ، فأعرضت عنها إعراض المغرور المستحقر ماهذا من علامات الإيمان .لو كان الإيمان باللسان فلم كان المنافقون فى الدرك الأسفل من النار؟

ويحك يانفس ، كأنك لاتؤمنين بيوم الحساب، وتظنين أنك إذامت انفلت وتخلصت وهيهات ، أتحسبين أنك تتركين سدًى ، ألم تكونى نطفة من مني يمنى ، ثم كنت علقة فخلق فسوى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟ فإن كان هذا من إضمارك فما أكفرك وأجهلك ! أما تتفكرين أنه مماذا خلقك ، من نطفة خلقك فقدّرك، ثم السبيل يسرك ، ثم أماتك فأقبرك ، أفتكذبينه فى قوله ثم إذا شاء أنشرك ؟ فإن لم تكونى مكذبة فمالك لاتأخذين حذرك ؟ ولو أن يهوديا أخبرك فى ألذ أطعمتك بأنه يضرك فى مرضك لصبرت عنه وتركته وجاهدت نفسك فيه ، أفكان قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات ، وقول الله تعالى فى كتبه المنزلة ، أقل عندك تأثيرا من قول يهودى يخبرك عن حدس ، وتخمين ، وظن ، مع نقصان عقل ، وقصور علم ؟ والعجب أنه لوأخبرك طفل بأن فى ثوبك عقربا لرميت ثوبك فى الحال من غير مطالبة له بدليل وبرهان ،أفكان قول الأنبياء ،والعلماء ، والحكماء ، وكافةالأولياء أقل عندك من قول صبي من جملة الأغبياء ؟ أم صارحر جهنم ، وأغلالها ، وأنكالها، وزقومها ومقامعها ، وصديدها ، وسمومها ، وأفاعيها ، وعقاربها ، أحقر عندك من عقرب لاتحسين بألمها إلا يوما أو أقل منه ؟ ماهذه أفعال العقلاء . بل لو انكشف للبهائم حالك لضحكوا منك ، وسخروا من عقلك . فإن كنت يانفس قد عرفت جميع ذلك ، وآمنت به ، فمالك تسوفين العمل، والموت لك بالمرصاد، ولعله يختطفك من غير مهلة فبماذا أمنت استعجال الأجل . وهبك أنت وعدت بالإمهال مائة سنة ، أفتظنين أن من يطعم الدابة فى حضيض العقبة يفلح ويقدر على قطع العقبة بها ؟ إن ظننت ذلك فما أعظم جهلك !أرأيت لو سافر رجل ليتفقه فى الغربة، فأقام فيها سنين متعطلا ، بطالا ، يعدّ نفسه بالتفقه فى السنة الأخيرة عند رجوعه إلى وطنه ، هل كنت تضحكين من عقله وظنه أن تفقيه النفس مما يطمع فيه بمدة قريبة ، أو حسبانه أن مناصب الفقهاء تنال من غير تفقه اعتمادا على كرم الله سبحانه وتعالى ثم هب أن الجهد فى آخر العمر نافع ، وأنه موصل إلى الدرجات العلا ،فلعل اليوم آخر عمرك

فلم لاتشتغلين فيه بذلك ، فإن أوحي إليك بالإمهال ، فما المانع من المبادرة ، وماالباعث لك على التسويف ! هل له سبب إلا عجزك عن مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والمشقة أفتنتظرين يوما يأتيك لاتعسر فيه مخالفة الشهوات ،هذايوم لم يخلقه اللهقط ، ولا يخلقه ، فلاتكون الجنةقط إلا محفوفة بالمكاره ، ولا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس . وهذا محال وجوده أما تأملين مذ كم تعدين نفسك وتقولين غدا غدا ، فقد جاء الغد وصار يوما فكيف وجدته ، أما علمت أن الغد الذى جاء وصار يوما كان له حكم الأمس ، لا بل تعجزين عنه اليوم ، فأنت غدا عنه أعجز وأعجز ، لأن الشهوة كالشجرة الراسخة التى تعبّد العبد بقلعها ، فإذا عجز العبد عن قلعها للضعف وأخرها ، كان كمن عجز عن قلع شجرة وهو شاب قوي ، فأخرها إلى سنة أخرى ، مع العلم بأن طول المدة يزيد الشجرةقوّة ورسوخا ويزيد القالع ضعفا ووهنا ! فما لايقدر عليه فى الشباب لايقدر عليه قط فى المشيب بل من العناء رياضة الهرم ، ومن التعذيب تهذيب الذيب . والقضيب الرطب يقبل الانحناء ، فإذا جف وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك

فإذا كنت أيتها النفس لاتفهمين هذهالأمور الجلية ،وتركنين إلى التسويف ،فما بالك تدّعين الحكمة ، وأية حماقة تزيد على هذه الحماقة ؟ ولعلك تقولين مايمنعنى عن الاستقامة إلا حرصى علىلذةالشهوات، وقلة صبرى على الآلام والمشقات ، فما أشد غباوتك ، وأقبح اعتذارك ! إن كنت صادقة فى ذلك فاطلبي التنعم بالشهوات الصافية عن الكدورات الدائمة أبد الآباد، ولامطمع فى ذلك إلافى الجنة فإن كنت ناظرة لشهوتك فالنظر لها فى مخالفتها، فرب أكلة تمنع أكلات . ومافولك فى عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ليصح ويهنأ بشربه طول عمره ، وأخبره أنه إن شرب ذلك مرض مرضا مزمنا وامتنع عليه شربه طول العمر، فما مقتضى العقل فى قضاء حق الشهوة ؟ أيصبر ثلاثة أيام لينعم طول العمر ؟ أم يقضى شهوته فى الحال خوفا من ألم المخالفة ثلاثة أيام ، حتى يلزمه ألم المخالفة ثلثمائة يوم وثلاثة آلاف يوم ؟ وجميع عمرك بالإضافة إلى الأبد الذى هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار ، أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر وإن طالت مدته وليت شعرى ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة ، أو ألم النار فى دركات جهنم

فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب الله ! ماأراك تتوانين عن النظر لنفسك إلا لكفر خفي ، أو لحمق جلي . أما الكفر الخفي فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب ، وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب . وأما الحمق الجلي فاعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه ، من غير التفات إلى مكره ، واستدراجه ، واستغنائه عن عبادتك ، مع أنك لا تعتمدين على كرمه فى لقمة من الخبز ، أو حبة من المال ، أو كلمة واحدة تسمعينها من الخلق ، بل تتوصلين إلى غرضك فى ذلك بجميع الحيل . وبهذا الجهل تستحقين لقب الحماقة من رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال « الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الْأَمَانِيَّ »

ويحك يانفس ، لا ينبغى أن تغرك الحياة الدنيا ، ولا يغرنك بالله الغرور ، فانظرى لنفسك فما أمرك بمهم لغيرك ، ولا تضيعى أوقاتك فالأنفاس معدودة ، فإذا مضى منك نفس فقد ذهب بعضك ، فاغتنمى الصحة قبل السقم ، والفراغ قبل الشغل ، والغنى قبل الفقر ، والشباب قبل الهرم ، والحياة قبل الموت ، واستعدى للآخرة على قدر بقائك فيها يانفس أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته ، فتجمعين له القوت ، والكسوة والحطب وجميع الأسباب ، ولا تتكلين فى ذلك على فضل الله وكرمه ، حتى يدفع عنك البرد من غير جبة ، ولبد ، وحطب وغير ذلك ، فإنه قادر على ذلك ، أفتظنين أيتها النفس أن زمهرير جهنم أخف بردا ، وأقصر مدة من زمهرير الشتاء ؟ أم تظنين أن ذلك دون هذا كلا أن يكون هذا كذلك ، أو أن يكون بينهما مناسبة فى الشدة والبرودة . أفتظنين أن العبد ينجو منها بغير سعي ؟ هيهات ، كما لا يدفع برد الشتاء إلا بالجبة والنار وسائر الأسباب فلا يندفع حر النار وبردها إلا بحصن التوحيد وخندق الطاعات . وإنما كرم الله تعالى فى أن عرفك طريق التحصن ، ويسر لك أسبابه ، لا فى أن يدفع عنك العذاب دون حصنه كما أن كرم الله تعالى فى دفع برد الشتاء أن خلق النار ، وهداك لطريق استخراجها من بين حديدة وحجر حتى تدفعى بها برد الشتاء عن نفسك ، وكما أن شراء الحطب والجبة مما يستغنى عنه خالقك ومولاك ، وإنما تشترينه لنفسك إذ خلقه سببا لاستراحتك ، فطاعاتك

ومجاهداتك أيضا هو مستغن عنها ، وإنما هي طريقك إلى نجاتك . فمن أحسن فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، والله غني عن العالمين

ويحك يانفس انزعى عن جهلك ، وقيسى آخرتك بدنياك ، فما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ، وكما بدأنا أول خلق نعيده ؛ وكما بدأكم تعودون ، وسنة الله تعالى لاتجدين لها تبديلا ولا تحويلا . ويحك يانفس ماأراك إلا ألفت الدنيا وأنست بها ، فعسر عليك مفارقتها وأنت مقبلة على مقاربتها ، وتؤكدين فى نفسك مودتها ، فاحسبى أنك غافلة عن عقاب الله وثوابه ، وعن أهوال القيامة وأحوالها ، فما أنت مؤمنة بالموت المفرق بينك وبين محابك. أفترين أن من يدخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر ، فمدّ بصره إلى وجه مليح يعلم أنه يستغرق ذلك قلبه ، ثم يضطر لامحالة إلي مفارقته ، أهو معدود من العقلاء أم من الحمقى ، أماتعلمين أن الدنيا دار لملك الملوك ،ومالك فيها إلا مجاز ، وكل مافيها لايصحب المجتازين بها بعد الموت ، ولذلك قال سيد البشر صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَحْبِبْ مَنْ أَحْبَبْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ وَاعْمَلْ مَاشِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ وَعِشْ مَاشِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ »

ويحك يانفس أتعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا . ويأنس بها مع أن الموت من ورائه ، فإنما يستكثر من الحسرة عند المفارقة ، وإنما يتزوّد من السم المهلك وهو لايدرى أوما تنظرين إلى الذين مضوا كيف بنوا وعلوا ، ثم ذهبوا وخلوا ، وكيف أورث الله أرضهم وديارهم أعداءهم ؟أما ترينهم كيف يجمعون ما لا يأكلون ، ويبنون ما لا يسكنون ويؤملون ما لايدركون ؟ يبنى كل واحد قصرا مرفوعا إلى جهة السماء ، ومقره قبر محفور تحت الأرض . فهل فى الدنيا حمق وانتكاس أعظم من هذا ؟ يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقينا ، ويخرب آخرته وهو صائر إليها قطعا ؟أما تستحيين يانفس من مساعدة هؤلاء الحمقى على حماقتهم ؟

واحسبى أنك لست ذات بصيرة تهتدى إلى هذه الأمور ، وإنما تميلين بالطبع إلى التشبه والاقتداء ، فقيسى عقل الأنبياء ، والعلماء ، والحكماء ، بعقل هؤلاء المكبين على الدنيا

---

(١) حديث ان روح القدس نفث فى روعى أحبب من احببت فانك مفارقه ـ الحديث : تقدم فى العلم وغيره

واقتدى من الفريقين بمن هو أعقل عندك إن كنت تعتقدين فى نفسك العقل والذكاء

يانفس ماأعجب أمرك ، وأشد جهلك ، وأظهر طغيانك ! عجبا لك ، كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة الجلية ! ولعلك يانفس أسكرك حب الجاه ، وأدهشك عن فهمها ، أو ماتتفكرين أن الجاه لامعنى له إلا ميل القلوب من بعض الناس إليك، فاحسبى أن كل من على وجه الأرض سجد لك وأطاعك ، أفما تعرفين أنه بعد خمسين سنة لا تبقين أنت ولا أحد ممن على وجه الأرض ممن عبدك وسجد لك ، وسيأتى زمان لا يبقى ذكرك ولا ذكر من ذكرك، كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك؟ فا(هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا [1]) فكيف تبيعين يانفس مايبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة إن بقى؟ هذا إن كنت ملكا من ملوك الأرض ، سلم لك الشرق والغرب ، حتى أذعنت لك الرقاب ، وانتظمت لك الأسباب ، كيف ويأبى إدبارك وشقاوتك أن يسلّم لك أمر محلتك بل أمر دارك فضلا عن محلتك ؟ فإن كنت يانفس لاتتركين الدنيا رغبة فى الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك ، فمالك لاتتركينها ترفعا عن خسة شركائها ، وتنزها عن كثرة عنائها ، وتوقيا من سرعة فنائها ، أم مالك لاتزهدين فى قليلها بعد أن زهد فيك كثيرها ؟ ومالك تفرحين بدنيا إن ساعدتك فلا تخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها ، ويزيدون عليك فى نعيمها وزينتها ؟ فأف لدنيا يسبقك بها هؤلاء الأخساء . فما أجهلك ، وأخس همتك ، وأسقط رأيك إذ رغبت عن أن تكونى فى زمرة المقربين من النبيين والصديقين ، فى جوار رب العالمين أبد الآبدين ، لتكونى فى صف النعال من جملة الحمقى الجاهلين أياما قلائل . فياحسرة عليك أن خسرت الدنيا والدين

فبادرى ويحك يانفس فقد أشرفت على الهلاك ، واقترب الموت ، وورد النذير، فمن ذا يصلى عنك بعد الموت ؟ ومن ذا يصوم عنك بعد الموت ؟ ومن ذا يترضى عنك ربك بعد الموت ؟

ويحك يانفس ، مالك إلا أيام معدودة هي بضاعتك ، إن اتجرت فيها وقد ضيعت أكثرها ، فلو بكيت بقية عمرك على ماضيعت منها لكنت مقصرة فى حق نفسك ، فكيف إذا ضيعت البقية وأصررت على عادتك ؟ أما تعلمين يانفس أن الموت موعدك ، والقبر بيتك

(١) مريم : ٩٣

والتراب فراشك ،والدود أنيسك ، والفزع الأكبر بين يديك ؟أما علمت يانفس أن عسكر الموتى عندك على باب البلد ينتظرونك ، وقد آلوا على أنفسهم كلهم بالأيمان المغلظة أنهم لايبرحون من مكانهم مالم يأخذوك معهم ؟ أما تعلمين يانفس أنهم يتمنون الرجعة إلى الدنيا يوما ليشتغلوا بتدارك مافرط منهم ، وأنت فى أمنيتهم ، ويوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا بحذافيرها لاشتروه لو قدروا عليه ، وأنت تضيعين أيامك فى الغفلة والبطالة ؟

ويحك يانفس ، أما تستحيين ؟ تزينين ظاهرك للخلق ،وتبارزين الله فى السر بالعظائم أفتستحيين من الخلق ولا تستحيين من الخالق ؟ ويحك أهو أهون الناظرين عليك ؟ أتأمرين الناس بالخير وأنت متلطخة بالرذائل ؟ تدعين إلى الله وأنت عنه فارة ، وتذكرين بالله وأنت له ناسية ؟ أما تعلمين يانفس أن المذنب أنتن من العذرة ؟ وأن العذرة لا تطهر غيرها ؟ فلم تطمعين فى تطهير غيرك وأنت غير طيبة فى نفسك ؟

ويحك يانفس،لو عرفت نفسك حق المعرفة لظننت أن الناس مايصيبهم بلاء إلا بشؤمك

ويحك يانفس ، قد جعلت نفسك حمارا لإبليس يقودك إلى حيث يريد ،ويسخر بك ، ومع هذا فتعجبين بعملك وفيه من الآفات مالو نجوت منه رأسا برأس لكان الربح فى يديك . وكيف تعجبين بعملك مع كثرة خطاياك وزللك ؟ وقد لعن الله إبليس بخطيئة واحدة بعد أن عبده مائتى ألف سنة ؟ وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه نبيه وصفيه

ويحك يانفس ، ماأغدرك ! ويحك يانفس، ماأوقحك ، ويحك يانفس ، ماأجهلك وما أجرأك على المعاصى ! ويحك كم تعقدين فتنقضين ! ويحك كم تعهدين فتغدرين

ويحك يانفس ، أتشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك كأنك غير مرتحلة عنها ؟ أما تنظرين إلى أهل القبور كيف كانوا ؟ جمعوا كثيرا ، وبنوا مشيدا، وأملوا بعيدا ، فأصبح جمعهم بورا، و بنيانهم قبورا ، وأملهم غرورا .

ويحك يانفس أما لك بهم عبرة ؟أما لك إليهم نظرة ؟ أتظنين أنهم دعوا إلى الآخرة وأنت من المخلدين ؟ هيهات هيهات ، ساء ماتتوهمين . ماأنت إلا فى هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك . فابنى على وجه الأرض قصرك ، فإن بطنها عن قليل يكون قبرك . أما تخافين إذا بلغت النفس منك التراقى أن تبدو رسل ربك منحدرة إليك بسواد الألوان

وكلح الوجوه ، وبشرى بالعذاب ؟ فهل ينفعك حينئذ الندم أو يقبل منك الحزن أو يرحم منك البكاء ؟

والعجب كل العجب منك يانفس أنك مع هذا تدّعين البصيرة والفطنة. ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك ، ولا تحزنين بنقصان عمرك، وما نفع مال يزيد وعمر ينقص

ويحك يانفس ، تُعرضين عن الآخرة وهي مقبلة عليك ، وتقبلين على الدنيا وهي معرضة عنك. فكم من مستقبل يوما لا يستكمله ، وكم من مؤمل لغد لا يبلغه . فأنت تشاهدين ذلك فى إخوانك، وأقاربك ، وجيرانك ، فترين تحسرهم عند الموت ثم لا ترجعين عن جهالتك . فاحذرى أيتها النفس المسكينة يوما آلى الله فيه على نفسه أن لا يترك عبدا أمره فى الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله ، دقيقه وجليله ، سره وعلانيته . فانظرى يانفس بأي بدن تقفين بين يدي الله ، وبأي لسان تجيبين ، وأعـدّي للسؤال جوابا ، وللجواب صوابا ، واعملى بقية عمرك فى أيام قصار لأيام طوال ، وفى دار زوال لدار مقامة ، وفى دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود . اعملى قبل أن لا تعملى ، اخرجى من الدنيا اختيـارا خروج الأحرار قبل أن تخرجى منها على الاضطرار ، ولا تفرحى بما يساعدك من زهرات الدنيا ، فرب مسرور مغبون ، ورب مغبون لا يشعر . فويل لمن له الويل ثم لا يشعر يضحك ويفرح ، ويلهو ويمرح ، ويأكل ويشرب ، وقد حق له فى كتاب الله أنه من وقود النار . فليكن نظرك يانفس إلى الدنيا اعتبارا ، وسعيك لها اضطرارا ، ورفضك لها اختيارا ، وطلبك للآخرة ابتدارا . ولا تكونى ممن يعجز عن شكر ما أوتى ، ويبتغى الزيادة فيما بقى ، وينهى الناس ولا ينتهى ، واعلمى يانفس أنه ليس للدين عوض ، ولا للإيمان بدل ، ولا للجسد خلف . ومن كانت مطيته الليل والنهار فإنه يسار به وإن لم يسر

فاتّعظى يانفس بهذه الموعظة ، واقبلى هذه النصيحة ، فإن من أعرض عن الموعظة فقد رضي بالنار ، وما أراك بها راضية ، ولا لهذه الموعظة واعية . فإن كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة ، فاستعينى عليها بدوام التهجد والقيام ، فإن لم تزل فبالمواظبة على الصيام ، فإن لم تزل فبقلة المخالطة والكلام ، فإن لم تزل فبصلة الأرحام واللطف بالأيتام ، فإن لم تزل فاعلمى أن الله قد طبع على قلبك وأقفل عليه ، وأنه قد تراكمت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه ،

فوطني نفسك على النار ، فقد خلق الله الجنة وخلق لها أهلا ، وخلق النار وخلق لها أهلا ، فكل ميسر لما خلق له . فإن لم يبق فيك مجال للوعظ فاقنطي من نفسك ، والقنوط كبيرة من الكبائر نعوذ بالله من ذلك ، فلاسبيل لك إلى القنوط ، ولاسبيل لك إلى الرجاء مع انسداد طرق الخير عليك ، فإن ذلك اغترار وليس برجاء . فانظري الآن هل يأخذك حزن على هذه المصيبة التي ابتليت بها ، وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك ، فإن سمحت فستقى الدمع من بحر الرحمة ، فقد بقى فيك موضع للرجاء ، فواظبي على النياحة والبكاء ، واستغيثي بأرحم الراحمين ، واشتكي إلى أكرم الأكرمين ، وأدمني الاستغاثة ، ولاتملي طول الشكاية لعله أن يرحم ضعفك ويغيثك ، فإن مصيبتك قد عظمت ، وبليتك قد تفاقمت ، وتماديك قد طال ، وقد انقطعت منك الحيل ، وراحت عنك العلل ، فلا مذهب ولا مطلب ، ولا مستغاث ولا مهرب ، ولا ملجأ ولا منجا إلا إلى مولاك ، فافزعي إليه بالتضرع ، واخشعي في تضرعك على قدر عظم جهلك وكثرة ذنوبك ، لأنه يرحم المتضرع الذليل ، ويغيث الطالب المتلهف ، ويجيب دعوة المضطر

وقد أصبحت إليه اليوم مضطرة ، وإلى رحمته محتاجة ، وقد ضاقت بك السبل ، وانسدت عليك الطرق ، وانقطعت منك الحيل ، ولم تنجع فيك العظات ؛ ولم يكسرك التوبيخ ، فالمطلوب منه كريم ، والمسؤل جواد ، والمستغاث به بر رءوف ، والرحمة واسعة ، والكرم فائض ، والعفو شامل . وقولي ياأرحم الراحمين ، يارحمن ، يارحيم ، ياحليم ، ياعظيم ، ياكريم ، أنا المذنب المصر ، أنا الجرىء الذي لاأقلع ، أنا المتمادى الذي لاأستحي ، هذا مقام المتضرع المسكين ، والبائس الفقير ، والضعيف الحقير ، والهالك الغريق فعجل إغاثتي وفرجي ، وأرني آثار رحمتك ، وأذقني برد عفوك ومغفرتك ، وارزقني قوة عصمتك ياأرحم الراحمين ، اقتداء بأبيك آدم عليه السلام ، فقد قال وهب بن منبه : لما أهبط الله آدم من الجنة إلى الأرض مكث لاترقأ له دمعة ، فاطلع الله عز وجل عليه في اليوم السابع وهو محزون ، كئيب ، كظيم ، منكس رأسه ، فأوحى الله تعالى إليه يا آدم ، ماهذا الجهد الذي أرى بك؟ قال يارب عظمت مصيبتي ، وأحاطت بي خطيئتي ، وأخرجت من ملكوت ربي ، فصرت في دار الهوان بعد الكرامة ، وفي دار الشقاء بعد السعادة ، وفي دار النصب

بعد الراحة ، وفى دار البلاء بعد العافية ، وفى دار الزوال بعد القرار ، وفى دار الموت والفناء بعد الخلود والبقاء ، فكيف لا أبكي على خطيئتي ، فأوحى الله تعالى إليه يا آدم ألم أصطفك لنفسي ، وأحللتك داري ، وخصصتك بكرامتي ، وحذرتك سخطي ، ألم أخلقك بيدى ، ونفخت فيك من روحي ، وأسجدت لك ملائكتي ، فعصيت أمرى ، ونسيت عهدى وتعرضت لسخطي ؟ فوعزتي وجلالي لو ملأت الأرض رجالا كلهم مثلك ، يعبدونني ، ويسبحونني ، ثم عصوني ، لأنزلتهم منازل العاصين . فبكي آدم عليه السلام عندذلك ثلثمائة عام

وكان عبيد الله البجلي كثير البكاء ، يقول فى بكائه طول ليله : إلٰهى أنا الذى كلما طال عمرى زادت ذنوبي : أنا الذى كلما هممت بترك خطيئة عرضت لى شهوة أخرى. واعبيداه خطيئة لم تبل وصاحبها فى طلب أخرى . واعبيداه إن كانت النار لك مقيلا ومأوى . واعبيداه إن كانت المقامع لرأسك تهيأ : واعبيداه قضيت حوائج الطالبين ولعل حاجتك لا تقضى

وقال منصور بن عمار : سمعت فى بعض الليالى بالكوفة عابدا يناجي ربه وهو يقول: يارب وعزتك ماأردت بمعصيتك مخالفتك ، ولا عصيتك إذ عصيتك وأنا بمكانك جاهل ولا لعقوبتك متعرض ، ولا لنظرك مستخف ، ولكن سوّلت لى نفسي ، وأعانني على ذلك شقوتي ، وغرني سترك المرخي علي ، فعصيتك بجهلي ، وخالفتك بفعلي ، فمن عذابك الآن مَنْ يستنقذني ؟ أو بحبل مَنْ اعتصم إن قطعت حبلك عني ؟ واسوأتاه من الوقوف بين يديك غدا إذا قيل للمخفين جوزوا ، وقيل للمثقلين حطوا . أمع المخفين أجوز ، أم مع المثقلين أحط ؟ ويلي ، كلما كبرت سني كثرت ذنوبي . ويلي ، كلما طال عمرى كثرت معاصيّ ، فإلى متى أتوب وإلى متى أعود ؟ أما آن لى أن أستحيي من ربي ؟

فهذه طرق القوم فى مناجاة مولاهم ، وفى معاتبة نفوسهم . وإنما مطلبهم من المناجاة الاسترضاء ، ومقصدهم من المعاتبة التنبيه والاسترعاء . فمن أهمل المعاتبة والمناجاة لم يكن لنفسه مراعيا ، ويوشك أن لا يكون الله تعالى عنه راضيا والسلام

تم كتاب المحاسبة والمراقبة ، يتلوه كتاب التفكر إن شاء الله تعالى ، والحمد لله وحده ، وصلاته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

كتاب التفكر

كتاب التفكر

وهو الكتاب التاسع من ربع المنجيات

من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى لم يقدر لانتهاء عزته نحوا ولا قطرا ، ولم يجعل لمراقى أقدام الأوهام ، ومرمى سهام الأفهام إلى حمى عظمته مجرى ، بل ترك قلوب الطالبين فى بيداء كبريائه والهة حيرى ، كلما اهتزت لنيل مطلوبها ردتها سبحات الجلال قسرا ، وإذا همت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال صبرا صبرا ، ثم قيل لها أجيلى فى ذل العبودية منك فكرا لأنك لو تفكرت فى جلال الربوبية لم تقدرى له قدرا . وإن طلبت وراء الفكر فى صفاتك أمرا ، فانظرى فى نعم الله تعالى وأياديه كيف توالت عليك تترى ، وجددى لكل نعمة منها ذكرا وشكرا ، وتأملى فى بحار المقادير كيف فاضت على العالمين خيرا وشرا ، ونفعا وضرا ، وعسرا ويسرا ، وفوزا وخسرا ، وجبرا وكسرا ، وطيا ونشرا ، وإيمانا وكفرا وعرفانا ونكرا . فإن جاوزت النظر فى الأفعال إلى النظر فى الذات فقد حاولت أمرا إمرا وخاطرت بنفسك مجاوزة حد طاقة البشر ظلما وجورا ، فقد انبهرت العقول دون مبادى إشراقه ، وانتكصت على أعقابها اضطرارا وقهرا . والصلاة على محمد سيد ولد آدم وإن كان لم يعد سيادته فخرا ، صلاة تبقى لنا فى عرصات القيامة عدة وذخرا ، وعلى آله وأصحابه الذين أصبح كل واحد منهم فى سماء الدين بدرا ، ولطوائف المسلمين صدرا ، وسلم تسليما كثيرا

أما بعد: فقد وردت السنة بأن [1] تفكر ساعة خير من عبادة سنة ، وكثر الحث

﴿ كتاب التفكر ﴾

(١) حديث تفكر ساعة خير من عبادة سنة : ابن حبان فى كتاب العظمة من حديث أبى هريرة بلفظ ستين سنة باسناد ضعيف ومن طريقه ابن الجوزى فى الموضوعات ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس بلفظ ثمانين سنة واسناده ضعيف جدا ورواه أبو الشيخ من قول ابن عباس بلفظ خير من قيام ليلة

فى كتاب الله تعالى على التدبر والاعتبار ، والنظر والافتكار . ولا يخفى أن الفكر هو مفتاح الأنوار ، ومبدأ الاستبصار ، وهو شبكة العلوم ، ومصيدة المعارف والفهوم . وأكثر الناس قد عرفوا فضله ورتبته ، لكن جهلوا حقيقته وثمرته ، ومصدره ومورده ، ومجراه ومسرحه وطريقه وكيفيته . ولم يعلم أنه كيف يتفكر ، وفيما ذا يتفكر ، ولماذا يتفكر ، وما الذى يطلب به ، أهو مراد لعينه أم لثمرة تستفاد منه ، فإن كان لثمرة فما تلك الثمرة ، أهي من العلوم ، أو من الأحوال ، أو منهما جميعا . وكشف جميع ذلك مهم . ونحن نذكر أولا فضيلة التفكر ، ثم حقيقة التفكر وثمرته ، ثم مجارى الفكر ومسارحه إن شاء الله تعالى

فضيلة التفكر

قد أمر الله تعالى بالتفكر والتدبر فى كتابه العزيز فى مواضع لا تحصى ، وأثنى على المتفكرين فقال تعالى (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً [1]) وقد قال [1] ابن عباس رضى الله عنهما : إن قوما تفكروا فى الله عز وجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم « تَفَكَّرُوا فِى خَلْقِ اللهِ وَلاَ تَتَفَكَّرُوا فِى اللهِ فَإِنَّكُمْ لَنْ تَقْدُرُوا قَدْرَهُ »

وعن النبي صلى الله عليه وسلم [2] ، أنه خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال « مَا لَكُمْ لاَ تَتَكَلَّمُونَ » فقالوا : نتفكر فى خلق الله عز وجل . قال « فَكَذَلِكَ فَافْعَلُوا تَفَكَّرُوا فِى خَلْقِهِ وَلاَ تَتَفَكَّرُوا فِيهِ فَإِنَّ بِهَذَا الْمَغْرِبِ أَرْضًا بَيْضَاءَ نُورُهَا بَيَاضُهَا وَبَيَاضُهَا نُورُهَا مَسِيرَةَ الشَّمْسِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا بِهَا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَعْصُوا اللهَ طَرْفَةَ عَيْنٍ » قالوا يارسول الله ، فأين الشيطان منهم ؟ قال « مَا يَدْرُونَ خُلِقَ الشَّيْطَانُ

---

(١) حديث ابن عباس ان قوما تفكروا فى الله عزوجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم تفكروا فى خلق الله ولا تتفكروا فى الله فانكم لن تقدروا قدره : أبو نعيم فى الحلية بالمرفوع منه باسناد ضعيف ورواه الاصبهانى فى الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه ورواه الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عمر وقال هذا اسناد فيه نظر قلت فيه الوازع بن نافع متروك

(٢) حديث خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال مالكم لا تتكلمون فقالوا نتفكر فى خلق الله الحديث : رويناه فى جزء من حديث عبد الله بن سلام

---

(١) آل عمران ١٩١

أم لا » قالوا من ولد آدم ؟ قال « لاَ يَدْرُونَ خُلِقَ آدَمُ أَمْ لاَ »

وعن[١] عطاء قال : انطلقت يوما أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة رضي الله عنها ، فكلمتنا وبيننا وبينها حجاب ، فقالت : ياعبيد ، مايمنعك منْ زيارتنا ؟ قال قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا » قال ابن عمير : فأخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال فبكت وقالت : كل أمره كان عجبا . أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي ثم قال « ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ » فقام إلى القربة فتوضأ منها ، ثم قام يصلي ، فبكى حتى بلّ لحيته ، ثم سجد حتى بلّ الأرض ، ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح . فقال : يارسول الله مايبكيك وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر؟ فقال « وَيْحَكَ يَا بِلاَلُ وَمَا يَمْنَعُنِي أَنْ أَبْكِيَ وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَيَّ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ » (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ[١]) ثم قال « وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا » فقيل للأوزاعي : ماغاية التفكر فيهن ؟ قال يقرؤهن ويعقلهن . وعن محمد بن واسع ، أن رجلا من أهل البصرة ركب إلى أم ذر بعد موت أبي ذر ؛ فسألها عن عبادة أبي ذر ، فقالت : كان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكر

وعن الحسن قال : تفكر ساعة خير من قيام ليلة

وعن الفضيل قال : الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك

وقيل لإبراهيم : إنك تطيل الفكرة ، فقال : الفكرة مخ العقل

وكان سفيان بن عيينة كثيرا مايتمثل بقول القائل :

إذا المرء كانت له فكرة فقي كل شيء له عبرة

وعن طاوس قال : قال الحواريون لعيسى بن مريم : ياروح الله ، هل على الأرض اليوم مثلك ؟ فقال نعم ، من كان منطقه ذكرا ، وصمته فكرا ، ونظره عبرة فإنه مثلي

---

(١) حديث عطاء انطلقت أنا وعبيد بن عمير الى عائشة ـ الحديث : قال ابن عمير : فاخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ الحديث : فى نزول إن فى خلق السموات والارض وقال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها تقدم فى الصبر والشكر وأنه فى صحيح ابن حبان من رواية عبد الملك بن أبى سليمان عن عطاء

(١) آل عمران : ١٩١

وقال الحسن : من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو ، ومن لم يكن سكوته تفكرا فهو سهو ، ومن لم يكن نظره اعتبارا فهو لهو

وفى قوله تعالى (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ [1]) قال أمنع قلوبهم التفكر فى أمرى

وعن [1] أبى سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَعْطُوا أَعْيُنَكُمْ حَظَّهَا مِنَ الْعِبَادَةِ » فقالوا يارسول الله وما حظها من العبادة؟ قال « النَّظَرُ فِي الْمُصْحَفِ وَالتَّفَكُّرُ فِيهِ والاعْتِبَارُ عِنْدَ عَجَائِبِهِ »

وعن امرأة كانت تسكن البادية قريبا من مكة أنها قالت : لو تطالعت قلوب المتقين بفكرها إلى ماقد ادّخر لها فى حجب الغيب من خير الآخرة ، لم يصف لهم فى الدنيا عيش، ولم تقرّ لهم فى الدنيا عين . وكان لقمان يطيل الجلوس وحده ، فكان يمرّ به مولاه فيقول : يالقمان ، إنك تديم الجلوس وحدك ، فلو جلست مع الناس كان آنس لك. فيقول لقمان : إن طول الوحدة أفهمُ للفكر ، وطول الفكر دليل على طريق الجنة

وقال وهب بن منبه: ماطالت فكرة امرىء قط إلا علم ، وما علم امرىء قط إلا عمل

وقال عمر بن عبد العزيز : الفكرة فى نعم الله عز وجل من أفضل العبادة

وقال عبدالله بن المبارك يوما لسهل بن عليّ، ورآه ساكتا متفكرا: أين بلغت؟ قال الصراط

وقال بشر : لو تفكر الناس فى عظمة الله . ماعصوا الله عز وجل

وعن ابن عباس : ركعتان مقتصدتان فى تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب

وبينا أبو شريح يمشى ، إذ جلس فتقنع بكسائه ، فجعل يبكى ، فقيل له مايبكيك ؟ قال: تفكرت فى ذهاب عمرى ، وقلة عملى ، واقتراب أجلى

وقال أبو سليمان : عودوا أعينكم البكاء ، وقلوبكم التفكر

وقال أبو سليمان . الفكر فى الدنيا حجاب عن الآخره ، وعقوبة لأهل الولاية. والفكر فى الآخرة يورث الحكمة ، ويحيي القلوب

---

(١) حديث أبي سعيد الخدرى أعطوا أعينكم حظها من العبادة ــ الحديث : ابن أبي الدنيا ومن طريقه أبو الشيخ بن حبان فى كتاب العظمة بإسناد ضعيف

(١) الأعراف : ١٤٦

وقال حاتم : من العبرة يزيد العلم ، ومن الذكر يزيد الحب ، ومن التفكر يزيد الخوف

وقال ابن عباس : التفكر في الخير يدعو إلى العمل به ، والندم على الشر يدعو إلى تركه

ويروى أن الله تعالى قال فى بعض كتبه : إنى لست أقبل كلام كل حكيم ، ولكن أنظر إلى همه وهواه . فإذا كان همه وهواه لى ، جعلت صمته تفكرا وكلامه حمدا وإن لم يتكلم

وقال الحسن : إن أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر ، وبالفكر على الذكر ، حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة

وقال اسحاق بن خلف : كان داود الطائى رحمه الله تعالى على سطح فى ليلة قمراء ، فتفكر فى ملكوت السموات والأرض وهو ينظر إلى السماء ويبكى ، حتى وقع فى دار جار له . قال: فوثب صاحب الدار من فراشه عريانا وبيده سيف ، وظن أنه لص . فلما نظر إلى داود رجع ووضع السيف وقال : من ذا الذى طرحك من السطح ! قال ماشعرت بذلك

وقال الجنيد : أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة فى ميدان التوحيد ، والتنسم بنسيم المعرفة ، والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد ، والنظر بحسن الظن لله عز وجل . ثم قال : يالها من مجالس ما أجلها ! ومن شراب ما ألذه ، طوبى لمن رزقه

وقال الشافعي رحمه الله تعالى : استعينوا على الكلام بالصمت ، وعلى الاستنباط بالفكر . وقال أيضا : صحة النظر فى الأمور نجاة من الغرور ، والعزم فى الرأى سلامة من التفريط والندم ، والروية والفكر يكشفان عن الحزم والفطنة ، ومشاورة الحكماء ثبات فى النفس وقوة فى البصيرة ، ففكّر قبل أن تعزم ، وتدبر قبل أن تهجم ، وشاور قبل أن تقدم . وقال أيضا : الفضائل أربع : إحداها الحكمة وقوامها الفكرة ، والثانية العفة وقوامها فى الشهوة ، والثالثة القوة وقوامها فى الغضب ، والرابعة العدل وقوامه فى اعتدال قوى النفس

فهذه أقاويل العلماء فى الفكرة ، وماشرع أحد منهم فى ذكر حقيقتها وبيان مجاريها

بيان

حقيقة الفكر وثمرته

اعلم أن معنى الفكر هو إحضار معرفتين فى القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة . ومثاله أن من مال إلى العاجلة ، وآثر الحياة الدنيا ، وأراد أن يعرف أن الآخرة أولى بالإيثار

من العاجلة فله طريقان . أحدهما : أن يسمع من غيره أن الآخرة أولى بالإيثار من الدنيا، فيقلده ويصدقه من غير بصيرة بحقيقة الأمر، فيميل بعمله إلى إيثار الآخرة اعتمادا على مجرد قوله . وهذا يسمى تقليدا ، ولا يسمى معرفة

والطريق الثاني : أن يعرف أن الأبقى أولى بالإيثار ، ثم يعرف أن الآخرة أبقى ، فيحصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة ، وهو أن الآخرة أولى بالإيثار . ولا يمكن تحقق المعرفة بأن الآخرة أولى بالإيثار إلا بالمعرفتين السابقتين . فإحضار المعرفتين السابقتين في القلب للتوصل به إلى المعرفة الثالثة يسمى تفكرا، واعتبارا ، وتذكرا ، ونظرا ، وتأملا، وتدبرا . أما التدبر ، والتأمل، والتفكر، فعبارات مترادفة على معنى واحد ، ليس تحتها معان مختلفة وأما اسم التذكر ، والاعتبار ، والنظر ، فهي مختلفة المعاني ، وإن كان أصل المسمى واحدا. كما أن اسم الصارم ، والمهند ، والسيف ، يتوارد على شيء واحد ولكن باعتبارات مختلفة: فالصارم يدل على السيف من حيث هو قاطع ، والمهند يدل عليه من حيث نسبته إلى موضعه، والسيف يدل دلالة مطلقة من غير إشعار بهذه الزوائد . فكذلك الاعتبار ينطلق على إحضار المعرفتين من حيث إنه يعبر منهما إلى معرفة ثالثة . وإن لم يقع العبور ، ولم يمكن إلا الوقوف على المعرفتين ، فينطلق عليه اسم التذكر لا اسم الاعتبار . وأما النظر والتفكر فيقع عليه من حيث أن فيه طلب معرفة ثالثة . فمن ليس يطلب المعرفة الثالثة لا يسمى ناظرا . فكل متفكر فهو متذكر ، وليس كل متذكر متفكرا . وفائدة التذكار تكرار المعارف على القلب لترسخ ولا تنمحي عن القلب ، وفائدة التفكر تكثير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة فهذا هو الفرق بين التذكر والتفكر . والمعارف إذا اجتمعت في القلب وازدوجت على ترتيب مخصوص ، أثمرت معرفة أخرى . فالمعرفة نتاج المعرفة . فإذا حصلت معرفة أخرى وازدوجت مع معرفة أخرى ، حصل من ذلك نتاج آخر . وهكذا يتمادى النتاج ، ويتمادى العلوم ، ويتمادى الفكر إلى غير نهاية . وإنما تنسد طريق زيادة المعارف بالموت أو بالعوائق هذا لمن يقدر على استثمار العلوم ويهتدي إلى طريق التفكر . وأما أكثر الناس فإنما منعوا الزيادة في العلوم لفقدهم رأس المال ، وهو المعارف التي بها تستثمر العلوم . كالذي لا بضاعة له فإنه لا يقدر على الربح . وقد يملك البضاعة ولكن لا يحسن صناعة التجارة فلا يربح شيئا .

فكذلك قد يكون معه من المعارف ماهو رأس مال العلوم ، ولكن ليس يحسن استعمالها ، وتأليفها ، وإيقاع الازدواج المفضى إلى النتاج فيها

ومعرفة طريق الاستعمال والاستثمار تارة تكون بنور إلهى فى القلب يحصل بالفطرة ، كما كان للأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ، وذلك عزيز جداً . وقد تكون بالتعلم والممارسة ، وهو الأكثر . ثم المتفكر قد تحضره هذه المعارف ، وتحصل له الثمرة وهو لا يشعر بكيفية حصولها ، ولا يقدر على التعبير عنها لقلة ممارسته لصناعة التعبير فى الإيراد ، فكم من إنسان يعلم أن الآخرة أولى بالإيثار علما حقيقيا ، ولو سئل عن سبب معرفته لم يقدر على إيراده والتعبير عنه ، مع أنه لم تحصل معرفته إلا عن المعرفتين السابقتين ، وهو أن الأبقى أولى بالإيثار ، وأن الآخرة أبقى من الدنيا ، فتحصل له معرفة ثالثة ، وهو أن الآخرة أولى بالإيثار . فرجع حاصلُ حقيقة التفكر إلى إحضار معرفتين للتوصل بهما إلى معرفة ثالثة

وأما ثمرة الفكر فهي العلوم ، والأحوال ، والأعمال . ولكن ثمرته الخاصة العلم لا غير نعم إذا حصل العلم فى القلب تغير حال القلب ، وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح فالعمل تابع الحال ، والحال تابع العلم ، والعلم تابع الفكر . فالفكر إذاً هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها . وهذا هو الذى يكشف لك عن فضيلة التفكر ، وأنه خير من الذكر والتذكر . لأن الفكر ذكر وزيادة ، وذكر القلب خير من عمل الجوارح . بل شرف العمل لما فيه من الذكر . فإذاً التفكر أفضل من جملة الأعمال . ولذلك قيل : تفكر ساعة خير من عبادة سنة . فقيل هو الذي ينقل من المكاره إلى المحاب ، ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة . وقيل هو الذى يحْدث مشاهدة وتقوى . ولذلك قال تعالى (لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً [1])

وإن أردت أن تفهم كيفية تغير الحال بالفكر ، فمثاله ماذكرناه من أمر الآخرة ، فإن الفكر فيه يعرفنا أن الآخرة أولى بالإيثار . فإذا رسخت هذه المعرفة يقينا فى قلوبنا تغيرت القلوب إلى الرغبة فى الآخرة ، والزهد فى الدنيا . وهذا ماعنيناه بالحال إذا كان حال القلب قبل هذه المعرفة حب العاجلة ، والميل إليها ، والنفرة عن الآخرة ، وقلة الرغبة فيها ،

---

(1) طه : ١١٣

وبهذه المعرفة تغير حال القلب ، وتبدلت إرادته ورغبته ، ثم أثمر تغير الإرادة أعمال الجوارح فى أطراح الدنيا ، والإقبال على أعمال الآخرة فههنا خمس درجات :

أولاها : التذكر ، وهو إحضار المعرفتين فى القلب

وثانيتها : التفكر ، وهو طلب المعرفة المقصودة منهما

والثالثة : حصول المعرفة المطلوبة ، واستنارة القلب بها .

والرابعة : تغير حال القلب عما كان بسبب حصول نور المعرفة

والخامسة : خدمة الجوارح للقلب ، بحسب مايتجدد له من الحال . فكما يضرب الحجر على الحديد فيخرج منه نار يستضىء بها الموضع ، فتصير العين مبصرة بعد أن لم تكن مبصرة ، وتنتهض الأعضاء للعمل ، فكذلك زناد نور المعرفة هو الفكر ، فيجمع بين المعرفتين كما يجمع بين الحجر والحديد ، ويؤلف بينهما تأليفا مخصوصا كما يضرب الحجر على الحديد ضربا مخصوصا ، فينبعث نور المعرفة كما تنبعث النار من الحديد ، ويتغير القلب بسبب هذا النور حتى يميل إلى مالم يكن يميل إليه . كما يتغير البصر بنور النار فيرى مالم يكن يراه ، ثم تنتهض الأعضاء للعمل بمقتضى حال القلب ، كما ينتهض العاجز عن العمل بسبب الظلمة للعمل عند إدراك البصر مالم يكن يبصره

فإذاً ثمرة الفكر العلوم والأحوال ، والعلوم لانهاية لها ، والأحوال التى تتصور أن تتقلب على القلب لايمكن حصرها . ولهذا لو أراد مريد أن يحصر فنون الفكر ومجاريه ، وأنه فيما ذا يتفكر ، لم يقدر عليه ، لأن مجارى الفكر غير محصورة ، وثمراته غير متناهية . نعم نحن نجتهد فى ضبط مجاريه بالإضافة إلى مهمات العلوم الدينية ، وبالإضافة إلى الأحوال التى هي مقامات السالكين ، ويكون ذلك ضبطا جمليا ، فإن تفصيل ذلك يستدعى شرح العلوم كلها ، وجملة هذه الكتب كالشرح لبعضها ، فإنها مشتملة على علوم ، تلك العلوم تستفاد من أفكار مخصوصة ، فلنشر إلى ضبط المجامع فيها ليحصل الوقوف على مجارى الفكر

بيان

مجارى الفكر

اعلم أن الفكر قد يجرى فى أمر يتعلق بالدين ، وقد يجرى فيما يتعلق بغير الدين . وإنما غرضنا ما يتعلق بالدين ، فلنترك القسم الآخر . ونعنى بالدين المعاملة التى بين العبد وبين الرب تعالى .
فجميع أفكار العبد إما أن تتعلق بالعبد وصفاته وأحواله ، وإما أن تتعلق بالمعبود وصفاته وأفعاله ، لا يمكن أن يخرج عن هذين القسمين . وما يتعلق بالعبد إما أن يكون نظرا فيما هو محبوب عند الرب تعالى أو فيما هو مكروه . ولا حاجة إلى الفكر فى غير هذين القسمين . وما يتعلق بالرب تعالى إما أن يكون نظرا فى ذاته وصفاته وأسمائه الحسنى ، وإما أن يكون فى أفعاله وملكه وملكوته ، وجميع ما فى السموات والأرض وما بينهما

وينكشف لك انحصار الفكر فى هذه الأقسام بمثال ، وهو أن حال السائرين إلى الله تعالى ، والمشتاقين إلى لقائه ، يضاهى حال العشاق فلنتخذ العاشق المستهتر مثالنا فنقول :
العاشق المستغرق الهم بعشقه لا يعدو فكره من أن يتعلق بمعشوقه أو يتعلق بنفسه .
فإن تفكر فى معشوقه فإما أن يتفكر فى جماله وحسن صورته فى ذاته ، ليتنعم بالفكر فيه وبمشاهدته ، وإما أن يتفكر فى أفعاله اللطيفة الحسنة الدالة على أخلاقه وصفاته ، ليكون ذلك مضعفا للذته ومقويا لمحبته . وإن تفكر فى نفسه فيكون فكره فى صفاته التى تسقطه من عين محبوبه حتى يتنزه عنها ، أو فى الصفات التى تقربه منه وتحببه إليه حتى يتصف بها .
فإن تفكر فى شيء خارج عن هذه الأقسام فذلك خارج عن حد العشق ، وهو نقصان فيه ، لأن العشق التام الكامل ما يستغرق العاشق ويستوفى القلب ، حتى لا يترك فيه متسعا لغيره فحب الله تعالى ينبغى أن يكون كذلك ، فلا يعدو نظره وتفكره محبوبه . ومهما كان تفكره محصورا فى هذه الأقسام الأربعة لم يكن خارجا عن مقتضى المحبة أصلا

فلنبدأ بالقسم الأول : وهو تفكره فى صفات نفسه ، وأفعال نفسه ، ليميز المحبوب منها عن المكروه ، فإن هذا الفكر هو الذى يتعلق بعلم المعاملة الذى هو المقصود بهذا الكتاب وأما القسم الآخر : فيتعلق بعلم المكاشفة . ثم كل واحد مما هو مكروه عند الله أو محبوب

ينقسم إلى ظاهر كالطاعات والمعاصى، وإلى باطن كالصفات المنجيات والمهلكات التى محلها القلب، وذكرنا تفصيلها فى ربع المهلكات والمنجيات، والطاعات والمعاصى تنقسم إلى ما يتعلق بالأعضاء السبعة، وإلى ما ينسب إلى جميع البدن، كالفرار من الزحف، وعقوق الوالدين، والسكون فى المسكن الحرام. ويجب فى كل واحد من المكاره التفكر فى ثلاثة أمور:

الأول: التفكر فى أنه هل هو مكروه عند الله أم لا؟ فرب شيء لا يظهر كونه مكروها، بل يدرك بدقيق النظر. والثانى: التفكر فى أنه إن كان مكروها فما طريق الاحتراز عنه والثالث: أن هذا المكروه هل هو متصف به فى الحال، فيتركه، أو هو متعرض له فى الاستقبال فيحترز عنه، أو قارفه فيما مضى من الأحوال فيحتاج إلى تداركه

وكذلك كل واحد من المحبوبات ينقسم إلى هذه الانقسامات. فإذا جمعت هذه الأقسام زادت مجارى الفكر فى هذه الأقسام على مائة، والعبد مدفوع إلى الفكر إما فى جميعها أو فى أكثرها. وشرح آحاد هذه الانقسامات يطول، ولكن انحصر هذا القسم فى أربعة أنواع: الطاعات، والمعاصى، والصفات المهلكات، والصفات المنجيات. فلنذكر فى كل نوع مثالا ليقيس به المريد سائرها، وينفتح له باب الفكر، ويتسع عليه طريقه

النوع الأول: المعاصى، ينبغى أن يفتش الإنسان صبيحة كل يوم جميع أعضائه السبعة تفصيلا، ثم بدنه على الجملة، هل هو فى الحال ملابس لمعصية بها فيتركها، أو لابسها بالأمس فيتداركها بالترك والندم، أو هو متعرض لها فى نهاره فيستعد للاحتراز والتباعد عنها

فينظر فى اللسان ويقول: إنه متعرض للغيبة، والكذب، وتزكية النفس، والاستهزاء بالغير، والمماراة، والممازحة، والخوض فيما لا يعنى، إلى غير ذلك من المكاره. فيقرر أولا فى نفسه أنها مكروهة عند الله تعالى، ويتفكر فى شواهد القرءان والسنة على شدة العذاب فيها، ثم يتفكر فى أحواله أنه كيف يتعرض لها من حيث لا يشعر، ثم يتفكر أنه كيف يحترز منه، ويعلم أنه لا يتم له ذلك إلا بالعزلة والانفراد، أو بأن لا يجالس إلا صالحا تقيا ينكر عليه مهما تكلم بما يكرهه الله، وإلا فيضع حجرا فى فيه إذا جالس غيره حتى يكون ذلك مذكرا له. فهكذا يكون الفكر فى حيلة الاحتراز

ويتفكر فى سمعه أنه يصغى به إلى الغيبة، والكذب، وفضول الكلام، وإلى اللهو

والبدعة ، وأن ذلك إنما يسمعه من زيد وعمرو ، وأنه ينبغي أن يحترز عنه بالاعتزال أو بالنهي عن المنكر ... فمهما كان ذلك فيتفكر في بطنه أنه إنما يعصى الله تعالى فيه بالأكل والشرب، إما بكثرة الأكل من الحلال ،فإن ذلك مكروه عند الله ، ومقوّ للشهوة التي هي سلاح الشيطان عدوّ الله ، وإما بأكل الحرام أو الشبهة ، فينظر من أين مطعمه ، وملبسه ، ومسكنه ، ومكسبه ، وما مكسبه ، ويتفكر في طريق الحلال ومداخله ، ثم يتفكر في طريق الحيلة في الاكتساب منه والاحتراز من الحرام ، ويقرر على نفسه أن العبادات كلها ضائعة مع أكل الحرام ، وأن أكل الحلال هو أساس العبادات كلها وأن الله تعالى لايقبل صلاة عبد في ثمن ثوبه درهم حرام كما ورد الخبر به [1]

فهكذا يتفكر في أعضائه ، ففي هذا القدر كفاية عن الاستقصاء ، فمهما حصل بالتفكر حقيقة المعرفة بهذه الأحوال اشتغل بالمراقبة طول النهار حتى يحفظ الأعضاء عنها

وأما النوع الثاني : وهو الطاعات فينظر أولا في الفرائض المكتوبة عليه أنه كيف يؤديها، وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير ، أو كيف يجبر نقصانها بكثرة النوافل ، ثم يرجع إلى عضو عضو فيتفكر في الأفعال التي تتعلق بها مما يحبه الله تعالى ، فيقول مثلا: إن العين خلقت للنظر في ملكوت السموات والأرض عبرة ، ولتستعمل في طاعة الله تعالى وتنظر في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأنا قادر على أن أشغل العين بمطالعة القرءان والسنة ، فلمَ لا أفعله ؟وأنا قادر على أن أنظر إلى فلان المطيع بعين التعظيم فأدخل السرور على قلبه ، وأنظر إلى فلان الفاسق بعين الازدراء فأزجره بذلك عن معصيته ، فلمَ لا أفعله ؟

وكذلك يقول في سمعه : إني قادر على استماع كلام ملهوف ، أو استماع حكمة وعلم ، أو استماع قراءة وذكر ، فمالي أعطله وقد أنعم الله عليّ به وأودعنيه لأشكره ، فمالي أكفر نعمة الله فيه بتضييعه أو تعطيله ؟

وكذلك يتفكر في اللسان ويقول : إني قادر على أن أتقرب إلى الله تعالى بالتعليم ، والوعظ والتودد إلى قلوب أهل الصلاح ، وبالسؤال عن أحوال الفقراء ، وإدخال السرور على قلب

---

(١) حديث ان الله لايقبل صلاة عبد في ثمن ثوبه درهم حرام :أحمد من حديث ابن عمر بسند فيه مجهول وقد تقدم

زيد الصالح ، وعمرو العالم بكلمة طيبة ، وكل كلمة طيبة فإنها صدقة

وكذلك يتفكر فى ماله فيقول : أنا قادر على أن أتصدق بالمال الفلانى ، فإنى مستغن عنه ومهما احتجت إليه رزقنى الله تعالى مثله ، وإن كنت محتاجا الآن فأنا إلى ثواب الإيثار أحوج منى إلى ذلك المال . وهكذا يفتش عن جميع أعضائه ، وجملة بدنه وأمواله ، بل عن دوابه وغلمانه وأولاده ، فإن كل ذلك أدواته وأسبابه ، ويقدر على أن يطيع الله تعالى بها ، فيستنبط بدقيق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بها ، ويتفكر ، فيما يرغبه فى البدار إلى تلك الطاعات ويتفكر فى إخلاص النية فيها ، ويطلب لها مظان الاستحقاق حتى يزكو بها عمله . وقس على هذا سائر الطاعات

وأما النوع الثالث : فهي الصفات المهلكة التى محلها القلب . فيعرفها مما ذكرناه فى ربع المهلكات ، وهي استيلاء الشهوة ، والغضب ، والبخل ، والكبر ، والعجب ، والرياء والحسد ، وسوء الظن ، والغفلة ، والغرور ، وغير ذلك . ويتفقد من قلبه هذه الصفات ، فإن ظن أن قلبه منزه عنها فيتفكر فى كيفية امتحانه ، والاستشهاد بالعلامات عليه ، فإن النفس أبدا تعِدُ بالخير من نفسها وتخلف . فإذا ادّعت التواضع والبراءة من الكبر فينبغى أن تجرب بحمل حزمة حطب فى السوق ، كما كان الأولون يجربون به أنفسهم . وإذا ادّعت الحلم تعرض لغضب يناله من غيره ، ثم يجربها فى كظم الغيظ . وكذلك فى سائر الصفات

وهذا تفكر فى أنه هل هو موصوف بالصفة المكروهة أم لا ، ولذلك علامات ذكرناها فى ربع المهلكات . فإذا دلت العلامة على وجودها فكر فى الأسباب التى تقبح تلك الصفات عنده ، وتبين أن منشأها من الجهل والغفلة ، وخبث الدّخلة . كما لو رأى فى نفسه عجبا بالعمل ، فيتفكر ويقول : إنما عملى ببدنى وجارحتى ، وبقدرتى وإرادتى ، وكل ذلك ليس منى ولا إلىّ ، وإنما هو من خلق الله وفضله علىّ ، فهو الذى خلقنى ، وخلق جارحتى ، وخلق قدرتى وإرادتى ، وهو الذى حرك أعضائى بقدرته . وكذلك قدرتى وإرادتى ، فكيف أعجب بعملى أو بنفسى ، ولا أقوم لنفسى بنفسى

فإذا أحس فى نفسه بالكبر ، قرر على نفسه ما فيه من الحماقة ويقول لها : لم ترين نفسك أكبر ؟ والكبير من هو عند الله كبير ، وذلك ينكشف بعد الموت . وكم من كافر فى الحال

يموت مقرا بالإله تعالى بنزوعه عن الكفر، وكم من مسلم يموت شقيا بتغير حاله عند الموت بسوء الخاتمة، فإذا عرف أن الكبر مهلك، وأن أصله الحماقة، فيتفكر فى علاج إزالة ذلك بأن يتعاطى أفعال المتواضعين

وإذا وجد فى نفسه شهوة الطعام وشرهه، تفكر فى أن هذه صفة البهائم، ولو كان فى شهوة الطعام والوقاع كمال لكان ذلك من صفات الله وصفات الملائكة، كالعلم والقدرة ولما اتّصف به البهائم ومهما كان الشره عليه أغلب كان بالبهائم أشبه، وعن الملائكة المقربين أبعد. وكذلك يقرر على نفسه فى الغضب، ثم يتفكر فى طريق العلاج، وكل ذلك ذكرناه فى هذه الكتب، فمن يريد أن يتسع له طريق الفكر فلا بد له من تحصيل مافى هذه الكتب

وأما النوع الرابع: وهو المنجيات فهو التوبة، والندم على الذنوب، والصبر على البلاء، والشكر على النعماء، والخوف والرجاء، والزهد فى الدنيا، والإخلاص والصدق فى الطاعات، ومحبة الله وتعظيمه، والرضا بأفعاله، والشوق إليه، والخشوع والتواضع له وكل ذلك ذكرناه فى هذا الربع، وذكرنا أسبابه وعلاماته، فليتفكر العبد كل يوم فى قلبه ماالذى يعوزه من هذه الصفات التى هي المقربة إلى الله تعالى، فإذا افتقر إلى شيء منها فليعلم أنها أحوال لايثمرها إلا علوم، وأن العلوم لايثمرها إلا أفكار

فإذا أراد أن يكتسب لنفسه أحوال التوبة والندم، فليفتش ذنوبه أولا، وليتفكر فيها، وليجمعها على نفسه، وليعظمها فى قلبه، ثم لينظر فى الوعيد والتشديد الذى ورد فى الشرع فيها، وليتحقق عند نفسه أنه متعرض لمقت الله تعالى حتى ينبعث له حال الندم

وإذا أراد أن يستثير من قلبه حال الشكر فلينظر فى إحسان الله إليه، وأياديه عليه، وفى إرساله جميل ستره عليه على ماشرحنا بعضه فى كتاب الشكر، فليطالع ذلك

وإذا أراد حال المحبة والشوق فليتفكر فى جلال الله وجماله، وعظمته، وكبريائه، وذلك بالنظر فى عجائب حكمته وبدائع صنعه، كماسنشير إلى طرف منه فى القسم الثانى من الفكر

وإذا أراد حال الخوف فلينظر أولا فى ذنوبه الظاهرة والباطنة، ثم لينظر فى الموت وسكراته، ثم فيما بعده من سؤال منكر ونكير، وعذاب القبر، وحيّاته، وعقاربه، وديدانه،

ثم فى هول النداء عند نفخة الصور ، ثم فى هول المحشر عند جمع الخلائق على صعيد واحد ، ثم فى المناقشة فى الحساب ، والمضايقة فى النقير والقطمير ، ثم فى الصراط ودقته وحدته ، ثم فى خطر الأمر عنده أنه يصرف إلى الشمال فيكون من أصحاب النار ، أو يصرف إلى اليمين فينزل دار القرار . ثم ليحضر بعد أهوال القيامة فى قلبه صورة جهنم ودركاتها ، ومقامعها وأهوالها ، وسلاسلها وأغلالها ، وزقومها وصديدها ، وأنواع العذاب فيها ، وقبح صور الزبانية الموكلين بها ، وأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها ، وأنهم كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ، وأنهم إذا رأوها من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا ، وهلم جرا إلى جميع ماورد فى القرءان من شرحها

وإذا أراد أن يستجلب حال الرجاء فلينظر إلى الجنة ونعيمها ، وأشجارها وأنهارها ، وحورها وولدانها ، ونعيمها المقيم ، وملكها الدائم

فهكذا طريق الفكر الذى يطلب به العلوم التى تثمر اجتلاب أحوال محبوبة ، أو التنزه عن صفات مذمومة . وقد ذكرنا فى كل واحد من هذه الأحوال كتابا مفردا يستعان به على تفصيل الفكر أما ذكر مجامعه فلا يوجد فيه أنفع من قراءة القرءان بالتفكر ، فإنه جامع لجميع المقامات والأحوال ، وفيه شفاء للعالمين ، وفيه مايورث الخوف والرجاء ، والصبر والشكر ، والمحبة ، والشوق ، وسائر الأحوال ، وفيه مايزجر عن سائر الصفات المذمومة . فينبغى أن يقرأه العبد ويردد الآية التى هو محتاج إلى التفكر فيها مرة بعد أخرى ، ولو مائة مرة ، فقراءة آية بتفكر وفهم خير من ختمة بغير تدبر وفهم . فليتوقف فى التأمل فيها ولو ليلة واحدة ، فإن تحت كل كلمة منها أسرارا لاتنحصر ، ولا يوقف عليها إلا بدقيق الفكر عن صفاء القلب بعد صدق المعاملة . وكذلك مطالعة أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] فإنه قد أوتي جوامع الكلم ، وكل كلمة من كلماته بحر من بحور الحكمة ، ولو تأملها العالم حق التأمل لم ينقطع فيها نظره طول عمره . وشرح آحاد الآيات والأخبار يطول ، فانظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم [2] « إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَحْبِبْ مَنْ أَحْبَبْتَ

---

(١) حديث انه صلى الله عليه وسلم أوتي جوامع الكلم: تقدم

(٢) حديث ان روح القدس نفث فى روعى أحبب من احببت فانك مفارقه ـ الحديث : تقدم غير مرة

فإنك مفارقه وعش ما شئت فإنك ميت واعمل ما شئت فإنك مجزى به ، فإن هذه الكلمات جامعة حكم الأولين والآخرين ، وهي كافية للمتأملين فيها طول العمر ، إذا وقفوا على معانيها وغلبت على قلوبهم غلبة يقين لاستغرقتهم ، ولحال ذلك بينهم وبين التلفت إلى الدنيا بالكلية . فهذا هو طريق الفكر في علوم المعاملة وصفات العبد من حيث هي محبوبة عند الله تعالى أو مكروهة . والمبتدىء ينبغى أن يكون مستغرق الوقت فى هذه الأفكار حتى يعمر قلبه بالأخلاق المحمودة والمقامات الشريفة ، وينزه باطنه وظاهره عن المكاره ، وليعلم أن هذا مع أنه أفضل من سائر العبادات فليس هو له غاية المطلب ، بل المشغول به محجوب عن مطلب الصديقين ، وهو التنعم بالفكر فى جلال الله تعالى وجماله ، واستغراق القلب بحيث يفنى عن نفسه ، أي ينسى نفسه ، وأحواله ، ومقاماته ، وصفاته ، فيكون مستغرق الهم بالمحبوب ، كالعاشق المستهتر عند لقاء الحبيب ، فإنه لا يتفرغ للنظر فى أحوال نفسه وأوصافها ، بل يبقى كالمبهوت الغافل عن نفسه ، وهو منتهى لذة العشاق

فأما ما ذكرناه فهو تفكر فى عمارة الباطن ليصلح للقرب والوصال ، فإذا ضيع جميع عمره فى إصلاح نفسه فمتى يتنعم بالقرب ؟ ولذلك كان الخواص يدور فى البوادى ، فلقيه الحسين بن منصور وقال : فيم أنت ؟ قال : أدور فى البوادى أصلح حالى فى التوكل . فقال الحسين : أفنيت عمرك فى عمران باطنك ، فأين الفناء فى التوحيد ؟

فالفناء فى الواحد الحق هو غاية مقصد الطالبين ، ومنتهى نعيم الصديقين . وأما التنزه عن الصفات المهلكات فيجرى مجرى الخروج عن العدة فى النكاح . وأما الاتصاف بالصفات المنجيات وسائر الطاعات فيجرى مجرى تهيئة المرأة جهازها ؟ وتنظيفها وجهها ومشطها شعرها ؛ لتصلح بذلك للقاء زوجها . فإن استغرقت جميع عمرها فى تبرئة الرحم وتزيين الوجه ، كان ذلك حجابا لها عن لقاء المحبوب

فهكذا ينبغى أن تفهم طريق الدين إن كنت من أهل المجالسة

وإن كنت كالعبد السوء لا يتحرك إلا خوفا من الضرب وطمعا فى الأجرة ، فدونك وإتعاب البدن بالأعمال الظاهرة ، فإن بينك وبين القلب حجابا كثيفا ، فإذا قضيت حق الأعمال كنت من أهل الجنة . ولكن للمجالسة أقوام آخرون

وإذا عرفت مجال الفكر في علوم المعاملة التي بين العبد وبين ربه ، فينبغي أن تتخذ ذلك عادتك وديدنك صباحا ومساء ، فلا تغفل عن نفسك وعن صفاتك المبعدة من الله تعالى ، وأحوالك المقربة إليه سبحانه وتعالى . بل كل مريد فينبغي أن يكون له جريدة يثبت فيها جملة الصفات المهلكات ، وجملة الصفات المنجيات ، وجملة المعاصي والطاعات ، ويعرض نفسه عليها كل يوم . ويكفيه من المهلكات النظر في عشرة ، فإنه إن سلم منها سلم من غيرها ، وهي البخل ، والكبر ، والعجب ، والرياء ، والحسد ، وشدة الغضب ، وشره الطعام ، وشره الوقاع ، وحب المال ، وحب الجاه . ومن المنجيات عشرة : الندم على الذنوب ، والصبر على البلاء ، والرضا بالقضاء ، والشكر على النعماء ، واعتدال الخوف والرجاء والزهد في الدنيا ، والإخلاص في الأعمال ، وحسن الخلق مع الخلق ، وحب الله تعالى ، والخشوع له . فهذه عشرون خصلة ، عشرة مذمومة ، وعشرة محمودة . فمهما كفي من المذمومات واحدة فيخط عليها في جريدته ، ويدع الفكر فيها ، ويشكر الله تعالى على كفايته إياها ، وتنزيه قلبه عنها . ويعلم أن ذلك لم يتم إلا بتوفيق الله تعالى وعونه ، ولو وكله إلى نفسه لم يقدر على محو أقل الرذائل عن نفسه . فيقبل على التسعة الباقية . وهكذا يفعل حتى يخط على الجميع . وكذا يطالب نفسه بالاتصاف بالمنجيات ، فإذا اتصف بواحدة منها كالتوبة والندم مثلا خط عليها ، واشتغل بالباقي ، وهذا يحتاج إليه المريد المشمر

وأما أكثر الناس من المعدودين من الصالحين فينبغي أن يثبتوا في جرائدهم المعاصي الظاهرة كأكل الشبهة وإطلاق اللسان بالغيبة ، والنميمة ، والمراء ، والثناء على النفس ، والإفراط في معاداة الأعداء وموالاة الأولياء ، والمداهنة مع الخلق في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإن أكثر من يعد نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصي في جوارحه . وما لم يطهر الجوارح عن الآثام لا يمكن الاشتغال بعمارة القلب وتطهيره . بل كل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من المعصية ؛ فينبغي أن يكون تفقدهم لها ، وتفكرهم فيها لا في معاص هم بمعزل عنها . مثاله العالم الورع ، فإنه لا يخلو في غالب الأمر عن إظهار نفسه بالعلم ، وطلب الشهرة ، وانتشار الصيت ، إما بالتدريس

أو بالوعظ . ومن فعل ذلك تصدى لفتنة عظيمة ؛ لاينجو منها إلا الصديقون . فإنه إن كان كلامه مقبولا حسن الوقع فى القلوب ، لم ينفك عن الإعجاب والخيلاء ، والتزين والتصنع وذلك من المهلكات . وإن ردّ كلامه لم يخل عن غيظ وأنفة وحقد على من يرده ، وهو أكثر من غيظه على من يرد كلام غيره . وقد يلبّس الشيطان عليه ويقول : إن غيظك من حيث إنه ردّ الحق وأنكره . فإن وجد تفرقة بين أن يرد عليه كلامه أو يرد على عالم آخر فهو مغرور وضحكة للشيطان . ثم مهما كان له ارتياح بالقبول ، وفرح بالثناء ، واستنكاف من الرد أو الإعراض ، لم يخل عن تكلف وتصنع لتحسين اللفظ والإيراد ، حرصا على استجلاب الثناء ، والله لايحب المتكلفين . والشيطان قد يلبّس عليه ويقول : إنما حرصك على تحسين الألفاظ والتكلف فيها لينتشر الحق ، ويحسن موقعه فى القلب ، إعلاء لدين الله فإن كان فرحه بحسن ألفاظه وثناء الناس عليه أكثر من فرحه بثناء الناس على واحد من أقرانه فهو مخدوع . وإنما يدورون حول طلب الجاه ، وهو يظن أن مطلبه الدين . ومهما اختلج ضميره بهذه الصفات ظهر على ظاهره ذلك ، حتى يكون للموقر له المعتقد لفضله أكثر احتراما ، ويكون بلقائه أشد فرحا واستبشارا ممن يغلو فى موالاة غيره ، وإن كان ذلك الغير مستحقا للموالاة وربما ينتهى الأمر بأهل العلم إلى أن يتغايروا تغاير النساء فيشق على أحدهم أن يختلف بعض تلامذته إلى غيره ، وإن كان يعلم أنه منتفع بغيره ، ومستفيد منه فى دينه

وكل ذلك رشح الصفات المهلكات المستكنة فى سر القلب ، التى قد يظن العالم النجاة منها وهو مغرور فيها . وإنما ينكشف ذلك بهذه العلامات . ففتنة العالم عظيمة ، وهو إما مالك وإما هالك ، ولامطمع له فى سلامة الدوام . فمن أحس فى نفسه بهذه الصفات فالواجب عليه العزلة ، والانفراد ، وطلب الخمول ، والمدافعة للفتاوى مهما سئل ، فقد كان المسجد يحوى فى زمن الصحابة رضي الله تعالى عنهم جما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كلهم مفتون ، وكانوا يتدافعون الفتوى ، وكل من كان يفتى كان يود أن يكفيه غيره . وعند هذا ينبغى أن يتقى شياطين الإنس إذا قالوا لاتفعل هذا ، فإن هذا الباب لو فتح لاندرست العلوم من بين الخلق ، وليقل لهم : إن دين الإسلام مستغن عن

فإنه قد كان معمورا قبلي ، وكذلك يكون بعدي . ولو مت لم تنهدم أركان الإسلام فإن الدين مستغن عنى . وأما أنا فلست مستغنيا عن إصلاح قلبي . وأما أداء ذلك إلى اندراس العلم فخيال يدل على غاية الجهل ، فإن الناس لو حبسوا فى السجن ، وقيدوا بالقيود ، وتوعدوا بالنار على طلب العلم ، لكان حب الرياسة والعلو يحملهم على كسر القيود ، وهدم حيطان الحصون ، والخروج منها ، والاشتغال بطلب العلم . فالعلم لايندرس مادام الشيطان يحبب إلى الخلق الرياسة ، والشيطان لا يفتر عن عمله إلى يوم القيامة ، بل ينتهض لنشر العلم أقوام لانصيب لهم فى الآخرة ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « إِنَّ اللهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِأَقْوَامٍ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ »[2] « وَإِنَّ اللهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ » . فلا ينبغى أن يغتر العالم بهذه التلبيسات فيشتغل بمخالطة الخلق . حتى يتربى فى قلبه حب الجاه والثناء والتعظيم ، فإن ذلك بذر النفاق . قال صلى الله عليه وسلم[3] « حُبُّ الْجَاهِ وَالْمَالِ يُنْبِتُ النِّفَاقَ فِي الْقَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الْبَقْلَ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم[4] « مَاذِئْبَانِ ضَارِيَانِ أُرْسِلاَ فِي زَرِيبَةِ غَنَمٍ بِأَكْثَرَ إِفْسَاداً فِيهَا مِنْ حُبِّ الْجَاهِ وَالْمَالِ فِي دِينِ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ »

ولا ينقلع حب الجاه من القلب إلا بالاعتزال عن الناس ، والهرب من مخالطتهم ، وترك كل مايزيد جاهه فى قلوبهم . فليكن فكر العالم فى التفطن لخفايا هذه الصفات من قلبه ، وفى استنباط طريق الخلاص منها ، وهذه وظيفة العالم المتقى .

فأما أمثالنا فينبغى أن يكون تفكرنا فيما يقوى إيماننا بيوم الحساب ، إذ لو رآنا السلف الصالحون : لقالوا قطعا إن هؤلاء لايؤمنون بيوم الحساب ، فما أعمالنا أعمال من يؤمن بالجنة والنار ، فإن من خاف شيئا هرب منه ، ومن رجا شيئا طلبه ، وقد علمنا أن الهرب من النار بترك الشبهات والحرام ، وبترك المعاصى ، ونحن منهمكون فيها ، وأن طلب الجنة بتكثير نوافل الطاعات ، ونحن مقصرون فى الفرائض منها ، فلم يحصل لنا

---

(١) حديث ان الله يؤيد هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم : تقدم .

(٢) حديث ان الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر : تقدم أيضا فى العلم

(٣) حديث حب المال والجاه ينبت النفاق فى القلب ـ الحديث : تقدم

(٤) حديث ماذئبان جائعان أرسلا فى زريبة غنم ـ الحديث : تقدم

من ثمرة العلم إلا أنه يقتدى بنا في الحرص على الدنيا ، والتكالب عليها ،ويقال لو كان هذا مذموما لكان العلماء أحق وأولى باجتنابه منا ، فليتنا كُنا كالعوام إذا متنا ماتت معنا ذنوبنا ، فما أعظم الفتنة التي تعرضنا لها لو تفكرنا ، فنسأل الله تعالى أن يصلحنا ويصلح بنا ، ويوفقنا للتوبة قبل أن يتوفانا ، إنه الكريم اللطيف بنا ، المنعم علينا

فهذه مجارى أفكار العلماء والصالحين في علم المعاملة . فإن فرغوا منها انقطع التفاتهم عن أنفسهم ، وارتقوا منها إلى التفكر في جلال الله وعظمته، والتنعم بمشاهدته بعين القلب ولا يتم ذلك إلا بعد الانفكاك من جميع المهلكات ، والاتصاف بجميع المنجيات . وإن ظهر شيء منه قبل ذلك كان مدخولا معلولا ، مكدرا مقطوعا ، وكان ضعيفا كالبرق الخاطف لا يثبت ولا يدوم ، ويكون كالعاشق الذى خلا بمعشوقه ، ولكن تحت ثيابه حيات وعقارب تلدغه مرة بعد أخرى ، فتنغص عليه لذة المشاهدة ، ولا طريق له في كمال التنعم إلا بإخراج العقارب والحيات من ثيابه : وهذه الصفات المذمومة عقارب وحيات ، وهي مؤذيات ومشوشات ، وفى القبر يزيد ألم لدغها على لدغ العقارب والحيات . فهذا القدر كاف في التنبيه على مجارى فكر العبد في صفات نفسه المحبوبة والمكروهة عند ربه تعالى

القسم الثاني : الفكر في جلال الله وعظمته وكبريائه ، وفيه مقامان :

المقام الأعلى : الفكر في ذاته وصفاته ومعانى أسمائه . وهذا مما منع منه حيث قيل: تفكروا في خلق الله تعالى ولا تتفكروا في ذات الله . وذلك لأن العقول تتحير فيه، فلا يطيق مد البصر إليه إلا الصديقون ، ثم لا يطيقون دوام النظر . بل سائر الخلق أحوال أبصارهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى كحال بصر الخفاش بالإضافة إلى نور الشمس، فإنه لا يطيقه ألبتة ، بل يختفى نهارا ، وإنما يتردد ليلا ينظر في بقية نور الشمس إذا وقع على الأرض . وأحوال الصديقين كحال الإنسان في النظر إلى الشمس ، فإنه يقدر على النظر إليها ولا يطيق دوامه ، ويخشى على بصره لو أدام النظر ، ونظره المختطف إليها يورث العمش ويفرق البصر . وكذلك النظر إلى ذات الله تعالى يورث الحيرة والدهش واضطراب العقل . فالصواب إذاً أن لا يتعرض لمجارى الفكر في ذات الله سبحانه وصفاته ، فإن أكثر العقول لا تحتمله

بل القدر اليسير الذى صرح به بعض العلماء ، وهو أن الله تعالى مقدس عن المكان .

ومنزه عن الأقطار والجهات ، وأنه ليس داخل العالم ولا خارجه ، ولا هو متصل بالعالم ولا هو منفصل عنه ، قد حير عقول أقوام حتى أنكروه إذ لم يطيقوا سماعه ومعرفته . بل ضعفت طائفة عن احتمال أقل من هذا ، إذ قيل لهم إنه يتعاظم ويتعالى عن أن يكون له رأس ، ورجل ، ويد ، وعين ، وعضو ، وأن يكون جسما مشخصا له مقدار وحجم ، فأنكروا هذا وظنوا أن ذلك قدح في عظمة الله وجلاله ، حتى قال بعض الحمقى من العوام : إن هذا وصف بطيخ هندي لا وصف الإله ، لظن المسكين أن الجلالة والعظمة في هذه الأعضاء ، وهذا لأن الإنسان لا يعرف إلا نفسه ، فلا يستعظم إلا نفسه . فكل ما لا يساويه في صفاته فلا يفهم العظمة فيه . نعم غايته أن يقدر نفسه جميل الصورة ، جالسا على سريره وبين يديه غلمان يمتثلون أمره ، فلا جرم غايته أن يقدر ذلك في حق الله تعالى وتقدس حتى يفهم العظمة ، بل لو كان للذباب عقل وقيل له ليس لخالقك جناحان ، ولا يد ، ولا رجل ، ولا له طيران لأنكر ذلك وقال : كيف يكون خالقي أنقص مني ! أفيكون مقصوص الجناح ، أو يكون زمنا لا يقدر على الطيران ، أو يكون لي آلة وقدرة لا يكون له مثلها وهو خالقي ومصوري

وعقول أكثر الخلق قريب من هذا العقل ، وإن الإنسان لجهول ظلوم كفار ، ولذلك أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : لا تخبر عبادي بصفاتي فينكروني ، ولكن أخبرهم عني بما يفهمون

ولما كان النظر في ذات الله تعالى وصفاته خطرا من هذا الوجه ، اقتضى أدب الشرع وصلاح الخلق أن لا يتعرض لمجاري الفكر فيه . لكنا نعدل إلى المقام الثاني ، وهو النظر في أفعاله ، ومجاري قدره ، وعجائب صنعه ، وبدائع أمره في خلقه ، فإنها تدل على جلاله وكبريائه ، وتقدسه وتعاليه ، وتدل على كمال علمه وحكمته ، وعلى نفاذ مشيئته وقدرته فينظر إلى صفاته من آثار صفاته . فإنا لا نطيق النظر إلى صفاته ، كما أنا نطيق النظر إلى الأرض مهما استنارت بنور الشمس ، ونستدل بذلك على عظم نور الشمس بالإضافة إلى نور القمر وسائر الكواكب ، لأن نور الأرض من آثار نور الشمس ، والنظر في الآثار يدل على المؤثر دلالة ما ، وإن كان لا يقوم مقام النظر في نفس المؤثر . وجميع موجودات الدنيا أثر من آثار قدرة الله تعالى ، ونور من أنوار ذاته ، بل لا ظلمة أشد من العدم ، ولا نور أظهر من الوجود ، ووجود الأشياء كلها نور من أنوار ذاته تعالى وتقدس ، إذ قوام وجود الأشياء

بذاته القيوم بنفسه ، كما أن قوام نور الأجسام بنور الشمس المضيئة بنفسها . ومهما انكشف بعض الشمس فقد جرت العادة بأن يوضع طشت ماء حتى ترى الشمس فيه ، ويمكن النظر إليها ، فيكون الماء واسطة يغض قليلا من نور الشمس حتى يطاق النظر إليها . فكذلك الأفعال واسطة نشاهد فيها صفات الفاعل ولا نبهر بأنوار الذات بعد أن تباعدنا عنها بواسطة الأفعال فهذا سر قوله صلى الله عليه وسلم « تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ اللهِ وَلاَ تَتَفَكَّرُوا فِي ذَاتِ اللهِ تَعَالَى »

بيان

كيفية التفكر في خلق الله تعالى

اعلم أن كل ما في الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخلقه . وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرض وصفة وموصوف ففيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته ، وجلاله وعظمته . وإحصاء ذلك غير ممكن ، لأنه لو كان البحر مدادا لذلك لنفد البحر قبل أن ينفد عشر عشيره ، ولكنا نشير إلى جمل منه ليكون ذلك كالمثال لما عداه فنقول :

الموجودات المخلوقة منقسمة إلى ما لا يعرف أصلها فلا يمكننا التفكر فيها ، وكم من الموجودات التي لا نعلمها كما قال الله تعالى (وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ [1]) (سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ [2]) وقال (وَنُنْشِئَكُمْ فِيمَا لاَ تَعْلَمُونَ [3]) وإلى ما يعرف أصلها وجملتها ولا يعرف تفصيلها ، فيمكننا أن نتفكر في تفصيلها . وهي منقسمة إلى ما أدركناه بحس البصر ، وإلى ما لا ندركه بالبصر

أما الذي لا ندركه بالبصر فكالملائكة ، والجن ، والشياطين ، والعرش ، والكرسي ، وغير ذلك ، ومجال الفكر في هذه الأشياء مما يضيق ويغمض ، فلنعدل إلى الأقرب إلى الأفهام وهي المدركات بحس البصر ، وذلك هو السموات السبع ، والأرض ، وما بينهما . فالسموات مشاهدة بكواكبها ، وشمسها ، وقمرها ، وحركتها ، ودورانها في طلوعها وغروبها . والأرض مشاهدة بما فيها من جبالها ، ومعادنها ، وأنهارها ، وبحارها ، وحيوانها ، ونباتها . وما بين السماء والأرض وهو الجو مدرك بغيومها ، وأمطارها ، وثلوجها ، ورعدها ، وبرقها ،

---

(1) النحل : ٨ (2) يس : ٣٦ (3) الواقعه : ٦١

وصواعقها ، وشهبها ، وعواصف رياحها . فهذه هي الأجناس المشاهدة من السموات والأرض ومابينهما . وكل جنس منها ينقسم إلى أنواع ، وكل نوع ينقسم إلى أقسام ، ويتشعب كل قسم إلى أصناف ، ولا نهاية لانشعاب ذلك وانقسامه في اختلاف صفاته وهيآته ومعانيه الظاهرة والباطنة . وجميع ذلك مجال الفكر فلا تتحرك ذرة في السموات والأرض من جماد، ولا نبات ،ولا حيوان، ولا فلك ، ولا كوكب ،إلا والله تعالى هو محركها ، وفي حركتها حكمة ، أوحكمتان ، أوعشر ، أوألف حكمة ، كل ذلك شاهد لله تعالى بالوحدانية ، ودال على جلاله وكبريائه ، وهي الآيات الدالة عليه

وقد ورد القرءان بالحث على التفكر في هذه الآيات ، كما قال الله تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ [١]) وكما قال تعالى (وَمِنْ آيَاتِهِ [٢]) من أول القرءان إلى آخره ، فلنذكر كيفية الفكر في بعض الآيات

فمن آياته الإنسان المخلوق من النطفة . وأقرب شيء إليك نفسك ،وفيك من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى ماتنقضي الأعمار في الوقوف على عشر عشيره ، وأنت غافل عنه فيامَن هو غافل عن نفسه وجاهل بها ، كيف تطمع في معرفة غيرك ! وقد أمرك الله تعالى بالتدبر في نفسك في كتابه العزيز فقال (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ [٣]) وذكر أنك مخلوق من نطفة قذرة فقال (قُتِلَ الإِنْسَانُ مَاأَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ [٤]) وقال تعالى (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ [٥]) وقال تعالى (أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى [٦]) وقال تعالى (أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ [٧]) وقال (أَوَ لَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ [٨]) وقال (إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ [٩]) ثم ذكر كيف جعل النطفة علقة ، والعلقة مضغة ، والمضغة عظاما فقال تعالى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً

---

(١) آل عمران : ١٩٠ (٢) الروم : ٢٥ (٣) الذاريات : ٢١ (٤) عبس : ١٧ - ٢٢ (٥) الروم : ٢٠
(٦) القيامة : ٣٧ ، ٣٨ (٧) المرسلات : ٢٠ - ٢٢ (٨) يس : ٧٧ (٩) الدهر : ٢

فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً [١]) الآية

فتكرير ذكر النطفة في الكتاب العزيز ليس ليسمع لفظه ويترك التفكر في معناه . فانظر الآن إلى النطفة وهي قطرة من الماء قذرة ، لو تركت ساعة ليضربها الهواء فسدت وأنتنت ، كيف أخرجها رب الأرباب من الصلب والترائب ، وكيف جمع بين الذكر والأنثى وألقى الألفة والمحبة في قلوبهم ، وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع ، وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه في الرحم ، ثم كيف خلق المولود من النطفة ، وسقاه بماء الحيض وغذاه حتى نما وربا وكبر ، وكيف جعل النطفة وهي بيضاء مشرقة علقة حمراء ، ثم كيف جعلها مضغة ، ثم كيف قسم أجزاء النطفة وهي متشابهة متساوية إلى العظام ، والأعصاب ، والعروق ، والأوتار واللحم ، ثم كيف ركب من اللحوم ، والأعصاب ، والعروق الأعضاء الظاهرة ، فدوّر الرأس ، وشق السمع ، والبصر ، والأنف ، والفم وسائر المنافذ ، ثم مدّ اليد والرجل وقسم رؤسها بالأصابع ، وقسم الأصابع بالأنامل ، ثم كيف ركب الأعضاء الباطنة من القلب ، والمعدة ، والكبد ، والطحال ، والرئة ، والرحم ، والمثانة ، والأمعاء ، كل واحد على شكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص ، ثم كيف قسم كل عضو من هذه الأعضاء بأقسام أخر ، فركب العين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص وهيئة مخصوصة لو فقدت طبقة منها أو زالت صفة من صفاتها تعطلت العين عن الإبصار . فلو ذهبنا إلى أن نصف ما في آحاد هذه الأعضاء من العجائب والآيات لا تقضي فيه الأعمار ، فانظر الآن إلى العظام وهي أجسام صلبة قوية كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة ، ثم جعلها قواما للبدن وعمادا له ، ثم قدرها بمقادير مختلفة وأشكال مختلفة ، فمنه صغير ، وكبير ، وطويل ، ومستدير ، ومجوف ، ومصمت ، وعريض ، ودقيق

ولما كان الإنسان محتاجا إلى الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه ، مفتقرا للتردد في حاجاته ، لم يجعل عظمه عظما واحدا ، بل عظاما كثيرة بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة وقدّر شكل كل واحدة منها على وفق الحركة المطلوبة بها ، ثم وصل مفاصلها ، وربط بعضها ببعض

---

[١] المؤمنون : ١٢ ، ١٣ ، ١٤

بأوتار أنبتها من أحد طرفي العظم ، وألصقه بالعظم الآخر كالرباط له ، ثم خلق فى أحد طرفي العظم زوائد خارجة منه ، وفى الآخر حفرا غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتنطبق عليها ، فصار العبد إن أراد تحريك جزء من بدنه لم يمتنع عليه . ولولا المفاصل لتعذر عليه ذلك . ثم انظر كيف خلق عظام الرأس وكيف جمعها وركّبها، وقد ركّبها من خمسة وخمسين عظما مختلفة الأشكال والصور ، فألّف بعضها إلى بعض بحيث استوى به كرة الرأس كما تراه ، فمنها ستة تخص القحف ، وأربعة عشر للحى الأعلى واثنان للحى الأسفل ، والبقية هي الأسنان بعضها عريضة تصلح للطحن ، وبعضها حادة تصلح للقطع ، وهي الأنياب ، والأضراس ، والثنايا . ثم جعل الرقبة مركبا للرأس ، وركّبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات ، فيها تحريفات وزيادات ونقصانات لينطبق بعضها على بعض ، ويطول ذكر وجه الحكمة فيها ، ثم ركب الرقبة على الظهر ، وركب الظهر من أسفل الرقبة إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة ، وركب عظم العجز من ثلاثة أجزاء مختلفة ، فيتصل به من أسفله عظم العصعص وهو أيضا مؤلف من ثلاثة أجزاء ، ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر ، وعظام الكتف ، وعظام اليدين وعظام العانة ، وعظام العجز ، وعظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين ، فلا نطوّل بذكر عدد ذلك ومجموع عدد العظام فى بدن الإنسان مائتا عظم وثمانية وأربعون عظما ، سوى العظام الصغيرة التى حشي بها خلل المفاصل . فانظر كيف خلق جميع ذلك من نطفة سخيفة رقيقة . وليس المقصود من ذكر أعداد العظام أن يعرف عددها ، فإن هذا علم قريب يعرفه الأطباء والمشرحون، وإنما الغرض أن ينظر منها فى مدبرها وخالقها أنه كيف قدّرها ودبرها ، وخالف بين أشكالها وأقدارها ، وخصّصها بهذا العدد المخصوص ، لأنه لو زاد عليها واحدا لكان وبالا على الإنسان يحتاج إلى قلعه ، ولو نقص منها واحدا لكان نقصانا يحتاج إلى جبره . فالطبيب ينظر فيها ليعرف وجه العلاج فى جبرها . وأهل البصائر ينظرون فيها ليستدلوا بها على جلالة خالقها ومصوّرها . فشتان بين النظرين

ثم انظر كيف خلق الله تعالى آلات لتحريك العظام وهي العضلات ، فخلق فى بدن

الإنسان خمسمائة عضلة وتسعا وعشرين عضلة ، والعضلة مركبة من لحم ، وعصب ، ورباط وأغشية ، وهي مختلفة المقادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وقدر حاجاتها ، فأربع وعشرون عضلة منها هي لتحريك حدقة العين وأجفانها ، لو نقصت واحدة من جملتها اختل أمر العين . وهكذا لكل عضو عضلات بعدد مخصوص وقدر مخصوص

وأمر الأعصاب ، والعروق ، والأوردة ، والشرايين ، وعددها ،ومنابتها ،وانشعاباتها أعجب من هذا كله ، وشرحه يطول ، فللفكر مجال فى آحاد هذه الأجزاء ، ثم فى آحاد هذه الأعضاء ، ثم فى جملة البدن

فكل ذلك نظر إلى عجائب أجسام البدن . وعجائب المعانى والصفات التى لاتدرك بالحواس أعظم . فانظر الآن إلى ظاهر الإنسان وباطنه ، وإلى بدنه وصفاته ، فترى به من العجائب والصنعة مايقضى به العجب : وكل ذلك صنع الله فى قطرة ماء قذرة . فترى من هذا صنعه فى قطرة ماء ، فما صنعه فى ملكوت السموات وكواكبها ؟ وما حكمته فى أوضاعها ، وأشكالها ، ومقاديرها ، وأعدادها ، واجتماع بعضها وتفرق بعضها واختلاف صورها ، وتفاوت مشارقها ومغاربها ؟ فلا تظنن أن ذرة من ملكوت السموات تنفك عن حكمة وحكم ، بل هى أحكم خلقا ، وأتقن صنعا ، وأجمع للعجائب من بدن الإنسان . بل لانسبة لجميع ما فى الأرض إلى عجائب السموات .ولذلك قال تعالى : (أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا [١])

فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولا ، وماصارت إليه ثانيا ، وتأمل أنه لو اجتمع الجن والإنس على أن يخلقوا للنطفة سمعا ، أو بصرا ، أوعقلا ، أو قدرة ، أو علما ، أو روحا أو يخلقوا فيها عظما ، أو عرقا ، أو عصبا ، أو جلدا ، أو شعرا ، هل يقدرون على ذلك ؟ بل لو أرادوا أن يعرفوا كنه حقيقته ، وكيفية خلقته بعد أن خلق الله تعالى ذلك لعجزوا عنه

فالعجب منك لو نظرت إلى صورة إنسان مصور على حائط تأنق النقاش فى تصويرها حتى قرب ذلك من صورة الإنسان ، وقال الناظر إليها : كأنه إنسان ، عظم تعجبك

(١) النازعات : ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩

من صنعة النقاش وحذقه ، وخفة يده ، وتمام فطنته ، وعظم فى قلبك محله ، مع أنك تعلم أن تلك الصورة إنما تمت بالصبغ ، والقلم ؛ واليد ، وبالحائط ، وبالقدرة ، وبالعلم ، وبالإرادة ، وشيء من ذلك ليس من فعل النقاش ولا خلقه ، بل هو من خلق غيره ، وإنما منتهى فعله الجمع بين الصبغ والحائط على ترتيب مخصوص ، فيكثر تعجبك منه وتستعظمه ، وأنت ترى النطفة القذرة كانت معدومة ، فخلقها خالقها فى الأصلاب والترائب . ثم أخرجها منها وشكلها فأحسن تشكيلها ، وقدرها فأحسن تقديرها وتصويرها ، وقسم أجزاءها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة ، فأحكم العظام فى أرجائها ؛ وحسن أشكال أعضائها ، وزين ظاهرها وباطنها ، ورتب عروقها وأعصابها ، وجعلها مجرى لغذائها ليكون ذلك سبب بقائها ، وجعلها سميعة ، بصيرة ، عالمة ، ناطقة ، وخلق لها الظهر أساسا لبدنها ، والبطن حاويا لآلات غذائها ، والرأس جامعا لحواسها

ففتح العينين ورتب طبقاتها ، وأحسن شكلها ولونها وهيآتها ، ثم حماها بالأجفان لتسترها ، وتحفظها ، وتصقلها ، وتدفع الأقذاء عنها ، ثم أظهر فى مقدار عدسة منها صورة السموات مع اتساع أكنافها وتباعد أقطارها ، فهو ينظر إليها

ثم شق أذنيه وأودعهما ماء مرا ليحفظ سمعها ، ويدفع الهوام عنها ، وحوطها بصدفة الأذن لتجمع الصوت فترده إلى صماخها ، ولتحس بدبيب الهوام إليها ، وجعل فيها تحريفات واعوجاجات لتكثر حركة ما يدب فيها ، ويطول طريقه ، فينتبه من النوم صاحبها إذا قصدها دابة فى حال النوم . ثم رفع الأنف من وسط الوجه ، وأحسن شكله ، وفتح منخريه ، وأودع فيه حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروايح على مطاعمه وأغذيته ، وليستنشق بمنفذ المنخرين روح الهواء ، غذاء لقلبه ، وترويحا لحرارة باطنه

وفتح الفم وأودعه اللسان ناطقا وترجمانا ومعربا عما فى القلب ، وزين الفم بالأسنان لتكون آلة الطحن والكسر والقطع ، فأحكم أصولها ، وحدد رؤسها ، وبيض لونها ، ورتب صفوفها ، متساوية الرءوس ، متناسقة الترتيب كأنها الدر المنظوم

وخلق الشفتين وحسن لونها وشكلها لتنطبق على الفم فتسد منفذه ، وليتم بها حروف الكلام ، وخلق الحنجرة وهيأها لخروج الصوت ، وخلق للسان قدرة للحركات

والتقطيعات ، لتقطع الصوت فى مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ، ليتسع بها طريق النطق بكثرتها ، ثم خلق الحناجر مختلفة الأشكال فى الضيق ، والسعة ، والخشونة ، والملاسة ، وصلابة الجوهر ورخاوته ، والطول ، والقصر ، حتى اختلفت بسببها الأصوات فلا يتشابه صوتان ، بل يظهر بين كل صوتين فرقان حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت فى الظلمة ،

ثم زين الرأس بالشعر والأصداغ ، وزين الوجه باللحية والحاجبين ، وزين الحاجب برقة الشعر واستقواس الشكل ، وزين العينين بالأهداب

ثم خلق الأعضاء الباطنة ، وسخر كل واحد لفعل مخصوص ، فسخر المعدة لنضج الغذاء ، والكبد لإحالة الغذاء إلى الدم ، والطحال والمرارة والكِلْية لخدمة الكبد ، فالطحال يخدمها بجذب السوداء عنها ، والمرارة تخدمها بجذب الصفراء عنها ، والكِلية تخدمها بجذب المائية عنها ، والمثانة تخدم الكلية بقبول الماء عنها ، ثم تخرجه فى طريق الإحليل ، والعروق تخدم الكبد فى إيصال الدم إلى سائر أطراف البدن

ثم خلق اليدين وطولهما لتمتد إلى المقاصد ، وعرّض الكف ، وقسّم الأصابع الخمس ، وقسّم كل أصبع بثلاث أنامل ، ووضع الأربعة فى جانب والإبهام فى جانب لتدور الإبهام على الجميع ، ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق الفكر وجها آخر فى وضع الأصابع سوى ما وضعت عليه من بعد الإبهام عن الأربع ، وتفاوت الأربع فى الطول وترتيبها فى صف واحد لم يقدروا عليه ، إذ بهذا الترتيب صلحت اليد للقبض والإعطاء ، فإن بسطها كانت له طبقا يضع عليها ما يريد ، وإن جمعها كانت له آلة للضرب ، وإن ضمها ضما غير تام كانت مغرفة له ، وإن بسطها وضم أصابعها كانت مجرفة له ؛ ثم خلق الأظفار على رؤسها زينة للأنامل ؛ وعمادا لها من ورائها حتى لاتنقطع ، وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التى لاتتناولها الأنامل ، وليحك بها بدنه عند الحاجة . فالظفر الذى هو أخس الأعضاء لو عدمه الإنسان وظهر به حكة لكان أعجز الخلق وأضعفهم . ولم يقم أحد مقامه فى حك بدنه . ثم هدى اليد إلى موضع الحك حتى تمتد إليه ولو فى النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب ، ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك إلا بعد تعب طويل

ثم خلق هذا كله من النطفة وهي فى داخل الرحم فى ظلمات ثلاث ، ولو كشف الغطاء والغشاء وامتد البصر إليه لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها شيئا فشيئا ، ولا يرى المصور ولا آلته ، فهل رأيت مصورا أو فاعلا لايمس آلته ومصنوعه ولا يلاقيه ، وهو يتصرف فيه ، فسبحانه ما أعظم شأنه وأظهر برهانه

ثم انظر مع كمال قدرته إلى تمام رحمته ، فإنه لما ضاق الرحم عن الصبي لما كبر ، كيف هداه السبيل حتى تنكس ، وتحرك ، وخرج من ذلك المضيق ، وطلب المنفذ كأنه عاقل بصير بما يحتاج إليه ، ثم لما خرج واحتاج إلى الغذاء كيف هداه إلى التقام الثدي ، ثم لما كان بدنه سخيفا لايحتمل الأغذية الكثيفة كيف دبر له فى خلق اللبن اللطيف ، واستخرجه من بين الفرث والدم سائغا خالصا ، وكيف خلق الثديين وجمع فيهما اللبن وأنبت منهما حلمتين على قدر ماينطبق عليهما فم الصبي ، ثم فتح فى حلمة الثدي ثقبا ضيقا جدًّا حتى لايخرج اللبن منه إلا بعد المص تدريجا فإن الطفل لايطيق منه إلا القليل ثم كيف هداه للامتصاص حتى يستخرج من ذلك المضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع

ثم أنظر إلى عطفه ورحمته ورأفته كيف أخر خلق الأسنان إلى تمام الحولين ، لأنه فى الحولين لايتغذى إلا باللبن فيستغنى عن السن ، وإذا كبر لم يوافقه اللبن السخيف ويحتاج إلى طعام غليظ ، ويحتاج الطعام إلى المضغ والطحن ، فأنبت له الأسنان عند الحاجة لاقبلها ولا بعدها ، فسبحانه كيف أخرج تلك العظام الصلبة فى تلك اللثات اللينة

ثم حنن قلوب الوالدين عليه للقيام بتدبيره فى الوقت الذى كان عاجزا عن تدبير نفسه فلو لم يسلط الله الرحمة على قلوبهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه

ثم انظر كيف رزقه القدرة ، والتمييز ، والعقل ، والهداية تدريجا حتى بلغ وتكامل فصار مراهقا ، ثم شابا ، ثم كهلا ، ثم شيخا ، إما كفورا أو شكورا ، مطيعا أو عاصيا مؤمنا أو كافرا ، تصديقا لقوله تعالى (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا [1]) فانظر إلى اللطف والكرم ، ثم إلى

---

(1) الدهر : ١ ، ٢ ، ٣

القدرة والحكمة تبهرك عجائب الحضرة الربانية

والعجب كل العجب ممن يرى خطًا حسنا ، أو نقشا حسنا على حائط فيستحسنه ، فيصرف جميع همه إلى التفكر فى النقاش والخطاط ، وأنه كيف نقشه وخطه وكيف اقتدر عليه ، ولا يزال يستعظمه فى نفسه ويقول ما أحذقه ، وما أكمل صنعته وأحسن قدرته . ثم ينظر إلى هذه العجائب فى نفسه وفى غيره ، ثم يغفل عن صانعه ومصوره ، فلا تدهشه عظمته ، ولا يحيره جلاله وحكمته . فهذه نبذة من عجائب بدنك التى لا يمكن استقصاؤها ، فهو أقرب مجال لفكرك ، وأجلى شاهد على عظمة خالقك ، وأنت غافل عن ذلك ، مشغول ببطنك وفرجك ، لا تعرف من نفسك إلا أن تجوع فتأكل ، وتشبع فتنام ، وتشتهي فتجامع ، وتغضب فتقاتل ، والبهائم كلها تشاركك فى معرفة ذلك وإنما خاصية الإنسان التى حجبت البهائم عنها معرفة الله تعالى بالنظر فى ملكوت السموات والأرض ، وعجائب الآفاق والأنفس ، إذ بها يدخل العبد فى زمرة الملائكة المقربين ويحشر فى زمرة النبيين والصديقين مقربا من حضرة رب العالمين . وليست هذه المنزلة للبهائم ، ولا لإنسان رضي من الدنيا بشهوات البهائم ، فإنه شر من البهائم بكثير إذ لا قدرة للبهيمة على ذلك ، وأما هو فقد خلق الله له القدرة ثم عطلها ، وكفر نعمة الله فيها ، فأولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلا

وإذا عرفت طريق الفكر فى نفسك فتفكر فى الأرض التى هي مقرك ، ثم فى أنهارها ، وبحارها ، وجبالها ، ومعادنها ، ثم ارتفع منها إلى ملكوت السموات

أما الأرض فمن آياته أن خلق الأرض فراشا ومهادا ، وسلك فيها سبلا فجاجا ، وجعلها ذلولا لتمشوا فى مناكبها ، وجعلها قارة لا تتحرك ، وأرسى فيها الجبال أوتادا لها تمنعها من أن تميد ، ثم وسع أكنافها حتى عجز الآدميون عن بلوغ جميع جوانبها وإن طالت أعمارهم وكثر تطوافهم ، فقال تعالى (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ [1]) وقال تعالى (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا [2]) وقال تعالى (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا [3])

---

(١) الذاريات : ٤٧ ، ٤٨ (٢) الملك : ١٥ (٣) البقرة : ٢٢

وقد أكثر فى كتابه العزيز من ذكر الأرض ليتفكر فى عجائبها . فظهرها مقر للأحياء، وبطنها مرقد للأموات قال تعالى(أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا[1])

فانظر إلى الأرض وهي ميتة ، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت ، واخضرت وأنبتت عجائب النبات ، وخرجت منها أصناف الحيوانات

ثم انظر كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الراسيات ، الشوامخ الصم الصلاب ، وكيف أودع المياه تحتها ، ففجر العيون وأسال الأنهار تجرى على وجهها ، وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقا ، عذبا ، صافيا ، زلالا ، وجعل به كل شيء حي ، فأخرج به فنون الأشجار والنبات ، من حب ، وعنب ، وقضب ، وزيتون ، ونخل ورمان ، وفواكه كثيرة لاتحصى ، مختلفة الأشكال ، والألوان ، والطعوم ، والصفات ، والأراييح ، يفضل بعضها على بعض فى الأكل ، تسقى بماء واحد، وتخرج من أرض واحدة

فإن قلت : إن اختلافها باختلاف بذورها وأصولها، فمتى كان فى النواة نخلة مطوقة بعناقيد الرطب ؟ ومتى كان فى حبة واحدة سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ؟

ثم انظر إلى أرض البوادى وفتش ظاهرها وباطنها ، فتراها ترابا متشابها ، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ألوانا مختلفة ، ونباتا متشابها وغير متشابه ، لكل واحد طعم ، وريح ، ولون ، وشكل يخالف الآخر ، فانظر إلى كثرتها واختلاف أصنافها ، وكثرة أشكالها ، ثم اختلاف طبائع النبات وكثرة منافعه ، وكيف أودع الله تعالى العقاقير المنافع الغريبة ، فهذا النبات يغذى ، وهذا يقوى ، وهذا يحيي ، وهذا يقتل ، وهذا يبرد ، وهذا يسخن ، وهذا إذا حصل فى المعدة قمع الصفراء من أعماق العروق ، وهذا يستحيل إلى الصفراء ، وهذا يقمع البلغم والسوداء ، وهذا يستحيل إليهما وهذا يصفى الدم ، وهذا يستحيل دما ، وهذا يفرح ، وهذا ينوّم ، وهذا يقوى ، وهذا يضعف ، فلم تنبت من الأرض ورقة ولا تبنة إلا وفيها منافع لايقوى البشر على الوقوف على كنهها ، وكل واحد من هذا النبات يحتاج الفلاح فى تربيته إلى عمل مخصوص ،فالنخل تؤبر ، والكرم يكسح ، والزرع ينقى عنه الحشيش والدغل ، وبعض ذلك يستنبت ببث

(١) المرسلات : ٢٥

البذر فى الارض ، وبعضه بغرس الأغصان ، وبعضه يركب فى الشجر ولو أردناأن نذكر اختلاف أجناس النبات ، وأنواعه ، ومنافعه ، وأحواله وعجائبه ، لانقضت الأيام فى وصف ذلك ، فيكفيك من كل جنس نبذة يسيرة تدلك على طريق الفكر فهذه عجائب النبات

ومن آياته الجواهر المودعة تحت الجبال ، والمعادن الحاصلة من الأرض ففى الأرض قطع متجاورات مختلفة ، فانظر إلى الجبال كيف يخرج منها الجواهر النفيسة من الذهب والفضة ، والفيروزج ، واللعل وغيرها ، بعضها منطبعة تحت المطارق كالذهب ، والفضة ، والنحاس ، والرصاص ، والحديد ، وبعضها لاينطبع كالفيروزج واللعل ، وكيف هدى الله الناس إلى استخراجها وتنقيتها ، واتخاذ الأوانى والآلات والنقود والحلي منها

ثم انظر إلى معادن الأرض من النفط ، والكبريت ، والقار ، وغيرها ، وأقلها الملح ولا يحتاج إليه إلا لتطييب الطعام ، ولو خلت عنه بلدة لتسارع الهلاك إليها ، فانظر إلى رحمة الله تعالى كيف خلق بعض الأراضى سبخة بجوهرها ، بحيث يجتمع فيها الماء الصافى من المطر فيستحيل ملحا مالحا محرقا لايمكن تناول مثقال منه ، ليكون ذلك تطييبا لطعامك إذا أكلته فيتهنأ عيشك

وما من جماد ، ولاحيوان ، ولانبات ، إلا وفيه حكمة وحكم من هذا الجنس ، ماخلق شيء منها عبثا ، ولالعبا ، ولاهزلا ، بل خلق الكل بالحق كماينبغى ، وعلى الوجه الذى ينبغى ، وكمايليق بجلاله وكرمه ولطفه . ولذلك قال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ [1])

ومن آياته أصناف الحيوانات وانقسامها إلى مايطير وإلى مايمشى ، وانقسام مايمشى إلى مايمشى على رجلين ، وإلى مايمشى على أربع ، وعلى عشر وعلى مائة ، كمايشاهد فى بعض الحشرات ، ثم انقسامها فى المنافع ، والصور ، والأشكال ، والأخلاق ، والطباع ، فانظر إلى طيور الجو ، وإلى وحوش البر والبهائم الأهلية ، ترى فيها من العجائب مالا تشك معه فى عظمة خالقها ، وقدرة مقدرها ، وحكمة مصورها ، وكيف يمكن أن يستقصى ذلك ! بل لو أردنا أن نذكر عجائب البقة ، أو النملة ، أو النحلة ، أو العنكبوت ، وهي من صغار الحيوانات

---

(١) الدخان : ٣٨ ، ٣٩

فى بنائها بيتها ، وفى جمعها غذاءها ، وفى إلفها لزوجها .وفى ادخارها لنفسها وفى حذقها فى هندسة بيتها ، وفى ،هدايتها إلى حاجاتها لم تقدر على ذلك

فترى العنكبوت يبنى بيته على طرف نهر ، فيطلب أولا موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع فمادونه ، حتى يمكنه أن يصل بالخيط بين طرفيه ، ثم يبتدىء ويلقى اللعاب الذى هو خيطه على جانب ليلتصق به ، ثم يغدو إلى الجانب الآخر فيحكم الطرف الآخر من الخيط،ثم كذلك يتردد ثانيا وثالثا،ويجعل بُعد مابينهما متناسبا تناسباهندسيا،حتى إذا أحكم معاقد القمط ، ورتّب الخيوط كالسّدى ، اشتغل باللحمة ، فيضع اللحمة على السّدى ويضيف بعضه إلى بعض ، ويحكم العقد على موضع التقاء اللحمة بالسدى، ويراعى فى جميع ذلك تناسب الهندسة ، ويجعل ذلك شبكة يقع فيها البق والذباب ، ويقعد فى زاوية مترصدا لوقوع الصيد فى الشبكة ، فإذا وقع الصيد بادر إلى أخذه وأكله ، فإن عجز عن الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط ، ووصل بين طرفي الزاوية بخيط ، ثم علق نفسه فيها بخيط آخر ، وبقى منكسا فى الهواء ينتظر ذبابة تطير ، فإذا طارت رمى بنفسه إليه فأخذه، ولف خيطه على رجليه وأحكمه ثم أكله

وما من حيوان صغير ولا كبير إلا وفيه من العجائب مالا يحصى . أفترى أنه تعلم هذه الصنعة من نفسه؟ أو تكوّن بنفسه ؟ أوكوّنه آدمي أو علمه ؟ أولاهادي له ولامعلم ؟ أفيشك ذو بصيرة فى أنه مسكين ، ضعيف ، عاجز ، بل الفيل ، العظيمُ شخصه ، الظاهرة قوته ، عاجز عن أمر نفسه ، فكيف هــذا الحيوان الضعيف؟ أفلا يشهد هو بشكله ، وصورته ، وحركته ، وهدايته ، وعجائب صنعته لفاطره الحكيم ، وخالقه القادر العليم ؟ فالبصير يرى فى هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق المدبر ، وجلاله ، وكمال قدرته وحكمته ماتتحيّر فيه الألباب والعقول فضلا عن سائر الحيوانات

وهذا الباب أيضا لاحصر له فإن الحيوانات ، وأشكالها ، وأخلاقها ، وطباعها غير محصورة ، وإنما سقط تعجب القلوب منها لأنسها بكثرة المشاهد . نعم إذا رأى حيوانا غريبا ولو دودا تجدد تعجبه ، وقال :سبحان الله ما أعجبه ، والإنسان أعجب الحيوانات

وليس يتعجب من نفسه . بل لو نظر إلى الأنعام التي ألفها ، ونظر إلى أشكالها وصورها ، ثم إلى منافعها وفوائدها من جلودها ، وأصوافها ، وأوبارها ، وأشعارها ، التي جعلها الله لباسا لخلقه ، وأكنانا لهم في ظعنهم وإقامتهم ، وآنية لأشربتهم ، وأوعية لأغذيتهم ، وصوانا لأقدامهم ، وجعل ألبانها ولحومها أغذية لهم ، ثم جعل بعضها زينة للركوب ، وبعضها حاملة للأثقال قاطعة للبوادي والمفازات البعيدة . لأكثر الناظر التعجب من حكمة خالقها ومصورها ، فإنه ما خلقها إلا بعلم محيط بجميع منافعها ، سابق على خلقه إياها ، فسبحان مَن الأمور مكشوفة في علمه من غير تفكر ، ومن غير تأمل وتدبر ، ومن غير استعانة بوزير أو مشير ، فهو العليم الخبير ، الحكيم القدير ، فلقد استخرج بأقل القليل مما خلقه صدق الشهادة من قلوب العارفين بتوحيده ، فما للخلق إلا الإذعان لقهره وقدرته والاعتراف بربوبيته ، والإقرار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته ، فمن ذا الذي يحصى ثناء عليه ؟ بل هو كما أثنى على نفسه . وإنما غاية معرفتنا الاعتراف بالعجز عن معرفته ، فنسأل الله تعالى أن يكرمنا بهدايته بمنه ورأفته

ومن آياته البحار العميقة المكتنفة لأقطار الأرض التي هي قطع من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض ، حتى أن جميع المكشوف من البوادي والجبال من الماء بالإضافة إلى الماء كجزيرة صغيرة في بحر عظيم ، وبقية الأرض مستورة بالماء ، قال النبي صلى الله عليه وسلم (١) « الأَرْضُ فِي الْبَحْرِ كَالإِسْطَبْلِ فِي الأَرْضِ » فانسب اصطبلا إلى جميع الأرض واعلم أن الأرض بالإضافة إلى البحر مثله . وقد شاهدت عجائب الأرض وما فيها ، فتأمل الآن عجائب البحر ، فإن عجائب ما فيه من الحيوان والجواهر أضعاف عجائب ما تشاهده على وجه الأرض ، كما أن سعته أضعاف سعة الأرض

ولعظم البحر كان فيه من الحيوانات العظام ما ترى ظهورها في البحر فتظن أنها جزيرة ، فينزل الركاب عليها ، فربما تحس بالنيران إذا اشتعلت فتتحرك ويعلم أنها حيوان وما من صنف من أصناف حيوان البر من فرس . أو طير ، أو بقر ، أو إنسان ، إلا وفي البحر أمثاله وأضعافه وفيه أجناس لا يعهد لها نظير في البر ، وقد ذكرت أوصافها

(١) حديث الأرض في البحر كالاسطبل في الارض: تقدم ولم أجده

فى مجلدات ، وجمعها أقوام عنوا بركوب البحر وجمع عجائبه

ثم انظر كيف خلق الله اللؤلؤ وذوره فى صدفه تحت الماء ، وانظر كيف أنبت المرجان من صم الصخور تحت الماء ، وإنما هو نبات على هيئة شجر ينبت من الحجر

ثم تأمل ما عداه من العنبر وأصناف النفائس التى يقذفها البحر وتستخرج منه

ثم أنظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء ، وسير فيها التجار وطلاب الأموال وغيرهم ، وسخر لهم الفلك لتحمل أثقالهم ، ثم أرسل الرياح لتسوق السفن ، ثم عرف الملاحين موارد الرياح ، ومهابها ومواقيتها

ولا يستقصى على الجملة عجائب صنع الله فى البحر فى مجلدات . وأعجب من ذلك كله ماهو أظهر من كل ظاهر ، وهو كيفية قطرة الماء ، وهو جسم رقيق ، لطيف ، سيال مشف ، متصل الأجزاء كأنه شيء واحد ، لطيف التركيب ، سريع القبول للتقطيع كأنه منفصل ، مسخر للتصرف ، قابل للانفصال والاتصال ، به حياة كل ما على وجه الأرض من حيوان ونبات ، فلو احتاج العبد إلى شربة ماء ومنع منها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا فى تحصيلها لو ملك ذلك . ثم لو شربها ومنع من إخراجها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا فى إخراجها . فالعجب من الآدمي كيف يستعظم الدينار والدرهم ونفائس الجواهر ، ويغفل عن نعمة الله فى شربة ماء إذا احتاج إلى شربها أو الاستفراغ عنها بذل جميع الدنيا فيها . فتأمل فى عجائب المياه والأنهار ، والآبار والبحار ، ففيها متسع للفكر ومجال : وكل ذلك شواهد متظاهرة ، وآيات متناصرة ، ناطقة بلسان حالها ، مفصحة عن جلال بارئها ، معربة عن كمال حكمته فيها ، منادية أرباب القلوب بنغماتها ، قائلة لكل ذى لب أما ترانى وترى صورتى ، وتركيبى ، وصفاتى ، ومنافعى ، واختلاف حالاتى ، وكثرة فوائدى ؟ أتظن أنى كونت نفسى ! أو خلقنى أحد من جنسى؟ أوما تستحي أن تنظر فى كلمة مرقومة من ثلاثة أحرف ، فتقطع بأنها من صنعة آدمي عالم ، قادر ، مريد ، متكلم ، ثم تنظر إلى عجائب الخطوط الإلهية المرقومة على صفحات وجهى ، بالقلم الإلهي الذى لاتدرك الأبصار ذاته ولاحركته ولا اتصاله بمحل الخط ، ثم ينفك قلبك عن جلالة صانعه ؟

وتقول النطفة لأرباب السمع والقلب ، لا للذين هم عن السمع معزولون ، توهمنى فى ظلمة الأحشاء مغموسة فى دم الحيض ، فى الوقت الذى يظهر التخطيط والتصوير على وجهى فينقش النقاش حدقتى ، وأجفانى وجبهتى ، وخدى ، وشفتى ، فترى التقويس يظهر شيئا فشيئا على التدريج ، ولا ترى داخل النطفة نقاشا ولا خارجها ، ولا داخل الرحم ولا خارجه ، ولا خبر منها للأم ، ولا للأب ، ولا للنطفة ، ولا للرحم ، أفما هذا النقّاش بأعجب مما تشاهده ينقش بالقلم صورة عجيبة ، لو نظرت إليها مرة أو مرتين لعلمته ؟ فهل تقدر على أن تتعلم هذا الجنس من النقش والتصوير الذى يعم ظاهر النطفة ، وباطنها ، وجميع أجزائها ، من غير ملامسة للنطفة ، ومن غير اتصال بها لا من داخل ولا من خارج ؟ فإن كنت لا تتعجب من هذه العجائب ، ولا تفهم بها أن الذى صور ونقش وقدر لا نظير له ، ولا يساويه نقاش ولا مصور ، كما أن نقشه وصنعه لا يساويه نقش وصنع ، فبين الفاعلين من المباينة والتباعد ما بين الفعلين ؛ فإن كنت لا تتعجب من هذا فتعجب من عدم تعجبك ، فإنه أعجب من كل عجب ، فإن الذى أعمى بصيرتك مع هذا الوضوح ، ومنعك من التبيين مع هذا البيان ، جدير بأن تتعجب منه : فسبحان من هدى وأضل ، وأغوى وأرشد ، وأشقى وأسعد ، وفتح بصائر أحبابه فشاهدوه فى جميع ذرات العالم وأجزائه ، وأعمى قلوب أعدائه واحتجب عنهم بعزه وعلائه ؛ فله الخلق والأمر ، والامتنان والفضل ، واللطف والقهر ، لا رادّ لحكمه ، ولا معقب لقضائه

ومن آياته الهواء اللطيف المحبوس بين مقعر السماء ومحدب الأرض ، لا يدرك بحس اللمس عند هبوب الرياح جسمه ، ولا يرى بالعين شخصه : وجملته مثل البحر الواحد ، والطيور محلقة فى جو السماء ومستبقة ، سباحة فيه بأجنحتها كما تسبح حيوانات البحر فى الماء ، وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هبوب الرياح كما تضطرب أمواج البحر . فإذا حرك الله الهواء وجعله ريحا هابّة ، فإن شاء جعله بشرا بين يدي رحمته ، كما قال سبحانه (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ [1]) فيصل بحركته روح الهواء إلى الحيوانات والنباتات ، فتستعد للنماء ، وإن شاء جعله عذابا على العصاة من خليقته ، كما قال تعالى

(1) الحجر : ٢٢

(إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ[1]) ثم انظر إلى لطف الهواء ، ثم شدته وقوته مهما ضغط فى الماء ، فالزق المنفوخ يتحامل عليه الرجل القوي ليغمسه فى الماء فيعجز عنه ، والحديد الصلب تضعه على وجه الماء فيرسب فيه . فانظر كيف ينقبض الهواء من الماء بقوته مع لطافته وبهذه الحكمة أمسك الله تعالى السفن على وجه الماء ، وكذلك كل مجوف فيه هواء لا يغوص فى الماء لأن الهواء ينقبض عن الغوص فى الماء فلا ينفصل عن السطح الداخل من السفينة ؛ فتبقى السفينة الثقيلة مع قوتها وصلابتها معلقة فى الهواء اللطيف ، كالذى يقع فى بئر فيتعلق بذيل رجل قوي ممتنع عن الهوي فى البئر . فالسفينة بقعرها تتشبث بأذيال الهواء القوي حتى تمتنع من الهويّ والغوص فى الماء . فسبحان من علق المركب الثقيل فى الهواء اللطيف من غير علاقة تشاهد ، وعقدة تشد

ثم انظر إلى عجائب الجو وما يظهر فيه من الغيوم ، والرعود والبروق ، والأمطار ، والثلوج ، والشهب ، والصواعق ، فهي عجائب ما بين السماء والأرض ، وقد أشار القرآن إلى جملة ذلك فى قوله تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ[2]) وهذا هو الذى بينهما ، وأشار إلى تفصيله فى مواضع شتى حيث قال تعالى : (وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ[3]) وحيث تعرض للرعد ، والبرق ، والسحاب ، والمطر ؛ فإذا لم يكن لك حظ من هذه الجملة إلا أن ترى المطر بعينك ، وتسمع الرعد بأذنك ؛ فالبهيمة تشاركك فى هذه المعرفة . فارتفع من حضيض عالم البهائم إلى عالم الملأ الأعلى ، فقد فتحت عينيك فأدركت ظاهرها ، فغمض عينك الظاهرة وانظر ببصيرتك الباطنة لترى عجائب باطنها وغرائب أسرارها

وهذا أيضا باب يطول الفكر فيه ، إذ لا مطمع فى استقصائه ، فتأمل السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع فى جو صاف لا كدورة فيه ، وكيف يخلقه الله تعالى إذا شاء ومتى شاء ، وهو مع رخاوته حامل للماء الثقيل ، وممسك له فى جو السماء ، إلى أن يأذن الله فى إرسال الماء ، وتقطيع القطرات كل قطرة بالقدر الذى أراده الله تعالى ،

---

(١) القمر : ١٩ ، ٢٠ (٢) الدخان ، ٣٨ (٣) البقرة : ١٦٤

وعلى الشكل الذى شاءه ، فترى السحاب يرش الماء على الأرض ، ويرسله قطرات متفاصلة لا تدرك قطرة منها قطرة ، ولا تتصل واحدة بأخرى ، بل تنزل كل واحدة فى الطريق الذى رسم لها لا تعدل عنه ، فلا يتقدم المتأخر ، ولا يتأخر المتقدم ، حتى يصيب الأرض قطرة قطرة . فلو اجتمع الأولون والآخرون على أن يخلقوا منها قطرة ، أو يعرفوا عدد ما ينزل منها فى بلدة واحدة ، أو قرية واحدة ، لعجز حساب الجن والإنس عن ذلك . فلا يعلم عددها إلا الذى أوجدها . ثم كل قطرة منها عينت لكل جزء من الأرض ، ولكل حيوان فيها من طير ، ووحش ، وجميع الحشرات ، والدواب ، مكتوب على تلك القطرة بخط إلٰهى لا يدرك بالبصر الظاهر أنها رزق الدودة الفلانية ، التى فى ناحية الجبل الفلانى ، تصل إليها عند عطشها فى الوقت الفلانى . هذا مع ما فى انعقاد البرَد الصلب من الماء اللطيف وفى تناثر الثلوج كالقطن المندوف من العجائب التى لا تحصى .

كل ذلك فضل من الجبار القادر ، وقهر من الخلاق القاهر ، ما لأحد من الخلق فيه شرك ولا مدخل ، بل ليس للمؤمنين من خلقه إلا الاستكانة والخضوع تحت جلاله وعظمته ، ولا للعميان الجاحدين إلا الجهل بكيفيته ، ورجم الظنون بذكر سببه وعلته . فيقول الجاهل المغرور : إنما ينزل الماء لأنه ثقيل بطبعه ، وإنما هذا سبب نزوله . ويظن أن هذه معرفة انكشفت له ، ويفرح بها . ولو قيل له ما معنى الطبع ؟ وما الذى خلقه ؟ ومن الذى خلق الماء الذى طبعه الثقل ؟ وما الذى رقى الماء المصبوب فى أسافل الشجر إلى أعالى الأغصان وهو ثقيل بطبعه ؟ فكيف هوى إلى أسفل ثم ارتفع إلى فوق فى داخل تجاويف الأشجار شيئا فشيئا ، بحيث لا يرى ولا يشاهد حتى ينتشر فى جميع أطراف الأوراق ، فيغذى كل جزء من كل ورقة ، ويجرى إليها فى تجاويف عروق شعرية صغار ، يروى منه العرق الذى هو أصل الورقة ، ثم ينتشر من ذلك العرق الكبير الممدود فى طول الورقة عروق صغار ، فكأن الكبير نهر ، وما انشعب عنه جداول ، ثم ينشعب من الجداول سواق أصغر منها ، ثم ينتشر منها خيوط عنكبوتية دقيقة تخرج عن إدراك البصر حتى تنبسط فى جميع عرض الورقة ، فيصل الماء فى أجوافها إلى سائر أجزاء الورقة ليغذيها وينميها ، ويزينها ، وتبقى طراوتها ونضارتها ، وكذلك إلى سائر أجزاء الفواكه .

فإن كان الماء يتحرك بطبعه إلى أسفل ، فكيف تحرك إلى فوق ؟ فإن كان ذلك بجذب جاذب فما الذى سخر ذلك الجاذب ؟ وإن كان ينتهى بالآخرة إلى خالق السموات والأرض ، وجبار الملك والملكوت ، فلم لايحال عليه من أول الأمر ؟ فنهاية الجاهل بداية العاقل

ومن آياته ملكوت السموات والأرض وما فيها من الكواكب ، وهو الأمر كله ومن أدرك الكل وفاته عجائب السموات فقد فاته الكل تحقيقا . فالأرض ، والبحار ، والهواء ، وكل جسم سوى السموات بالإضافة إلى السموات قطرة فى بحر وأصغر . ثم انظر كيف عظم الله أمر السموات والنجوم فى كتابه ، فما من سورة إلا وتشتمل على تفخيمها فى مواضع . وكم من قسم فى القرءان بها ، كقوله تعالى (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ [١]) (وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ [٢]) (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ [٣]) (وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا [٤]) وكقوله تعالى (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا [٥]) وكقوله تعالى (فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ [٦]) وقوله تعالى (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى [٧]) (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ [٨]) فقد علمت أن عجائب النطفة القذرة عجز عن معرفتها الأولون والآخرون ، وما أقسم الله بها ، فما ظنك بما أقسم الله تعالى به ، وأحال الأرزاق عليه ، وأضافها إليه ، فقال تعالى (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ [٩]) وأثنى على المتفكرين فيه فقال (وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ [١٠])

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [(١)] « وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ ثُمَّ مَسَحَ بِهَا سَبَلَتَهُ » أي تجاوزها من غير فكر . وذم المعرضين عنها فقال (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ [١١])

فأي نسبة لجميع البحار والأرض إلى السماء ، وهي متغيرات على القرب والسموات صلاب شداد ، محفوظات عن التغير إلى أن يبلغ الكتاب أجله . ولذلك سماه الله تعالى محفوظا

---

(١) حديث ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته أى قوله تعالى ـ ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ـ تقدم

---

(١) البروج : ١ (٢) الطارق : ١ (٣) الداريات : ٧ (٤) الشمس : ٥ (٥) الشمس : ١ ، ٢
(٦) التكوير : ١٥ (٧) : النجم ١ (٨) الواقعة : ٧٥ ، ٧٦ (٩) الداريات : ٢٢ (١٠) آل عمران : ١٩١
(١١) الأنبياء : ٣٢

فقال (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا [١]) وقال سبحانه (وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا [٢]) وقال (أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا [٣]) .

فانظر إلى الملكوت لترى عجائب العز والجبروت ، ولا تظنن أن معنى النظر إلى الملكوت بأن تمد البصر إليه ، فترى زرقة السماء وضوء الكواكب وتفرقها ، فإن البهائم تشاركك فى هذا النظر . فإن كان هذا هو المراد ، فلم مدح الله تعالى إبراهيم بقوله (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ [٤]) لا بل كل مايدرك بحاسة البصر ، فالقرءان يعبر عنه بالملك والشهادة . وما غاب عن الأبصار فيعبر عنه بالغيب والملكوت . والله تعالى عالم الغيب والشهادة ، وجبار الملك الملكوت ، ولا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء ، وهو عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول

فأجل أيها العاقل فكرك فى الملكوت ، فعسى يفتح لك أبواب السماء فتجول بقلبك فى أقطارها ، إلى أن يقوم قلبك بين يدي عرش الرحمن ، فعند ذلك ربما يرجى لك أن تبلغ رتبة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال : رأى قلبي ربي . وهذا لأن بلوغ الأقصى لا يكون إلا بعد مجاوزة الأدنى . وأدنى شيء إليك نفسك ، ثم الأرض التى هي مقرك ، ثم الهواء المكتنف لك ، ثم النبات والحيوان وما على وجه الأرض ، ثم عجائب الجو وهو مابين السماء والأرض ، ثم السموات السبع بكواكبها ، ثم الكرسى ، ثم العرش ، ثم الملائكة الذين هم حملة العرش وخزان السموات ، ثم منه تجاوز إلى النظر إلى رب العرش ، والكرسى والسموات ، والأرض ، وما بينهما . فبينك وبين هذه المفاوز العظيمة ، والمسافات الشاسعة والعقبات الشاهقة ، وأنت بعد لم تفرغ من العقبة القريبة النازلة ، وهي معرفة ظاهر نفسك ثم صرت تطلق اللسان بوقاحتك ، وتدعى معرفة ربك ، وتقول قد عرفته وعرفت خلقه ففيما ذا أتفكر ؟ وإلى ماذا أتطلع ؟

فارفع الآن وأسك إلى السماء ، وانظر فيها وفى كواكبها ، وفى دورانها ، وطلوعها ، وغروبها ، وشمسها وقمرها ، واختلاف مشارقها ومغاربها ، ودءوبها فى الحركة على الدوام من غير فتور فى حركتها ، ومن غير تغير فى سيرها ، بل تجرى جميعا فى منازل مرتبة

(١) النبأ : ١٢ (٢) النازعات : ٢٧ ، ٢٨ (٣) الأنعام : ٧٥

بحساب مقدر ، لا يزيد ولا ينقص ، إلى أن يطويها الله تعالى طيّ السجل للكتاب. وتدبر عدد كواكبها وكثرتها واختلاف ألوانها ، فبعضها يميل إلى الحمرة ، وبعضها إلى البياض ، وبعضها إلى اللون الرصاصي . ثم انظر كيفية أشكالها ، فبعضها على صورة العقرب ، وبعضها على صورة الحمل ، والثور ، والأسد ، والإنسان وما من صورة فى الأرض إلا ولها مثال فى السماء . ثم انظر إلى مسير الشمس فى فلكها فى مدة سنة، ثم هي تطلع فى كل يوم وتغرب بسير آخر سخرها له خالقها ، ولولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ، ولم تعرف المواقيت ، ولأطبق الظلام على الدوام أو الضياء على الدوام ، فكان لا يتميز وقت المعاش عن وقت الاستراحة فانظر كيف جعل الله تعالى الليل لباسا .والنوم سباتا ، والنهار معاشا . وانظر إلى إيلاجه الليل فى النهار ، والنهار فى الليل ، وإدخاله الزيادة والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص . وانظر إلى إمالته مسير الشمس عن وسط السماء حتى اختلف بسببه الصيف ، والشتاء ، والربيع ، والخريف ، فإذا انخفضت الشمس من وسط السماء فى مسيرها برد الهواء وظهر الشتاء ، وإذا استوت فى وسط السماء اشتد القيظ وإذا كانت فيما بينهما اعتدل الزمان . وعجائب السموات لا مطمع فى إحصاء عشر عشير جزء من أجزائها، وإنما هذا تنبيه على طريق الفكر . واعتقد على الجملة أنه ما من كوكب من الكواكب إلا ولله تعالى حكم كثيرة فى خلقه ،ثم فى مقداره ، ثم فى شكله ، ثم فى لونه، ثم فى وضعه من السماء وقربه من وسط السماء وبعده، وقربه من الكواكب التي بجنبه وبعده، وقس على ذلك ما ذكرناه من أعضاء بدنك ،إذ ما من جزء إلا وفيه حكمة بل حكم كثيرة. وأمر السماء أعظم بل لا نسبة لعالم الأرض إلى عالم السماء ، لا فى كبر جسم ، ولا فى كثرة معانيه . وقس التفاوت الذى بينهما فى كثرة المعانى بما بينهما من التفاوت فى كبر الأرض ، فأنت تعرف من كبر الأرض واتساع أطرافها أنه لا يقدر آدمي على أن يدركها ويدور بجوانبها ،

وقد اتفق الناظرون على أن الشمس مثل الأرض مائة ونيفا وستين مرة وفى الأخبار ما يدل على عظمها [1] . ثم الكواكب التى تراها أصغرها مثل الأرض

---

(١) الحديث الدال على عظم الشمس : أحمد من حديث عبد الله بن عمر رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الشمس حين غربت فقال فى نار الله الحامية لولا مازعها من أمر الله لأهلكت ما على الأرض وللطبراني فى الكبير من حديث أبى أمامة وكل بالشمس تسعة أملاك يرمونها بالثلج كل يوم

ثمانى مرات ، وأكبرها ينتهى إلى قريب من مائة وعشرين مرة مثل الأرض ، وبهذا تعرف ارتفاعها وبعدها، إذ للبعد صارت ترى صغارا . ولذلك أشار الله تعالى إلى بعدها فقال (رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا)[1] وفي الأخبار أن ما بين كل سماء إلى الأخرى مسيرة خمسمائة عام[1]

فإذا كان مقدار كوكب واحد مثل الأرض أضعافا ، فانظر إلى كثرة الكواكب ، ثم انظر إلى السماء التى الكواكب مركوزة فيها وإلى عظمها ، ثم انظر إلى سرعة حركتها وأنت لاتحس بحركتها فضلا عن أن تدرك سرعتها ، لكن لاتشك أنها فى لحظة تسير مقدار عرض كوكب ، لأن الزمان من طلوع أول جزء من كوكب إلى تمامه يسير ، وذلك الكوكب هو مثل الأرض بمائة مرة وزيادة ، فقد دار الفلك فى هذه اللحظة مثل الأرض مائة مرة . وهكذا يدور على الدوام وأنت غافل عنه

وانظر كيف عبّر[2] جبريل عليه السلام عن سرعة حركته إذ قال له النبي صلى الله عليه وسلم « هَلْ زَالَتِ الشَّمْسُ ؟ » فقال: لا نعم . فقال « كَيْفَ تَقُولُ لا نَعَمْ » فقال: من حين قلت لا إلى أن قلت نعم سارت الشمس خمسمائة عام . فانظر إلى عظم شخصها ، ثم إلى خفة حركتها ، ثم انظر إلى قدرة الفاطر الحكيم كيف أثبت صورتها مع اتساع أكنافها فى حدقة العين مع صغرها ، حتى تجلس على الأرض وتفتح عينيك نحوها فترى جميعها

فهذه السماء بعظمها وكثرة كواكبها لاتنظر إليها ، بل انظر إلى بارئها كيف خلقها ، ثم أمسكها من غير عمد ترونها ، ومن غير علاقة من فوقها ، وكل العالم كبيت واحد والسماء سقفه ، فالعجب منك أنك تدخل بيت غني فتراه مزوّقا بالصبغ ، مموها بالذهب ، فلا ينقطع تعجبك منه ، ولا تزال تذكره وتصف حسنه طول عمرك ، وأنت أبدا تنظر إلى هذا البيت العظيم ، وإلى أرضه ، وإلى سقفه وإلى هوائه ، وإلى عجائب أمتعته ، وغرائب

لولا ذلك ماأتت على شيء الاأحرقته

(١) حديث بين كل سماء الى سماء خمسمائة عام : الترمذى من رواية الحسن عن أبى هريرة وقال غريب قال ويروى عن أيوب ويونس بن عبيد وعلى بن زيد قالوا ولم يسمع الحسن من أبى هريرة ورواه أبو الشيخ فى العظمة من رواية أبى نصرة عن أبى ذر ورجاله ثقات الاأنه لايعرف لأبى نصرة سماع من أبى ذر

(٢) حديث أنه قال لجبريل هل زالت الشمس فقال لانعم فقال كيف تقول لانعم فقال من حين قلت لاإلى أن قلت نعم سارت الشمس مسيرة خمسمائة عام : لم أجد له أصلا

---

(١) النازعات : ٢٨

حيواناته ، وبدائع نقوشه ، ثم لا تتحدث فيه ، ولا تلتفت بقلبك إليه ؛ فما هذا البيت دون ذلك البيت الذى تصفه ، بل ذلك البيت هو أيضا جزء من الأرض التي هي أخس أجزاء هذا البيت ، ومع هذا فلا تنظر إليه ، ليس له سبب إلا أنه بيت ربك ، هو الذى انفرد ببنائه وترتيبه ، وأنت قد نسيت نفسك ، وربك ، وبيت ربك ، واشتغلت ببطنك وفرجك ، ليس لك هم إلا شهوتك أو حشمتك ، وغاية شهوتك أن تملأ بطنك ، ولا تقدر على أن تأكل عشر ما تأكله بهيمة ، فتكون البهيمة فوقك بعشر درجات ، وغاية حشمتك أن تقبل عليك عشرة أومائة من معارفك فينافقون بألسنتهم بين يديك ، ويضمرون خبائث الاعتقادات عليك ، وإن صدقوك فى مودتهم إياك فلا يملكون لك ولا لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، وقد يكون فى بلدك من أغنياء اليهود والنصارى من يزيد جاهه على جاهك ، وقد اشتغلت بهذا الغرور ، وغفلت عن النظر فى جمال ملكوت السموات والأرض ، ثم غفلت عن التنعم بالنظر إلى جلال مالك الملكوت والملك ، وما مثلك ومثل عقلك إلا كمثل النملة تخرج من جحرها الذى حفرته فى قصر مشيد من قصور الملك ، رفيع البنيان ، حصين الأركان ، مزين بالجوارى والغلمان ، وأنواع الذخائر والنفائس ، فإنها إذا خرجت من جحرها ، ولقيت صاحبتها ؛ لم تتحدث لو قدرت على النطق إلا عن بيتها وغذائها ، وكيفية إدخارها ، فأما حال القصر والملك الذى فى القصر فهي بمعزل عنه وعن التفكر فيه ، بل لا قدرة لها على المجاوزة بالنظر عن نفسها وغذائها وبيتها إلى غيره ، وكما غفلت النملة عن القصر وعن أرضه ، وسقفه ، وحيطانه ، وسائر بنيانه ، وغفلت أيضا عن سكانه ، فأنت أيضا غافل عن بيت الله تعالى ، وعن ملائكته الذين هم سكان سمواته ، فلا تعرف من السماء إلا ما تعرفه النملة من سقف بيتك ، ولا تعرف من ملائكة السموات إلا ما تعرفه النملة منك ومن سكان بيتك . نعم ليس للنملة طريق إلى أن تعرفك وتعرف عجائب قصرك وبدائع صنعة الصانع فيه ، وأما أنت فلك قدرة على أن تجول فى الملكوت وتعرف عن عجائبه ما الخلق غافلون عنه ، ولنقبض عنان الكلام عن هذا النمط فإنه مجال لا آخر له ، ولو استقصينا أعمارا طويلة لم نقدر على شرح ما تفضل الله تعالى علينا بمعرفته وكل ما عرفناه قليل نزر حقير بالإضافة إلى ما عرفه جملة العلماء والأولياء ، وما عرفوه قليل نزر حقير بالإضافة إلى ما عرفه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وجملة ما عرفوه قليل

بالإضافة إلى ماعرفه محمد نبينا صلى الله عليه وسلم . وما عرفه الأنبياء كلهم قليل بالإضافة إلى ما عرفته الملائكة المقربون كإسرافيل وجبريل وغيرهما . ثم جميع علوم الملائكة ، والجن ، والإنس ، إذا أضيف إلى علم الله سبحانه وتعالى لم يستحق أن يسمى علما ، بل هو إلى أن يسمي دهشا ، وحيرة ، وقصورا ، وعجزا أقرب ، فسبحان من عرف عباده ما عرف ، ثم خاطب جميعهم فقال(وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا [1]) . فهذا بيان معاقد الجمل التي تجول فيها فكر المتفكرين فى خلق الله تعالى ، وليس فيها فكر فى ذات الله تعالى، ولكن يستفاد من الفكر فى الخلق لامحالة معرفة الخالق ،وعظمته، وجلاله وقدرته، وكلما استكثرت من معرفة عجيب صنع الله تعالى كانت معرفتك بجلاله وعظمته أتم ، وهذا كما أنك تعظم عالما بسبب معرفتك بعلمه ، فلا تزال تطلع على غريبة غريبة من تصنيفه أو شعره، فتزداد به معرفة ، وتزداد بحسنه له توقيرا وتعظيما واحتراما ، حتى أن كل كلمة من كلماته ، وكل بيت عجيب من أبيات شعره ، يزيده محلا من قلبك يستدعى التعظيم له فى نفسك

فهكذا تأمل فى خلق الله تعالى وتصنيفه وتأليفه ، وكل ما فى الوجود من خلق الله وتصنيفه ، والنظر والفكر فيه لايتناهي أبدا ، وإنما لكل عبد منهما بقدر مارزق ، فلنقتصر على ماذكرناه ، ولنضف إلى هذا ما فصلناه فى كتاب الشكر ، فإنا نظرنا فى ذلك الكتاب فى فعل الله تعالى من حيث هو إحسان الينا ، وإنعام علينا ، وفى هذا الكتاب نظرنا فيه من حيث إنه فعل الله فقط ، وكل ما نظرنا فيه فإن الطبيعى ينظر فيه ويكون نظره سبب ضلاله وشقاوته ، والموفق ينظر فيه فيكون سبب هدايته وسعادته . وما من ذرة فى السماء والأرض إلا والله سبحانه وتعالى يضل بها من يشاء ، ويهدى بها من يشاء . فمن نظر فى هذه الأمور من حيث إنها فعل الله تعالى وصنعه استفاد منه المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته ، واهتدى به. ومن نظر فيها قاصرا للنظر عليها من حيث تأثير بعضها فى بعض ، لامن حيث ارتباطها بمسبب الأسباب ، فقد شقى وارتدى ، فنعوذ بالله من الضلال ونسأله أن يجنبنا مزلة أقدام الجهال بمنّه ، وكرمه ، وفضله ، وجوده ، ورحمته

تم الكتاب التاسع من ربع المنجيات ، والحمد لله وحده ، وصلواته على محمد وآله وسلامه يتلوه كتاب ذكر الموت وما بعده وبه كمل جميع الديوان بحمد الله تعالى وكرمه

(١) الاسراء : ٨٥

كتاب ذكر الموت وما بعده

كتاب ذكر الموت وما بعده

وهو الكتاب العاشر من ربع المنجيات
وبه اختتام كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى قصم بالموت رقاب الجبابرة ، وكسر به ظهور الأكاسرة ، وقصر به آمال القياصرة ، الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة ، حتى جاءهم الوعد الحق فأرداهم فى الحافرة ، فنقلوا من القصور إلى القبور ، ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللحود ، ومن ملاعبة الجوارى والغلمان إلى مقاساة الهوام والديدان ، ومن التنعم بالطعام والشراب إلى التمرغ فى التراب ، ومن أنس العشرة إلى وحشة الوحدة ، ومن المضجع الوثير إلى المصرع الوبيل ، فانظر هل وجدوا من الموت حصناً وعزا ، واتخذوا من دونه حجابا وحرزا ، وانظر هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ؟ فسبحان من انفرد بالقهر والاستيلاء ، واستأثر باستحقاق البقاء ، وأذل أصناف الخلق بما كتب عليهم من الفناء ثم جعل الموت مخلصا للأتقياء ، وموعدا فى حقهم للقاء ، وجعل القبر سجنا للأشقياء ، وحبسا ضيقا عليهم إلى يوم الفصل والقضاء ، فله الإنعام بالنعم المتظاهرة وله الانتقام بالنقم القاهرة ، وله الشكر فى السموات والأرض ، وله الحمد فى الأولى والآخرة ، والصلاة على محمد ذى المعجزات الظاهرة ، والآيات الباهرة ، وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما كثيرا

أما بعد : فجدير بمن الموت مصرعه ، والتراب مضجعه ، والدود أنيسه ، ومنكر ونكير جليسه ، والقبر مقره ، وبطن الأرض مستقره ، والقيامة موعده ، والجنة أو النار مورده ، أن لا يكون له فكر إلا فى الموت ، ولا ذكر إلا له ، ولا استعداد إلا لأجله ، ولا تدبير إلا فيه ، ولا تطلع إلا إليه ، ولا تعريج إلا عليه ، ولا اهتمام إلا به ، ولا حول إلا حوله ، ولا انتظار وتربص إلا له ، وحقيق بأن يعد نفسه من الموتى ويراها فى أصحاب القبور ؟

فإن كل ماهو آت قريب ، والبعيد ماليس بآت . وقد قال صلى الله عليه وسلم [1] « الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ » ولن يتيسر الاستعداد للشيء إلا عند تجدد ذكره على القلب ، ولا يتجدد ذكره إلا عند التذكر بالإصغاء إلى المذكرات له ، والنظر فى المنبهات عليه

ونحن نذكر من أمر الموت ، ومقدماته ولواحقه ، وأحوال الآخرة ، والقيامة ، والجنة ، والنار ، مالابدّ للعبد من تذكاره على التكرار ، وملازمته بالافتكار والاستبصار ليكون ذلك مستحثا على الاستعداد ، فقد قرب لما بعد الموت الرحيل ، فما بقي من العمر إلا القليل ، والخلق عنه غافلون (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ [1]) ونحن نذكر مايتعلق بالموت فى شطرين

الشطر الأول

فى مقدماته وتوابعه إلى نفخة الصور وفيه ثمانية أبواب

﴿ كتاب ذكر الموت ومابعده ﴾

(١) حديث الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت : تقدم غير مرة

---

(١) الأنبياء : ١

الباب الأول

فى ذكر الموت والترغيب فى الإكثار من ذكره

اعلم أن المنهمك فى الدنيا ، المكب على غرورها ، المحب لشهواتها ، يغفل قلبه لامحالة عن ذكر الموت فلا يذكره ، وإذا ذكّر به كرهه ونفر منه ، أولئك هم الذين قال الله فيهم (قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١)) ثم الناس إما منهمك ، وأما تائب مبتدىء ، أوعارف منتهٍ؛

أما المنهمك :فلا يذكر الموت ، وإن ذكره فيذكره للتأسف على دنياه ،ويشتغل بمذمّته ، وهذا يزيده ذكر الموت من الله بعداً

وأما التائب :فإنه يكثر من ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية ، فيفى بتمام التوبة ، وربما يكره الموت خيفة من أن يختطفه قبل تمام التوبة ، وقبل إصلاح الزاد ،وهو معذور فى كراهة الموت . ولا يدخل هذا تحت قوله صلى الله عليه وسلم (١) « مَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ » فإن هذا ليس يكره الموت ولقاء الله ، وإنما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره . وهو كالذى يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلا بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه . فلا يعدّ كارها للقائه . وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له ، لاشغل له سواه ، وإلا التحق بالمنهمك فى الدنيا

وأما العارف:فإنه يذكر الموت دائما لأنه موعد للقائه لحبيبه ،والمحب لاينسى قط موعد لقاء الحبيب . وهذا فى غالب الأمر يستبطىء مجىء الموت ، ويحب مجيئه ليتخلص من دار العاصين ، وينتقل إلى جوار رب العالمين ، كما روي عن حذيفة أنه لما حضرته الوفاة قال : حبيب جاء على فاقة ، لاأفلح من ندم . اللهم إن كنت تعلم أن الفقر أحب إليّ من الغنى ، والسقم أحب إليّ من الصحة ، والموت أحب إليّ من العيش ، فسهل عليّ الموت حتى ألقاك . فإذاً التائب معذور فى كراهة الموت ، وهذا معذور فى حب الموت وتمنيه

{ الباب الأول فى ذكر الموت والترغيب فيه }

(١) حديث من كره لقاء الله كره الله لقاءه : متفق عليه من حديث أبى هريرة

(١) الجمعة : ٨

وأعلى منهما رتبة من فوض أمره إلى الله تعالى ، فصار لايختار لنفسه موتا ولا حياة ، بل يكون أحب الأشياء إليه أحبها إلى مولاه ، فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء إلى مقام التسليم والرضا ، وهو الغاية والمنتهى .

وعلى كل حال ففي ذكر الموت ثواب وفضل ، فإن المنهمك أيضا يستفيد بذكر الموت التجافي عن الدنيا ، إذ ينغص عليه نعيمه ، ويكدر عليه صفو لذته ، وكل مايكدر على الإنسان اللذات والشهوات فهو من أسباب النجاة

بيان

فضل ذكر الموت كيفما كان

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ » معناه نغّصوا بذكره اللذات حتى ينقطع ركونكم إليها . فتقبلوا على الله تعالى ، وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « لَوْ تَعْلَمُ الْبَهَائِمُ مِنَ الْمَوْتِ مَا يَعْلَمُ ابْنُ آدَمَ مَا أَكَلْتُمْ مِنْهَا سَمِيناً »

[٣] وقالت عائشة رضي الله عنها : يارسول الله ، هل يحشر مع الشهداء أحد ؟ قال : « نَعَم مَنْ يَذْكُرُ الْمَوْتَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ عِشْرِينَ مَرَّةً » وإنما سبب هذه الفضيلة كلها أن ذكر الموت يوجب التجافي عن دار الغرور ، ويتقاضى الاستعداد للآخرة . والغفلةُ عن الموت تدعو إلى الانهماك في شهوات الدنيا

وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « تُحْفَةُ الْمُؤْمِنِ الْمَوْتُ » وإنما قال هذا لأن الدنيا سجن المؤمن ، إذ لايزال فيها في عناء من مقاساة نفسه ، ورياضة شهواته ، ومدافعة شيطانه

---

(١) حديث أكثروا من ذكر هاذم اللذات : الترمذي وقال حسن والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة وقد تقدم

(٢) حديث لو تعلم البهائم من الموت مايعلم ابن آدم ما أكلتم منها سمينا : البيهقي في الشعب من حديث أم حبيبة الجهنية وقد تقدم

(٣) حديث قالت عائشة هل يحشر مع الشهداء أحد قال نعم من ذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرة : تقدم

(٤) حديث تحفة المؤمن الموت : ابن أبي الدنيا في كتاب الموت ؛ والطبراني والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو مرسلا بسند حسن

فالموت إطلاق له من هذا العذاب ، والإطلاق تحفة في حقه

وقال صلى الله عليه وسلم [١] « الْمَوْتُ كَفَّارَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ » وأراد بهذا المسلمَ حقا، المؤمن صدقا ، الذي يسلم المسلمون من لسانه ويده ، ويتحقق فيه أخلاق المؤمنين ، ولم يتدنس من المعاصي إلا باللمم والصغائر ، فالموت يطهره منها ويكفرها بعد اجتنابه الكبائر وإقامته الفرائض . قال [٢] عطاء الخراساني : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمجلس قد استعلى فيه الضحك فقال « شُوبُوا مَجْلِسَكُمْ بِذِكْرِ مُكَدِّرِ اللَّذَّاتِ » قالوا وما مكدر اللذات ؟ قال « الْمَوْتُ »

وقال [٣] أنس رضي الله تعالى عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ فَإِنَّهُ يُمَحِّصُ الذُّنُوبَ وَيُزَهِّدُ فِي الدُّنْيَا » . وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « كَفَى بِالْمَوْتِ مُفَرِّقًا » . وقال عليه السلام [٥] « كَفَى بِالْمَوْتِ وَاعِظًا »

[٦] وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد ، فإذا قوم يتحدثون ويضحكون فقال « اذْكُرُوا الْمَوْتَ أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً » . [٧] وذُكِر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل ، فأحسنوا

---

(١) حديث الموت كفارة لكل مسلم : أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب والخطيب في التاريخ من حديث أنس قال ابن العربي في سراج المريدين انه حسن صحيح وضعفه ابن الجوزي وقد جمعت طرقه في جزء

(٢) حديث عطاء الخراساني مر النبي صلى الله عليه وسلم بمجلس قد استعلاه الضحك فقال شوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات ـ الحديث : ابن أبي الدنيا في الموت هكذا مرسلا ورويناه في أمالي الخلال من حديث أنس ولا يصح

(٣) حديث أنس أكثروا من ذكر الموت فانه يمحص الذنوب ويزهد في الدنيا : ابن أبي الدنيا في الموت باسناد ضعيف جدا

(٤) حديث كفى بالموت مفرقا : الحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أنس وعراك بن مالك بسند ضعيف ورواه ابن أبي الدنيا في البر والصلة من رواية أبي عبد الرحمن الحبلي مرسلا

(٥) حديث كفى بالموت واعظا : الطبراني ، والبيهقي في الشعب من حديث عمار بن ياسر بسند ضعيف وهو مشهور من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقي في الزهد

(٦) حديث خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المسجد فاذا قوم يتحدثون ويضحكون فقال اذكروا الموت ـ الحديث : ابن أبي الدنيا في الموت من حديث ابن عمر باسناد ضعيف

(٧) حديث ذكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل فأحسنوا الثناء عليه فقال كيف كان ذكر

الثناء عليه ، فقال « كَيْفَ ذِكْرُ صَاحِبِكُمْ لِلْمَوْتِ ؟ » قالوا ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت . قال « فَإِنَّ صَاحِبَكُمْ لَيْسَ هُنَالِكَ » . وقال ابن [1] عمر رضي الله عنهما : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم عاشر عشرة ، فقال رجل من الأنصار : من أكيس الناس وأكرم الناس يارسول الله ؟ فقال « أَكْثَرُهُمْ ذِكْرًا لِلْمَوْتِ وَأَشَدُّهُمْ اسْتِعْدَادًا لَهُ أُولَئِكَ هُمُ الأَكْيَاسُ ذَهَبُوا بِشَرَفِ الدُّنْيَا وَكَرَامَةِ الآخِرَةِ »

وأما الآثار : فقد قال الحسن رحمه الله تعالى : فضح الموت الدنيا فلم يترك لذى لب فرحا

وقال الربيع بن خثيم : ماغائب ينتظره المؤمن خيرا له من الموت . وكان يقول : لا تشعروا بى أحدا ، وسلونى إلى ربى سلا . وكتب بعض الحكماء إلى رجل من إخوانه : ياأخى احذر الموت فى هذه الدار قبل أن تصير إلى دار تتمنى فيها الموت فلا تجده

وكان ابن سيرين إذا ذكر عنده الموت مات كل عضو منه

وكان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء ، فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ، ثم يبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة

وقال ابراهيم التيمى شيآن قطعاعنى لذة الدنيا ، ذكر الموت ، والوقوف بين يدي الله عز وجل

وقال كعب : من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها

وقال مطرف : رأيت فيما يرى النائم كأن قائلا يقول فى وسط مسجد البصرة . قطع ذكر الموت قلوب الخائفين ، فوالله ماتراهم إلا والهين

وقال أشعث : كنا ندخل على الحسن ، فإنما هو النار ، وأمر الآخرة ، وذكر الموت

وقالت صفية رضي الله تعالى عنها : إن امرأة اشتكت إلى عائشة رضي الله عنها قساوة قلبها ، فقالت أكثرى ذكر الموت يرق قلبك . ففعلت فرق قلبها . فجاءت تشكر عائشة رضي الله عنها . وكان عيسى عليه السلام إذا ذكر الموت عنده يقطر جلده دما وكان داود عليه السلام إذا ذكر الموت والقيامة يبكى حتى تنخلع أوصاله ، فإذا ذكر الرحمة

صاحبكم للموت ــ الحديث : ابن أبى الدنيا فى الموت من حديث أنس بسند ضعيف وابن المبارك فى الزهد قال أنامالك بن مغول فذكره بلاغا بزيادة فيه

(١) حديث ابن عمر أتيت النبي صلى الله عليه وسلم عاشر عشرة فقال رجل من الأنصار من أكيس الناس الحديث : ابن ماجه مختصرا وابن أبى الدنيا بكماله باسناد جيد

رجعت إليه نفسه . وقال الحسن : مارأيت عاقلا قط إلا أصبته من الموت حذرا، وعليه حزينا

وقال عمر بن عبد العزيز لبعض العلماء : عظنى ، فقال : لستَ أول خليفة تموت . قال : زدنى .قال. ليس من آبائك أحد إلى آدم إلا ذاق الموت ، وقد جاءت نوبتك. فبكى عمر لذلك : وكان الربيع بن خثيم قد حفر قبرا فى داره ، فكان ينام فيه كل يوم مرات يستديم بذلك ذكر الموت ، وكان يقول : لو فارق ذكر الموت قلبى ساعة واحدة لفسد .

وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير : إن هذا الموت قد نغّص على أهل النعيم نعيمهم ، فاطلبوا نعيما لاموت فيه . وقال عمر بن عبد العزيز لعنبسة : أكثر ذكر الموت ، فإن كنت واسع العيش ضيّقه عليك ، وإن كنت ضيق العيش وسّعه عليك

وقال أبو سليمان الدارانى . قلت لأم هرون أتحبين الموت ؟ قالت : لا، قلت: لم ؟ قالت: لو عصيت آدميا ما اشتهيت لقاءه ، فكيف أحب لقاءه وقد عصيته !

بيان

الطريق فى تحقيق ذكر الموت فى القلب

اعلم أن الموت هائل ، وخطره عظيم ، وغفلة الناس عنه لقلة فكرهم فيه وذكرهم له ، ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ ، بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا ، فلا ينجع ذكر الموت فى قلبه . فالطريق فيه أن يفرغ العبد قلبه عن كل شيء إلا عن ذكر الموت الذى هو بين يديه ، كالذى يريد أن يسافر إلى مفازة مخطرة . أو يركب البحر ، فإنه لا يتفكر إلا فيه . فإذا باشر ذكر الموت قلبه ، فيوشك أن يؤثر فيه ، وعند ذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا ، وينكسر قلبه

وأنجع طريق فيه أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله ، فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب ، ويتذكر صورهم فى مناصبهم وأحوالهم ، ويتأمل كيف محا التراب الآن حسن صورهم ، وكيف تبددت أجزاؤهم فى قبورهم ، وكيف أرملوا نساءهم ، وأيتموا أولادهم ، وضيعوا أموالهم ، وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم ، وانقطعت آثارهم . فمهما تذكر رجل رجلا ، وفصل فى قلبه حاله وكيفية موته ، وتوهم صورته ، وتذكر نشاطه وتردده وتأمله للعيش والبقاء ، ونسيانه للموت ، وانخداعه بمواتاة الأسباب ، وركونه إلى القوة

والشباب ، وميله إلى الضحك واللهو ، وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع ، والهلاك السريع ، وأنه كيف كان يتردد والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله ، وأنه كيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه ، وكيف كان يضحك وقد أكل التراب أسنانه ، وكيف كان يدبر لنفسه مالا يحتاج إليه إلى عشر سنين في وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر : وهو غافل عما يراد به ، حتى جاء الموت في وقت لم يحتسبه ، فانكشف له صورة الملك ، وقرع سمعه النداء إما بالجنة أو بالنار . فعند ذلك ينظر في نفسه أنه مثلهم ، وغفلته كغفلتهم ، وستكون عاقبته كعاقبتهم . قال أبو الدرداء رضي الله عنه : إذا ذكرتَ الموتى فعدّ نفسك كأحدهم . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : السعيد من وعظ بغيره

وقال عمر بن عبد العزيز : ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غاديا أو رائحا إلى الله عزوجل تضعونه في صدع من الأرض ، قد توسد التراب ، وخلف الأحباب ، وقطع الأسباب ؟

فملازمة هذه الأفكار وأمثالها مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى ، هو الذي يجدد ذكر الموت في القلب ، حتى يغلب عليه بحيث يصير نصب عينيه ، فعند ذلك يوشك أن يستعد له ، ويتجافى عن دار الغرور . وإلا فالذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان قليل الجدوى في التحذير والتنبيه . ومهما طاب قلبه بشيء من الدنيا ينبغي أن يتذكر في الحال أنه لابد له من مفارقته . نظر ابن مطيع ذات يوم إلى داره فأعجبه حسنها ، ثم بكى فقال : والله لولا الموت لكنت بك مسرورا ، ولولا ما نصير إليه من ضيق القبور لقرت بالدنيا أعيننا ثم بكى بكاء شديدا حتى ارتفع صوته

الباب الثاني

في طول الأمل ، وفضيلة قصر الأمل ، وسبب طوله ، وكيفية معالجته

فضيلة قصر الأمل

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر[1] « إِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالْمَسَاءِ وَإِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالصَّبَاحِ وَخُذْ مِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ

﴿ الباب الثاني في طول الأمل ﴾

(١) حديث قال لعبدالله بن عمر اذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء . الحديث : ابن حبان ورواه البخاري

وَمِنْ صِحَّتِكَ لِسَقَمِكَ فَإِنَّكَ يَاعَبْدَ اللهِ لاَتَدْرِى مَا اسْمُكَ غَدًا »

وروى[1] عليّ كرم الله وجهه ، أنه صلى الله عليه وسلم قال « إِنَّ أَشَدَّ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ خَصْلَتَانِ اتِّبَاعُ الْهَوَى وَطُولُ الأَمَلِ فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَإِنَّهُ يَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ وَأَمَّا طُولُ الأَمَلِ فَإِنَّهُ الْحُبُّ لِلدُّنْيَا » ثم قال : « أَلاَ إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُعْطِى الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَيُبْغِضُ وَإِذَا أَحَبَّ عَبْدًا أَعْطَاهُ الإِيمَانَ أَلاَ إِنَّ لِلدِّينِ أَبْنَاءً وَلِلدُّنْيَا أَبْنَاءً فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدِّينِ وَلاَ تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا أَلاَ إِنَّ الدُّنْيَا قَدِ ارْتَحَلَتْ مُوَلِّيَةً أَلاَ إِنَّ الآخِرَةَ قَدِ ارْتَحَلَتْ مُقْبِلَةً أَلاَ وَإِنَّكُمْ فِي يَوْمِ عَمَلٍ لَيْسَ فِيهِ حِسَابٌ أَلاَ وَإِنَّكُمْ تُوشِكُونَ فِي يَوْمِ حِسَابٍ لَيْسَ فِيهِ عَمَلٌ »

وقالت[2] أم المنذر : اطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات عشية إلى الناس فقال : « أَيُّهَا النَّاسُ أَمَا تَسْتَحْيُونَ مِنَ اللهِ » قالوا وما ذاك يارسول الله ؟ قال : « تَجْمَعُونَ مَالاَ تَأْكُلُونَ وَتَأْمُلُونَ مَالاَ تُدْرِكُونَ وَتَبْنُونَ مَالاَتَسْكُنُونَ »

وقال[3] أبو سعيد الخدري : اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار إلى شهر فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أَلاَ تَعْجَبُونَ مِنْ أُسَامَةَ الْمُشْتَرِى إِلَى شَهْرٍ إِنَّ أُسَامَةَ لَطَوِيلُ الأَمَلِ وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ مَاطَرَفَتْ عَيْنَايَ إِلَّا ظَنَنْتُ أَنَّ شُفْرَيَّ لاَيَلْتَقِيَانِ حَتَّى يَقْبِضَ اللهُ رُوحِي وَلاَ رَفَعْتُ طَرْفِي فَظَنَنْتُ أَنِّي وَاضِعُهُ حَتَّى أُقْبَضَ وَلاَ لَقِمْتُ لُقْمَةً إِلاَّ ظَنَنْتُ أَنِّي لاَ أُسِيغُهَا حَتَّى أُغَصَّ بِهَا مِنَ الْمَوْتِ » ثم قال : « يَابَنِي آدَمَ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ فَعُدُّوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ الْمَوْتَى وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ إِنَّ مَاتُوعَدُونَ لآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ »

من قول ابن عمر فى آخر حديث كن فى الدنيا كأنك غريب

(١) حديث علىّ ان أشد ماأخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل ـ الحديث : بطوله ابن أبى الدنيا فى كتاب قصر الأمل ورواه أيضا من حديث جابر بنحوه وكلاهما ضعيف

(٢) حديث أم المنذر أيها الناس أماتستحيون من الله تعالى قالوا وماذاك يارسول قال تجمعون مالاتأكلون الحديث : ابن أبى الدنيا ومن طريقه البيهقى فى الشعب باسناد ضعيف وقدتقدم

(٣) حديث أبى سعيد اشترى ابن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار الى شهر فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ألاتعجبون من أسامة ـ الحديث : ابن أبى الدنيا فى قصر الامل والطبرانى فى مسند الشاميين وأبونعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب بسند ضعيف

وعن [1] ابن عباس رضي الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج يهريق الماء فيمسح بالتراب ، فأقول له يارسول الله إن الماء منك قريب . فيقول « مَايُدْرِيني لَعَلّي لاَأَبْلُغُهُ » . ويروي [2] أنه صلى الله عليه وسلم أخذ ثلاثة أعواد ، فغرز عودا بين يديه والآخر إلى جنبه ، وأما الثالث فأبعده . فقال « هَلْ تَدْرُونَ مَاهَذَا ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم قال « هَذَا الإِنْسَانُ وَهَذَا الأَجَلُ وَذَاكَ الأَمَلُ يَتَعَاطَاهُ ابْنُ آدَمَ وَيَخْتَلِجُهُ الأَجَلُ دُونَ الأَمَلِ » وقال عليه السلام [3] « مَثَلُ ابْنِ آدَمَ وَإِلَى جَنْبِهِ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ مَنِيَّةً إِنْ أَخْطَأَتْهُ الْمَنَايَا وَقَعَ فِي الْهَرَمِ » قال ابن مسعود : هذا المرء وهذه الحتوف حوله شوارع إليه ، والهرم وراء الحتوف ، والأمل وراء الهرم ، فهو يؤمل وهذه الحتوف شوارع إليه فأيها أمرّ به أخذه ، فإن أخطأته الحتوف قتله الهرم ، وهو ينتظر الأمل

قال عبد الله : [4] خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا مربعا ، وخط وسطه خطا ، وخط خطوطا إلى جنب الخط ، وخط خطا خارجا وقال « أَتَدْرُونَ مَاهَذَا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . قال « هَذَا الإِنْسَانُ » للخط الذى فى الوسط « وَهَذَا الأَجَلُ مُحِيطٌ بِهِ وَهَذِهِ الأَعْرَاضُ » للخطوط التى حوله تنهشه ، إن أخطأه هذا نهشه هذا . « وَذَاكَ الأَمَلُ » يعنى الخط الخارج . وقال [5] أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَيَبْقَى مَعَهُ اثْنَتَانِ الْحِرْصُ وَالأَمَلُ » وفى رواية « وَتَشِبُّ مَعَهُ اثْنَتَانِ الْحِرْصُ عَلَى الْمَالِ وَالْحِرْصُ عَلَى الْعُمْرِ »

---

(١) حديث ابن عباس كان يخرج يهريق الماء فيمسح بالباب فأقول الماء منك قريب فيقول مايدريني لعلي لاأبلغه. ابن المبارك فى الزهد وابن أبي الدنيا فى قصر الأمل والبزار بسند ضعيف

(٢) حديث انه أخذ ثلاثة أعواد فغرز عودا بين يديه ـ الحديث : أحمد وابن أبي الدنيا فى قصر الأمل واللفظ له والرامهرمزى فى الأمثال من رواية أبي المتوكل الناجى عن أبي سعيد الخدرى واسناده حسن ورواه ابن المبارك فى الزهد وابن أبي الدنيا أيضا من رواية أبي المتوكل مرسلا

(٣) حديث مثل ابن آدم والى جنبه تسع وتسعون منية ـ الحديث : الترمذى من حديث عبد الله ابن الشخير وقال حسن

(٤) حديث ابن مسعود خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا مربعا وخط وسطه خطا ـ الحديث: رواه البخارى

(٥) حديث أنس يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنان الحرص والأمل: وفى رواية ويشب معه اثنان الحرص على المال والحرص على العمر ورواه مسلم بلفظ الثانى وابن أبى الدنيا فى قصر الأمل باللفظ الأول باسناد صحيح

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « نجَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالْيَقِينِ وَالزُّهْدِ وَيَهْلِكُ آخِرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالْبُخْلِ وَالْأَمَلِ »

وقيل بينما عيسى عليه السلام جالس ، وشيخ يعمل بمسحاة يثير بها الأرض ، فقال عيسى: اللهم انزع منه الأمل . فوضع الشيخ المسحاة واضطجع فلبث ساعة . فقال عيسى : اللهم اردد إليه الأمل . فقام فجعل يعمل . فسأله عيسى عن ذلك فقال . بينما أنا أعمل إذ قالت لى نفسى : إلى متى تعمل وأنت شيخ كبير ؟ فألقيت المسحاة واضطجعت . ثم قالت لى نفسى والله لابد لك من عيش ما بقيت . فقمت إلى مسحاتى

وقال [٢] الحسن : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَكُلُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ » قالوا : نعم يارسول الله ،قال « قَصِّرُوا مِنَ الْأَمَلِ وَثَبِّتُوا آجَالَكُمْ بَيْنَ أَبْصَارِكُمْ وَاسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ » [٣] وكان صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه « اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنْ دُنْيَا تَمْنَعُ خَيْرَ الْآخِرَةِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ حَيَاةٍ تَمْنَعُ خَيْرَ الْمَمَاتِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَمَلٍ يَمْنَعُ خَيْرَ الْعَمَلِ »

الآثار : قال مطرف بن عبد الله : لو علمت متى أجلى لخشيت على ذهاب عقلى ولكن الله تعالى منّ على عباده بالغفلة عن الموت . ولولا الغفلة ماتهنّوا بعيش ، ولا قامت بينهم الأسواق . وقال الحسن : السهو والأمل نعمتان عظيمتان على بنى آدم ولولا هما ما مشى المسلمون فى الطرق . وقال الثوري : بلغنى أن الإنسان خلق أحمق ، ولولا ذلك لم يهنأه العيش . وقال أبو سعيد بن عبد الرحمن : إنما عمرت الدنيا بقلة عقول أهلها . وقال سلمان الفارسى رضي الله عنه : ثلاث أعجبتنى حتى أضحكتنى : مؤمل الدنيا والموت يطلبه ، وغافل وليس يغفل عنه ، وضاحك ملء فيه

(١) حديث نجا اول هذه الامة باليقين والزهد وهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل: ابن أبى الدنيا فيه من رواية ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده

(٢) حديث الحسن أكلكم يحب أن يدخل الجنة قالوا نعم يارسول الله قال قصروا من الأمل ـ الحديث : ابن أبى الدنيا فيه هكذا من حديث الحسن مرسلا

(٣) حديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه اللهم انى أعوذ بك من أمل يمنع خير الآخرة وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل: ابن أبى الدنيا فيه من رواية حوشب عن النبي صلى الله عليه وسلم وفى اسناده ضعف وجهالة ولا أدرى من حوشب

ولا يدرى أساخط رب العالمين عليه أم راض . وثلاث أحزنتني حتى أبكتني فراق الأحبة محمد وحزبه ، وهول المطلع ، والوقوف بين يدي الله ولا أدرى إلى الجنة يؤمر بي أو إلى النار . وقال بعضهم : رأيت زرارة بن أبي أوفى بعد موته في المنام ، فقلت: أي الأعمال أبلغ عندكم ؟ قال التوكل وقصر الأمل . وقال الثورى : الزهد في الدنيا قصر الأمل ، ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباءة . وسأل المفضل بن فضالة ربه أن يرفع عنه الأمل فذهبت عنه شهوة الطعام والشراب . ثم دعا ربه فرد عليه الأمل ، فرجع إلى الطعام والشراب . وقيل للحسن : ياأبا سعيد ، ألا تغسل قميصك ؟ فقال الأمر أعجل من ذلك . وقال الحسن : الموت معقود بنواصيكم والدنيا تطوى من ورائكم وقال بعضهم : أنا كرجل مادّ عنقه والسيف عليه ، ينتظر متى تضرب عنقه . وقال داود الطائي : لو أملت أن أعيش شهرا لرأيتني قد أتيت عظيما . وكيف أؤمل ذلك وأرى الفجائع تغشى الخلائق في ساعات الليل والنهار

وحكي أنه جاء شقيق البلخي إلى أستاذ له يقال له أبو هاشم الرماني ، وفي طرف كسائه شيء مصرور ، فقال له أستاذه : إيش هذا معك ؟ فقال لوزات دفعها إليّ أخ لي وقال أحب أن تفطر عليها . فقال شقيق ، وأنت تحدث نفسك أنك تبقى إلى الليل ! لا كلمتك أبدا . قال : فأغلق في وجهي الباب ودخل

وقال عمر بن عبد العزيز في خطبته : إن لكل سفر زادا لامحالة ، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة التقوى ، وكونوا كمن عاين ماأعد الله من ثوابه وعقابه ترغبوا وترهبوا ، ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم ، وتنقادوا لعدوكم ، فإنه والله مابسط أمل من لايدرى لعله لايصبح بعد مسائه ، ولا يمسى بعد صباحه ، وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا . وكم رأيت ورأيتم من كان بالدنيا مغترا . وإنما تقر عين من وثق بالنجاة من عذاب الله تعالى ، وإنما يفرح من أمن أهوال القيامة . فأما من لا يداوي كلما إلا أصابه جرح من ناحية أخرى فكيف يفرح ! أعوذ بالله من أن آمركم بما لا أنهى عنه نفسي ، فتخسر صفقتي وتظهر عيبتي ، وتبدو مسكنتي في يوم

يبدو فيه الغنى والفقر، والموازين فيه منصوبة . لقد عنيتم بأمر لو عنيت به النجوم لانكدرت، ولو عنيت به الجبال لذابت ، ولو عنيت به الأرض لتشققت . أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة : وأنكم صائرون إلى إحداهما

وكتب رجل إلى أخ له : أما بعد ، فإن الدنيا حلم والآخرة يقظة ، والمتوسط بينهما الموت ، ونحن فى أضغاث أحلام ، والسلام

وكتب آخر إلى أخ له : إن الحزن على الدنيا طويل ، والموت من الإنسان قريب ، وللنقص فى كل يوم منه نصيب ، وللبلاء فى جسمه دبيب ، فبادر قبل أن تنادى بالرحيل والسلام . وقال الحسن : كان آدم عليه السلام قبل أن يخطىء أمله خلف ظهره ، وأجله بين عينيه . فلما أصاب الخطيئة حول فجعل أمله بين عينيه ، وأجله خلف ظهره

وقال عبد الله بن سميط : سمعت أبى يقول : أيها المغتر بطول صحته ، أما رأيت ميتا قط من غير سقم ؟ أيها المغتر بطول المهلة ، أما رأيت مأخوذا قط من غير عدة ؟ إنك لو فكرت فى طول عمرك لنسيت ماقد تقدم من لذاتك . أبالصحة تغترون ؟ أم بطول العافية تمرحون؟ أم الموت تأمنون ؟ أم على ملك الموت تجترئون ؟ إن ملك الموت إذا جاء لا يمنعه منك ثروة مالك ، ولا كثرة احتشادك . أما علمت أن ساعة الموت ذات كرب ، وغصص ، وندامة على التفريط ، ثم يقال رحم الله عبدا عمل لما بعد الموت ، رحم الله عبدا نظر لنفسه قبل نزول الموت . وقال أبو زكريا التيمي . بينما سليمان بن عبد الملك فى المسجد الحرام ، إذا أتي بحجر منقور ، فطلب من يقرؤه ، فأتى بوهب بن منبه ، فإذا فيه : ابن آدم ، إنك لو رأيت قرب مابقي من أجلك لزهدت فى طول أملك ، ولرغبت فى الزيادة من عملك ، ولقصرت من حرصك وحيلك . وإنما يلقاك غدا ندمك لو قد زلت بك قدمك ، وأسلمك أهلك وحشمك ، وفارقك الوالد والقريب ، ورفضك الولد والنسيب ، فلا أنت إلى دنياك عائد ، ولا فى حسناتك زائد ، فاعمل ليوم القيامة قبل الحسرة والندامة . فبكى سليمان بكاء شديدا

وقال بعضهم : رأيت كتابا من محمد بن يوسف إلى عبد الرحمن بن يوسف : سلام عليك ، فإنى أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإنى أحذرك متحولك من دار مهلتك إلى دار إقامتك وجزاء أعمالك ، فتصير فى قرار باطن الأرض بعد ظاهرها ،

فيأتيك منكر ونكير فيقعدانك وينتهرانك ، فإن يكن الله معك فلا بأس ، ولا وحشة ، ولا فاقة ، وإن يكن غير ذلك فأعاذني الله وإياك من سوء مصرع ، وضيق مضجع ، ثم تبلغك صيحة الحشر ، ونفخ الصور . وقيام الجبار لفصل قضاء الخلائق ، وخلاء الأرض من أهلها ، والسموات من سكانها ، فباحت الأسرار ، وأسعرت النار ، ووضعت الموازين ، وجيء بالنبيين والشهداء ، وقضي بينهم بالحق ، وقيل الحمد لله رب العالمين . فكم من مفتضح ومستور ، وكم من هالك وناج ، وكم من معذب ومرحوم ، فياليت شعري ما حالي وحالك يومئذ ؟ ففي هذا ما هدم اللذات ، وأسلى عن الشهوات ، وقصر عن الأمل ، وأيقظ النائمين ، وحذر الغافلين . أعاننا الله وإياكم على هذا الخطر العظيم ، وأوقع الدنيا والآخرة من قلبي وقلبك موقعهما من قلوب المتقين ، فإنما نحن به وله والسلام

وخطب عمر بن عبد العزيز فحمد الله وأثنى عليه وقال : أيها الناس ، إنكم لم تخلقوا عبثا ولن تتركوا سدى . وان لكم معادا يجمعكم الله فيه للحكم والفصل فيما بينكم . فخاب وشقي غدا عبد أخرجه الله من رحمته التي وسعت كل شيء ، وجنته التي عرضها السموات والأرض . وإنما يكون الأمان غدا لمن خاف واتقى ، وباع قليلا بكثير ، وفانيا بباق ، وشقوة بسعادة ، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين ، وسيخلف بعدكم الباقون ؟ ألا ترون أنكم في كل يوم تشيعون غاديا ورائحا إلى الله عز وجل قد قضى نحبه ، وانقطع أمله ؛ فتضعونه في بطن صدع من الأرض غير موسد ولا ممهد ، قد خلع الأسباب ، وفارق الأحباب ، وواجه الحساب ؟ وأيم الله إني لأقول مقالتي هذه ولا أعلم عند أحدكم من الذنوب أكثر مما أعلم من نفسي . ولكنها سنن من الله عادلة ، آمر فيها بطاعته ، وأنهى فيها عن معصيته ، واستغفر الله ، ووضع كمه على وجهه وجعل يبكي حتى بلت دموعه لحيته . وما عاد إلى مجلسه حتى مات . وقال القعقاع بن حكيم : قد استعددت للموت منذ ثلاثين سنة ، فلو أتاني ما أحببت تأخير شيء عن شيء

وقال الثوري : رأيت شيخا في مسجد الكوفة يقول : أنا في هذا المسجد منذ ثلاثين سنة أنتظر الموت أن ينزل بي ، ولو أتاني ما أمرته بشيء ، ولا نهيته عن شيء ، ولا لي على أحد شيء ؛ ولا لأحد عندي شيء

وقال عبد الله بن ثعلبة : تضحك ولعل أكفانك قد خرجت من عند القصار !

وقال أبو محمد بن علي الزاهد : خرجنا في جنازة بالكوفة ، وخرج فيها داود الطائي ، فانتبذ فقعد ناحية وهي تدفن ، فجئت فقعدت قريبا منه ، فتكلم فقال : من خاف الوعيد قصر عليه البعيد . ومن طال أمله ضعف عمله . وكل ما هو آت قريب

واعلم يا أخي أن كل شيء يشغلك عن ربك فهو عليك مشؤوم ، وأعلم ان أهل الدنيا جميعا من أهل القبور ، إنما يندمون على ما يخلفون ويفرحون بما يقدمون . فما ندم عليه أهل القبور أهل الدنيا عليه يقتتلون ، وفيه يتنافسون ، وعليه عند القضاة يختصمون

وروي أن معروفا الكرخي رحمه الله تعالى أقام الصلاة . قال محمد بن أبي توبة : فقال لى تقدم : فقلت : إني إن صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها . فقال معروف : وأنت تحدث نفسك أن تصلى صلاة أخرى ! نعوذ بالله من طول الأمل ، فإنه يمنع من خير العمل

وقال عمر بن عبد العزيز فى خطبتـه : إن الدنيـا ليست بدار قراركم . دار كتب الله عليها الفناء ، وكتب على أهلها الظعن عنها . فكم من عامر موثق عمـا قليل يخرب ، وكم من مقيم مغتبط عما قليل يظعن فأحسنوا رحمكم الله منها الرحلة بأحسن ما بحضرتكم من النقلة ، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى إنما لدنيا كفيء ظلال قلص فذهب ، بينا ابن آدم فى الدنيا ينافس وهو قرير العين ، إذ دعاه الله بقدره ، ورماه بيوم حتفه فسلبه آثاره ودنياه ، وصير لقوم آخرين مصانعه ومغناه . إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضر . إنها تسر قليلا وتحزن طويلا . وعن أبى بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، أنه كان يقول فى خطبته أين الوضاءة الحسنة وجوههم ؟ المعجبون بشبابهم ؟ أين الملوك الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحيطان ؟ أين الذين كانوا يعطون الغلبة فى مواطن الحرب ؟ قد تضعضع بهم الدهر ، فأصبحوا فى ظلمات القبور . الوحا * الوحا ثم النجا النجا

بيان

السبب فى طول الأمل وعلاجه

اعلم ان طول الأمل له سببان : أحدهما الجهل ، والآخر حب الدنيا

أما حب الدنيا فهو أنه إذا أنس بها ، وبشهواتها ، ولذاتها ، وعلائقها ، ثقل على قلبـه

* الوحا الوحا : السرعة السرعة

مفارقتها ، فامتنع قلبه من الفكر فى الموت الذى هو سبب مفارقتها ، وكل من كره شيئا دفعه عن نفسه ، والإنسان مشغوف بالأمانى الباطلة ، فيمنى نفسه أبدا بما يوافق مراده ، وإنما يوافق مراده البقاء فى الدنيا ، فلا يزال يتوهمه ويقدره فى نفسه ، ويقدر توابع البقاء وما يحتاج إليه من مال ، وأهل ، ودار ، وأصدقاء ، ودواب ، وسائر أسباب الدنيا ، فيصير قلبه عاكفا على هذا الفكر ، موقوفا عليه ، فيلهو عن ذكر الموت ، فلا يقدر قربه . فإن خطر له فى بعض الأحوال أمر الموت والحاجة إلى الاستعداد له ،سوّف ووعد نفسه وقال الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب . وإذا كبر فيقول : إلى أن تصير شيخا . فإذا صار شيخا قال : إلى أن تفرغ من بناء هذه الدار ، وعمارة هذه الضيعة ، أو ترجع من هذه السفرة ، أو تفرغ من تدبير هذا الولد ، وجهازه ، وتدبير مسكن له ، أو تفرغ من قهر هذا العدو الذى يشمت بك . فلا يزال يسوّف ويؤخر ، ولا يخوض فى شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال أخر ، وهكذا على التدريج يؤخر يوما بعد يوم ، ويفضى به شغل إلى شغل، بل إلى أشغال، إلى أن تخطفه المنية فى وقت لا يحتسبه ،فتطول عند ذلك حسرته

وأكثر أهل النار وصياحهم من سوف ، يقولون واحزناه من سوف . والمسوف المسكين لايدرى أن الذى يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غدا ، وإنما يزداد بطول المدة قوة ورسوخا ، ويظن أنه يتصور أن يكون للخائض فى الدنيا والحافظ لها فراغ قط وهيهات ، فما يفرغ منها إلا من أطرحها

فما قضى أحــــد منها لبانته وما انتهى أرب إلا إلى أرب

وأصل هذه الأمانى كلها حب الدنيا ، والأنس بها ، والغفلة عن معنى قوله صلى الله عليه وسلم [1] « أَحْبِبْ مَنْ أَحْبَبْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ »

وأما الجهل فهو أن الإنسان قد يعوّل على شبابه ، فيستبعد قرب الموت مع الشباب ، وليس يتفكر المسكين أن مشايخ بلده لو عدوا لكانوا أقل من عشر رجال البلد ، وإنما قلوا لأن الموت فى الشباب أكثر ، فإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبي وشاب . وقد يستبعد الموت لصحته ، ويستبعد الموت فجأة ، ولا يدري أن ذلك غير بعيد . وإن كان ذلك بعيد

---

(١) حديث أحبب من أحببت فانك مفارقه ـ الحديث : تقدم غير مرة

فالمرض بفجأة غير بعيد . وكل مرض فإنما يقع فجأة ، وإذا مرض لم يكن الموت بعيدا

ولو تفكر هذا الغافل ، وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص من شباب ، وشيب ، وكهولة ، ومن صيف ، وشتاء ، وخريف ، وربيع ، من ليل ونهار ، لعظم استشعاره ، واشتغل بالاستعداد له . ولكن الجهل بهذه الأمور وحب الدنيا دعواه إلى طول الأمل ، وإلى الغفلة عن تقدير الموت القريب ، فهو أبدا يظن أن الموت يكون بين يديه ، ولا يقدر نزوله به ووقوعه فيه . وهو أبدا يظن أنه يشيع الجنائز ، ولا يقدر أن تشيع جنازته ، لأن هذا قد تكرر عليه وألفه ، وهو مشاهدة موت غيره . فأما موت نفسه فلم يألفه ، ولم يتصور أن يألفه ، فإنه لم يقع : وإذا وقع لم يقع دفعة أخرى بعد هذه ، فهو الأول وهو الآخر ، وسبيله أن يقيس نفسه بغيره ، ويعلم أنه لابد وأن تحمل جنازته ، ويدفن في قبره . ولعل اللبن الذي يغطى به لحده قد ضرب وفرغ منه وهو لايدرى ، فتسويفه جهل محض

وإذا عرفت أن سببه الجهل وحب الدنيا ، فعلاجه دفع سببه . أما الجهل فيدفع بالفكر الصافي من القلب الحاضر ، وبسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة

وأما حب الدنيا فالعلاج في إخراجه من القلب شديد ، وهو الداء العضال الذي أعيا الأولين والآخرين علاجه ، ولا علاج له إلا الإيمان باليوم الآخر ، وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب . ومهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا ، فإن حب الخطير هو الذي يمحو عن القلب حب الحقير . فإذا رأى حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة استنكف أن يلتفت إلى الدنيا كلها ، وإن أعطي ملك الأرض من المشرق إلى المغرب . وكيف وليس عنده من الدنيا إلا قدر يسير مكدر منغص ، فكيف يفرح بها أو يترسخ في القلب حبها مع الإيمان بالآخرة ! فنسأل الله تعالى أن يرينا الدنيا كما أراها الصالحين من عباده . ولا علاج في تقدير الموت في القلب مثل النظر إلى من مات من الأقران والأشكال ، وأنهم كيف جاءهم الموت في وقت لم يحتسبوا . أما من كان مستعداً فقد فاز فوزا عظيما . وأما من كان مغرورا بطول الأمل فقد خسر خسرانا مبينا

فلينظر الإنسان كل ساعة في أطرافه وأعضائه ، وليتدبر أنها كيف تأكلها الديدان لامحالة ، وكيف تتفتت عظامها ، وليتفكر أن الدود يبدأ بحدقته اليمنى أولا أو اليسرى ،

فما على بدنه شيء إلا وهو طعمة الدود ، وماله من نفسه إلا العلم والعمل الخالص لوجه الله تعالى . وكذلك يتفكر فيما سيورده من عذاب القبر، وسؤال منكر ونكير، ومن الحشر ، والنشر ، وأهوال القيامة ، وقرع النداء يوم العرض الأكبر . فأمثال هذه الأفكار هي التي تجدد ذكر الموت على قلبه ، وتدعوه إلى الاستعداد له

بيان

مراتب الناس فى طول الأمل وقصره

اعلم أن الناس فى ذلك يتفاوتون . فمنهم من يأمل البقاء ويشتهي ذلك أبدا قال الله تعالى (يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ [1])

ومنهم من يأمل البقاء إلى الهرم وهو أقصى العمر الذى شاهده ورآه . وهو الذى يحب الدنيا حبا شديدا . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « الشَّيْخُ شَابٌّ فِي حُبِّ طَلَبِ الدُّنْيَا وَإِنِ الْتَفَّتْ تَرْقُوَتَاهُ * مِنَ الْكِبَرِ إِلَّا الَّذِينَ اتَّقَوْا وَقَلِيلٌ مَاهُمْ »

ومنهم من يأمل إلى سنة ، فلا يشتغل بتدبير ماوراءها ، فلا يقدر لنفسه وجودا فى عام قابل . ولكن هذا يستعد فى الصيف للشتاء ، وفى الشتاء للصيف . فإذا جمع مايكفيه لسنته اشتغل بالعبادة . ومنهم من يأمل مدة الصيف أو الشتاء ، فلا يدخر فى الصيف ثياب الشتاء ، ولا فى الشتاء ثياب الصيف

ومنهم من يرجع أمله إلى يوم وليلة ، فلا يستعد إلا لنهاره ، وأما للغد فلا . قال عيسى عليه السلام : لاتهتموا برزق غد ، فإن يكن غد من آجالكم فستأتى فيه أرزاقكم مع آجالكم وإن لم يكن من آجالكم فلا تهتموا لآجال غيركم

ومنهم من لايجاوز أمله ساعة ، كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم « يَاعَبْدَ اللهِ إِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالْمَسَاءِ وَإِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالصَّبَاحِ

---

(١) حديث الشيخ شاب فى حب طلب الدنيا وان التفت ترقوتاه من الكبر الا الذين اتقوا وقليل ماهم : لم أجده بهذا اللفظ وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة قلب الشيخ شاب على حب اثنتين طول الحياة وحب المال

---

(١) البقرة . ٩٦

---

* الترقوة : مقدم الحلق فى اعلى الصدر حيثما يترقى فيه النفس

ومنهم من لا يقدر البقاء أيضا ساعة . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتيمم مع القدرة على الماء قبل مضي ساعة ويقول « لَعَلِّي لاَ أَبْلُغُهُ »

ومنهم من يكون الموت نصب عينيه ، كأنه واقع به ، فهو ينتظره . وهذا الإنسان هو الذي يصلي صلاة مودع . وفيه ورد مانقل عن [1] معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه ، لما سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حقيقة إيمانه فقال ، ماخطوت خطوة إلا ظننت أني لاأتبعها أخرى . وكما نقل عن الأسود وهو حبشي ، أنه كان يصلي ليلا ويلتفت يمينا وشمالا فقال له قائل ماهذا ؟ قال أنظر ملك الموت من أي جهة يأتيني

فهذه مراتب الناس . ولكل درجات عند الله . وليس من أمله مقصور على شهر كمن أمله شهر ويوم ، بل بينهما تفاوت في الدرجة عند الله ، فإن الله لايظلم مثقال ذرة ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ثم يظهر أثر قصر الأمل في المبادرة إلى العمل . وكل إنسان يدعي أنه قصير الأمل وهو كاذب ، وإنما يظهر ذلك بأعماله ، فإنه يعتني بأسباب ربما لايحتاج إليها في سنة ، فيدل ذلك على طول أمله . وإنما علامة التوفيق أن يكون الموت نصب العين لاينفل عنه ساعة . فليستعد للموت الذي يرد عليه في الوقت . فإن عاش إلى المساء شكر الله تعالى على طاعته ، وفرح بأنه لم يضيع نهاره ، بل استوفى منه حظه ، وادخره لنفسه . ثم يستأنف مثله إلى الصباح ؛ وهكذا إذا أصبح . ولا يتيسر هذا إلا لمن فرغ القلب عن الغد وما يكون فيه . فمثل هذا إذا مات سعد وغنم ، وإن عاش سر بحسن الاستعداد ولذة المناجاة فالموت له سعادة ، والحياة له مزيد

فليكن الموت على بالك يامسكين ، فإن السير حاث بك وأنت غافل عن نفسك ، ولعلك قد قاربت المنزل وقطعت المسافة ، ولا تكون كذلك إلا بمبادرة العمل اغتناما لكل نفس أمهلت فيه

---

(١) حديث سؤاله لمعاذ عن حقيقة ايمانه فقال ماخطوت خطوة الاظننت انى لاأتبعها أخرى : أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وهو ضعيف

بيان

المبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير

اعلم أن من له أخوان غائبان وينتظر قدوم أحدهما في غد ، وينتظر قدوم الآخر بعد شهر أو سنة ، فلا يستعد للذي يقدم إلى شهر أو سنة ، وإنما يستعد للذي ينتظر قدومه غدا . فالاستعداد نتيجة قرب الانتظار . فمن انتظر مجيء الموت بعد سنة اشتغل قلبه بالمدة ، ونسي ما وراء المدة ، ثم يصبح كل يوم وهو منتظر للسنة بكمالها ، لا ينقص منها اليوم الذي مضى . وذلك يمنعه من مبادرة العمل أبدا ، فإنه أبدا يرى لنفسه متسعا في تلك السنة، فيؤخر العمل، كما قال صلى الله عليه وسلم [1] « مَا يَنْتَظِرُ أَحَدُكُمْ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ غِنًى مُطْغِياً أَوْ فَقْرًا مُنْسِياً أَوْ مَرَضاً مُفْسِداً أَوْ هَرَمًا مُقَيِّداً أَوْ مَوْتاً مُجْهِزًا أَوِ الدَّجَّالَ فَالدَّجَّالُ شَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوِ السَّاعَةَ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ »

وقال [2] ابن عباس: قال النبي صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه « اغْتَنِمْ خَمْساً قَبْلَ خَمْسٍ شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ »

وقال صلى الله عليه وسلم [3] « نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ » أي أنه لا يغتنمهما ، ثم يعرف قدرهما عند زوالهما

وقال صلى الله عليه وسلم [4] « مَنْ خَافَ أَدْلَجَ وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الْجَنَّةُ »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [5] « جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ وَجَاءَ

---

(١) حديث ما ينتظر أحدكم من الدنيا الا غنى مطغيا أو فقرا منسيا ـ الحديث : الترمذي من حديث أبي هريرة بلفظ هل ينتظرون الا غناء ـ الحديث : وقال حسن ورواه ابن المبارك في الزهد ومن طريقه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل بلفظ المصنف وفيه من لم يسم

(٢) حديث ابن عباس اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك ـ الحديث : ابن أبي الدنيا فيه باسناد حسن ورواه ابن المبارك في الزهد من رواية عمرو بن ميمون الأزدي مرسلا

(٣) حديث نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ : البخاري من حديث ابن عباس وقد تقدم

(٤) حديث من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل : الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن

(٥) حديث جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ـ الحديث : الترمذي وحسنه من حديث أبي بن كعب

الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ »[١] : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أنس من أصحابه غفلة أو غرة، نادى فيهم بصوت رفيع « أَتَتْكُمُ الْمَنِيَّةُ رَاتِبَةً لَازِمَةً إِمَّا بِشَقَاوَةٍ وَإِمَّا بِسَعَادَةٍ »

وقال[٢] أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَنَا النَّذِيرُ وَالْمَوْتُ الْمُغِيرُ وَالسَّاعَةُ الْمَوْعِدُ » . وقال[٣] ابن عمر : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على أطراف السعف فقال « مَابَقِيَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا كَمَا بَقِيَ مِنْ يَوْمِنَا هَذَا فِي مِثْلِ مَامَضَى مِنْهُ » : وقال صلى الله عليه وسلم[٤] « مَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ ثَوْبٍ شُقَّ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ فَبَقِيَ مُتَعَلِّقًا بِخَيْطٍ فِي آخِرِهِ فَيُوشِكُ ذَلِكَ الْخَيْطُ أَنْ يَنْقَطِعَ » .

وقال[٥] جابر : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته، واحمرت وجنتاه ، كأنه منذر جيش يقول « صَبَّحَتْكُمْ وَمَسَّتْكُمْ بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ » وقرن بين أصبعيه . وقال[٦] ابن مسعود رضي الله عنه : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ [١]) فقال « إِنَّ النُّورَ دَخَلَ الصَّدْرَ انْفَسَحَ » فقيل يارسول الله هل لذلك من علامة تعرف؟ قال « نَعَمْ ، التَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ وَالْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ وَالاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ »

وقال السدي : (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا [٢]) أي أيكم أكثر للموت ذكرا ، وأحسن له استعدادا ، وأشد منه خوفا وحذرا

---

(١) حديث كان إذا أنس من أصحابه غفلة أوغرة نادى فيهم بصوت رفيع أتتكم المنية . الحديث: ابن أبي الدنيا في قصر الأمل من حديث زيد السليمي مرسلا

(٢) حديث أبي هريرة أنا النذير والموت المغير والساعة الموعد :ابن أبي الدنيا في قصر الأمل وأبو القاسم البغوي باسناد فيه لين

(٣) حديث ابن عمر خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على أطراف السعف فقال مابقي من الدنيا إلا مثل مابقي من يومنا هذا في مثل مامضى منه :ابن أبي الدنيا فيه باسناد حسن وللترمذي نحوه من حديث أبي سعيد وحسنه

(٤) حديث مثل الدنيا مثل ثوب شق من أوله الى آخره ـ الحديث: ابن أبي الدنيا فيه من حديث أنس ولا يصح

(٥) حديث جابر كان اذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه ـ الحديث: مسلم وابن أبي الدنيا في قصر الأمل واللفظ له

(٦) حديث ابن مسعود تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام فقال ان النور اذا دخل القلب انفسح ـ الحديث: ابن أبي الدنيا في قصر الأمل والحاكم في المستدرك وقد تقدم

(١) الأنعام : ١٢٥ (٢) الملك : ٢

وقال حذيفة ما من صباح ولا مساء إلا ومناد ينادي : أيها الناس ، الرحيل الرحيل . وتصديق ذلك قوله تعالى (إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ [(١)]) في الموت . وقال سحيم مولى بني تميم : جلست إلى عامر بن عبد الله وهو يصلي ، فأوجز في صلاته ثم أقبل علي فقال : أرحني بحاجتك فإني أبادر قلت وما تبادر؟ قال ملك الموت رحمك الله . قال فقمت عنه ، وقام إلى صلاته

ومر داود الطائي فسأله رجل عن حديث فقال : دعني إنما أبادر خروج نفسي

قال عمر رضي الله عنه . التؤدة في كل شيء خير إلا في أعمال الخير للآخرة

وقال المنذر . سمعت مالك بن دينار يقول لنفسه . ويحك بادري قبل أن يأتيك الأمر ، ويحك بادري قبل أن يأتيك الأمر ، حتى كرر ذلك ستين مرة أسمعه ولا يراني

وكان الحسن يقول في موعظته : المبادرة المبادرة ، فإنما هي الأنفاس لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التي تتقربون بها إلى الله عز وجل . رحم الله امرأ نظر إلى نفسه ، وبكى على عدد ذنوبه . ثم قرأ هذه الآية (إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا [(٢)]) يعني الأنفاس ، آخر العدد خروج نفسك ، آخر العدد فراق أهلك ، آخر العدد دخولك في قبرك

واجتهد أبو موسى الأشعري قبل موته اجتهادا شديدا ، فقيل له لو أمسكت أو رفقت بنفسك بعض الرفق ؟ فقال إن الخيل إذا أرسلت فقاربت رأس مجراها أخرجت جميع ما عندها . والذي بقي من أجلي أقل من ذلك : قال فلم يزل على ذلك حتى مات ، وكان يقول لامرأته : شدي رحلك ، فليس على جهنم معبر

وقال بعض الخلفاء على منبره : عباد الله ، اتقوا الله ما استطعتم ، وكونوا قوما صيح بهم فانتبهوا ، وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا ، واستعدوا للموت فقد أظلكم ، وترحلوا فقد جد بكم ، وإن غاية تنقصها اللحظة ، وتهدمها الساعة ، لجديرة بقصر المدة . وإن غائبا يحدو به الجديدان الليل والنهار لحري بسرعة الأوبة ، وإن قادما يحل بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدة . فالتقي عند ربه من ناصح نفسه ، وقدم توبته . و غلب شهوته ، فإن أجله مستور عنه ، وأمله خادع له والشيطان موكل به ، يمنيه التوبة ليسوفها ، ويزين

---

(١) المدثر : ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ (٢) مريم : ٣٤

إليه المعصية ليرتكبها ، حتى تهجم منيته عليه أغفل ما يكون عنها : وإنه ما بين أحدكم وبين الجنة أو النار إلا الموت أن ينزل به . فيالها حسرة على ذى غفلة أن يكون عمره عليه حجة ، وأن تردّيه أيامه إلى شقوة ، جعلنا الله وإياكم ممن لا تبطره نعمة ، ولا تقصر به عن طاعة الله معصية ، ولا يحل به بعد الموت حسرة إنه سميع الدعاء ، وإنه بيده الخير دائما فعال لما يشاء

وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى (فَتَنْتُمْ أَنفُسَكُمْ [١]) قال بالشهوات واللذات (وَتَرَبَّصْتُمْ [٢]) قال بالتوبة (وَارْتَبْتُمْ [٣]) قال شككتم (حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ [٤]) قال الموت (وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ [٥]) قال الشيطان

وقال الحسن : تصبروا وتشددوا فإنما هي أيام قلائل ، وإنما أنتم ركب وقوف ، يوشك أن يدعى الرجل منكم فيجيب ولا يلتفت فانتقلوا بصالح ما بحضرتكم

وقال ابن مسعود : ما منكم من أحد أصبح إلا وهو ضيف ، وماله عارية ، والضيف مرتحل ، والعارية مؤداة . [١] وقال أبو عبيدة الباجي دخلنا على الحسن فى مرضه الذى مات فيه ، فقال: مرحبا بكم وأهلا ، حياكم الله بالسلام : وأحلنا وإياكم دار المقام: هذه علانية حسنة إن صبرتم وصدقتم واتقيتم ، فلا يكن حظكم من هذا الخبر رحمكم الله أن تسمعوه بهذه الأذن ، وتخرجوه عن هذه الأذن ، فإن من رأى محمدا صلى الله عليه وسلم فقد رآه غاديا ورائحا ، لم يضع لبنة على لبنة ، ولا قصبة على قصبة ، ولكن رفع له علم فشمر إليه ، الوحا الوحا ، النجا النجا . علام تعرجون ؟ أتيتم ورب الكعبة كأنكم والأمر معا ، رحم الله عبدا جعل العيش عيشا واحدا ، فأكل كسرة ، ولبس خلقا ، ولزق بالأرض ، واجتهد فى العبادة ، وبكى على الخطيئة ، وهرب من العقوبة ، وابتغى الرحمة حتى يأتيه أجله وهو على ذلك

وقال عاصم الأحول . قال لى فضيل الرقاشي وأنا سائله : ياهذا لا يشغلنك كثرة الناس عن نفسك ، فإن الأمر يخلص إليك دونهم . ولا تقل أذهب ههنا وههنا ، فينقطع عنك النهار

---

(١) حديث أبي عبيدة الباجي دخلنا على الحسن فى مرضه الذى مات فيه فقال مرحبا بكم . الحديث : ابن أبي الدنيا فى قصر الأمل وابن حبان فى الثقات وأبو نعيم فى الحلية من هذا الوجه

(١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥) الحديد : ١٤

فى لاشىء ، فإن الأمر محفوظ عليك ، ولم تر شيئا قط أحسن طلبا ولا أسرع إدراكا من حسنة حديثة لذنب قديم

الباب الثالث

فى سكرات الموت وشدته وما يستحب من الأحوال عنده

اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب، ولا هول ، ولا عذاب ، سوى سكرات الموت بمجردها ، لكان جديرا بأن يتنغص عليه عيشه ، ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته ، وحقيقا بأن يطول فيه فكره ، ويعظم له استعداده ، لاسيما وهو فى كل نفس بصدده . كما قال بعض الحكماء: كرب بيد سواك ، لاتدرى متى يغشاك

وقال لقمان لابنه : يابني ؛ أمر لاتدرى متى يلقاك ، استعد له قبل أن يفجأك

والعجب أن الإنسان لو كان فى أعظم اللذات وأطيب مجالس اللهو : فانتظر أن يدخل عليه جندى فيضربه خمس خشبات ، لتكدرت عليه لذته وفسد عليه عيشه وهو فى كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع ، وهو عنه غافل . فما لهذا سبب إلا الجهل والغرور

واعلم أن شدة الألم فى سكرات الموت لايعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها . ومن لم يذقها فإنما يعرفها إما بالقياس إلى الآلام التى أدركها ، وإما بالاستدلال بأحوال الناس فى النزع على شدة ماهم فيه . فأما القياس الذى يشهدله فهو أن كل عضو لاروح فيه فلا يحس بالألم . فإذا كان فيه الروح فالمدرك للألم هو الروح . فمهما أصاب العضو جرح أو حريق سرى الأثر إلى الروح ، فبقدر مايسرى إلى الروح يتألم . والمؤلم يتفرق على اللحم ، والدم ، وسائر الأجزاء ، فلا يصيب الروح إلا بعض الألم . فإن كان فى الآلام مايباشر نفس الروح ولايلاقى غيره ، فما أعظم ذلك الألم وما أشده ! والنزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح ، فاستغرق جميع أجزائه ، حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشر فى أعماق البدن إلا وقد حل به الألم . فلو أصابته شوكة فالألم الذى يجده إنما يجرى فى جزء من الروح يلاقى ذلك الموضع الذى أصابته الشوكة .

وإنما يعظم أثر الاحتراق لأن أجزاء النار تغوص فى سائر أجزاء البدن ، فلا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهرا وباطنا إلا وتصيبه النار ، فتحسه الأجزاء الروحانية المنتشرة فى سائر أجزاء اللحم . وأما الجراحة فإنما تصيب الموضع الذى مسه الحديد فقط ، فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النار . فألم النزع يهجم على نفس الروح ، ويستغرق جميع أجزائه ، فإنه المنزوع المجذوب من كل عرق من العروق ، وعصب من الأعصاب ، وجزء من الأجزاء ، ومفصل من المفاصل ، ومن أصل كل شعرة وبشرة من الفرق إلى القدم فلا تسأل عن كربه وألمه ، حتى قالوا إن الموت لأشد من ضرب بالسيف ، ونشر بالمناشير ، وقرض بالمقاريض . لأن قطع البدن بالسيف إنما يؤلم لتعلقه بالروح ، فكيف إذا كان المتناول المباشر نفس الروح . وإنما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء قوته فى قلبه وفى لسانه . وإنما انقطع صوت الميت وصياحه مع شدة ألمه لأن الكرب قد بالغ فيه ، وتصاعد على قلبه ، وبلغ كل موضع منه ، فهد كل قوة ، وضعف كل جارحة ، فلم يترك له قوة الاستغاثة . أما العقل فقد غشيه وشوشه . وأما اللسان فقد أبكمه . وأما الأطراف فقد ضعفها . ويود لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغاثة ، ولكنه لا يقدر على ذلك . فإن بقيت فيه قوة سمعت له عند نزع الروح وجذبها خوارا وغرغرة من حلقه وصدره ، وقد تغير لونه وأربد ، حتى كأنه ظهر منه التراب الذى هو أصل فطرته ، وقد جذب منه كل عرق على حياله . فالألم منتشر فى داخله وخارجه حتى ترتفع الحدقتان إلى أعالى أجفانه ، وتتقلص الشفتان ، ويتقلص اللسان إلى أصله ، وترتفع الانثيان إلى أعالى موضعهما ، وتخضر أنامله . فلا تسل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه . ولو كان المجذوب عرقا واحدا لكان ألمه عظيما ، فكيف والمجذوب نفس الروح المتألم ، لا من عرق واحد ، بل من جميع العروق . ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجا ، فتبرد أولا قدماه ، ثم ساقاه ، ثم فخذاه . ولكل عضو سكرة بعد سكرة ، وكربة بعد كربة ، حتى يبلغ بها إلى الحلقوم ، فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ، ويغلق دونه باب التوبة

ويحيط به الحسرة والندامة . [١] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تُقْبَلُ تَوْبَةُ الْعَبْدِ مَالَمْ يُغَرْغِرْ » وقال مجاهد فى قوله تعالى (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ [١]) قال : إذا عاين الرسل فعند ذلك تبدو له صفحة وجه ملك الموت ، فلا تسأل عن طعم مرارة الموت وكربه عند ترادف سكراته ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول [٢] « اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَى مُحَمَّدٍ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ »

والناس إنما لا يستعيذون منه ولا يستعظمونه لجهلهم به ، فإن الأشياء قبل وقوعها إنما تدرك بنور النبوة والولاية . ولذلك عظم خوف الأنبياء عليهم السلام والأولياء من الموت ، حتى قال عيسى عليه السلام : يامعشر الحواريين ادعوا الله تعالى أن يهون علي هذه السكرة ، يعني الموت ، فقد خفت الموت مخافة أوقفني خوفي من الموت على الموت

وروي أن نفرا من بني إسرائيل مروا بمقبرة ، فقال بعضهم لبعض : لو دعوتم الله تعالى أن يخرج لكم من هذه المقبرة ميتا تسألونه ، فدعوا الله تعالى ، فإذا هم برجل قد قام وبين عينيه أثر السجود ، قد خرج من قبر من القبور ، فقال ياقوم : ما أردتم مني ؟ لقد ذقت الموت منذ خمسين سنة ماسكنت مرارة الموت من قلبي

وقالت عائشة رضي الله عنها : لا أغبط أحدا يهون عليه الموت بعد الذى رأيت من شدة موت رسول الله صلى الله عليه وسلم

وروي أنه عليه السلام [٣] كان يقول « اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَأْخُذُ الرُّوحَ مِنْ بَيْنِ الْعَصَبِ وَالْقَصَبِ وَالْأَنَامِلِ اللَّهُمَّ فَأَعِنِّي عَلَى الْمَوْتِ وَهَوِّنْهُ عَلَيَّ »

وعن الحسن [٤] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الموت وغصته وألمه فقال

﴿ الباب الثالث فى سكرات الموت ﴾

(١) حديث ان الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر : الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث ابن عمر

(٢) حديث كان يقول اللهم هون على محمد سكرات الموت : تقدم

(٣) حديث كان يقول اللهم انك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والأنامل ـ الحديث : ابن أبي الدنيا فى كتاب الموت من حديث صعصعة بن غيلان الجعفي وهو معضل سقط منه الصحابي والتابعي

(٤) حديث الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الموت وغصته وألمه فقال هو قدر ثلثمائة ضربة بالسيف ابن أبي الدنيا فيه هكذا مرسلا ورجاله ثقات .

---

(١) النساء : ١٨

« هُوَ قَدْرُ ثَلثِمِائَةِ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ » [1] . وسئل صلى الله عليه وسلم عن الموت وشدته فقال « إِنَّ أَهْوَنَ الْمَوْتِ بِمَنْزِلَةِ حَسَكَةٍ فِي صُوفٍ فَهَلْ تَخْرُجُ الْحَسَكَةُ مِنَ الصُّوفِ إِلاَّ وَمَعَهَا صُوفٌ » [2] . ودخل صلى الله عليه وسلم على مريض ثم قال « إِنِّي أَعْلَمُ مَا يَلْقَى. مَامِنْهُ عِرْقٌ إِلاَّ وَيَأْلَمُ لِلْمَوْتِ عَلَى حِدَتِهِ »

وكان علي كرم الله وجهه يحض على القتال ويقول : إن لم تقتلوا تموتوا . والذى نفسى بيده لألف ضربة بالسيف أهون علي من موت على فراش

وقال الأوزاعي : بلغنا أن الميت يجد ألم الموت مالم يبعث من قبره

وقال شداد بن أوس : الموت أفظع هول فى الدنيا والآخرة على المؤمن . وهو أشد من نشر بالمناشير ، وقرض بالمقاريض ، وغلي فى القدور . ولو أن الميت نشر فأخبر أهل الدنيا بالموت ماانتفعوا بعيش ، ولا لذوا بنوم . وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال : إذا بقي على المؤمن من درجاته شيء لم يبلغها بعمله شدد عليه الموت ليبلغ بسكرات الموت وكربه درجته فى الجنة . وإذا كان للكافر معروف لم يجز به ، هون عليه فى الموت ليستكمل ثواب معروفه فيصير إلى النار . وعن بعضهم أنه كان يسأل كثيرا من المرضى كيف تجدون الموت فلما مرض قيل له: فأنت كيف تجده؟ فقال: كأن السموات مطبقة على الأرض. وكأن نفسى يخرج من ثقب إبرة . وقال صلى الله عليه وسلم [3] « مَوْتُ الْفَجْأَةِ رَاحَةٌ لِلْمُؤْمِنِ وَأَسَفٌ عَلَى الْفَاجِرِ » . وروي عن [4] مكحول ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لَوْ أَنَّ شَعْرَةً مِنْ شَعْرِ الْمَيِّتِ وُضِعَتْ عَلَى أَهْلِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَمَاتُوا بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى »

---

(١) حديث سئل عن الموت وشدته فقال ان أهون الموت بمنزلة حسكة ـ الحديث : ابن أبي الدنيا فيه من رواية شهر بن حوشب مرسلا

(٢) حديث دخل على مريض فقال اني لأعلم مايلقى مامنه عرق الاويألم للموت على حدته :ابن أبي الدنيا فيه من حديث سلمان بسند ضعيف ورواه فى المرض والكفارات من رواية عبيد بن عمير مرسلا مع اختلاف ورجاله ثقات

(٣) حديث موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر :احمد من حديث عائشة باسناد صحيح قال وأخذة أسف ولابي داود من حديث خالد السلمي موت الفجأة أخذة أسف

(٤) حديث مكحول لوان شعرة من شعر الميت وضعت على أهل السموات والارض لماتوا ـ الحديث : ابن أبي الدنيا فى الموت من رواية أبي ميسرة رفعه وفيه لوأن ألمشعرة وزادوان فى يوم القيامة لتسعين هولاأدناها هولا يضاعف على الموت سبعين ألف ضعف وابوميسرة هو عمرو ابن شرحبيل والحديث مرسل حسن الاسناد

لأن في كل شعرة الموتُ ، ولا يقع الموت بشيء إلا مات.

ويروى [١] لو أن قطرة من ألم الموت وضعت على جبال الدنيا كلها لذابت

وروي أن ابراهيم عليه السلام لما مات قال الله تعالى له : كيف وجدت الموت ياخليلي؟ قال كسَفُّود جعل في صوف رطب ثم جذب . فقال : أما إنا قد هوّنا عليك

وروي عن موسى عليه السلام أنه لما صارت روحه إلى الله تعالى قال له ربه : ياموسى كيف وجدت الموت ؟ قال وجدت نفسي كالعصفور حين يقلى على المقلى ، لايموت فيستريح ولا ينجو فيطير . وروي عنه أنه قال : وجدت نفسي كشاة حية تسلخ بيد القصاب

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم [٢] أنه كان عنده قدح من ماء عند الموت ، فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول « اللهمَّ هوِّنْ عَلَيَّ سَكَرَاتِ الْموْتِ » [٣] وفاطمة رضي الله عنها تقول : وا كرباه لكربك ياأبتاه ! وهو يقول « لاَكَرْبَ عَلَى أَبِيكِ بَعْدَ الْيَوْمِ » . وقال عمر رضي الله عنه لكعب الأحبار : يا كعب ، حدثنا عن الموت . فقال نعم ياأمير المؤمنين : إن الموت كغصن كثير الشوك أدخل في جوف رجل ، وأخذت كل شوكة بعرق ، ثم جذبه رجل شديد الجذب ، فأخذ ما أخذ، وأبقى ما أبقى

وقال النبي صلى الله عليه وسلم [٤] « إنَّ الْعَبْدَ لَيُعَالِجُ كَرْبَ الْموْتِ وَسَكَرَاتِ الْموْتِ وَإنَّ مَفَاصِلَهُ لَيُسَلِّمُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ تَقُولُ عَلَيْكَ السَّلاَمُ تُفَارِقُنِي وَأُفَارِقُكَ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » : فهذه سكراتُ الموت على أولياء الله وأحبابه ، فما حالنا ونحن المنهمكون في المعاصي! وتتوالى علينا مع سكرات الموت بقية الدواهي ! فإن دواهي الموت ثلاث

الأولى : شدة النزع كما ذكرناه

---

(١) حديث لو أن قطرة من الموت وضعت على جبال الدنيا كلها الذابت لم أجد له أصلا: ولعل المصنف لم يورده حديثا فانه قال ويروى

(٢) حديث انه كان عنده قدح من ماء عند الموت فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول اللهم هون علي سكرات الموت :متفق عليه من حديث عائشة

(٣) حديث ان فاطمة قالت واكرباه لكربك يا أبت ـ الحديث : البخاري من حديث أنس بلفظ واكرب أبتاه وفي رواية لابن خزيمة واكرباه

(٤) حديث ان العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وان مفاصله ليسلم بعضها على بعض ـ الحديث :

الداهية الثانية : مشاهدة صورة ملك الموت ، ودخول الروع والخوف منه على القلب فلو رأى صورته ! التي يقبض عليها روح العبد المذنب أعظم الرجال قوة لم يطق رؤيته . فقدروي عن ابراهيم الخليل عليه السلام أنه قال لملك الموت : هل تستطيع أن تريني صورتك التي تقبض عليها روح الفاجر . قال لاتطيق ذلك . قال بلى . قال فأعرض عني . فأعرض عنه ثم التفت ، فإذا هو برجل أسود ، قائم الشعر ، منتن الريح ، أسود الثياب ، يخرج من فيه ومناخيره لهيب النار والدخان . فغشي على ابراهيم عليه السلام ، ثم أفاق وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى . فقال ياملك الموت ، لولم يلق الفاجر عند الموت إلا صورة وجهك لكان حسبه . وروى [1] أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم « أَنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ رَجُلاً غَيُوراً وَكَانَ إِذَا خَرَجَ أَغْلَقَ الأَبْوَابَ فَأَغْلَقَ ذَاتَ يَوْمٍ وَخَرَجَ فَأَشْرَفَتِ امْرَأَتُهُ فَإِذَا هِيَ بِرَجُلٍ فِي الدَّارِ فَقَالَتْ مَنْ أَدْخَلَ هَذَا الرَّجُلَ لَئِنْ جَاءَ دَاوُدُ لَيَلْقَيَنَّ مِنْهُ عَنَاءً فَجَاءَ دَاوُدُ فَرَآهُ فَقَالَ مَنْ أَنْتَ ؟ فَقَالَ أَنَا الَّذِي لَا أَهَابُ الْمُلُوكَ وَلَا يَمْنَعُ مِنِّي الْحِجَابُ فَقَالَ فَأَنْتَ وَاللهِ إِذاً مَلَكُ الْمَوْتِ وَزَمَلَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَكَانَهُ »

وروي أن عيسى عليه السلام مرّ بجمجمة فضربها برجله ، فقال : تكلمي بإذن الله . فقالت ياروح الله ، أنا ملك زمان كذا وكذا ، بينا أنا جالس في ملكي عليّ تاجي ، وحولي جنودي وحشمي ، على سرير ملكي ، إذ بدالي ملك الموت ، فزال مني كل عضو على حياله ثم خرجت نفسي إليه ، فياليت ما كان من تلك الجموع كان فرقة ، وياليت ما كان من ذلك الأنس كان وحشة . فهذه داهية يلقاها العصاة ، ويكفاها المطيعون . فقد حكى الأنبياء مجرد سكرة النزع ، دون الروعة التي يدركها من يشاهد صورة ملك الموت كذلك . ولو رآها في منامه ليلة لتنغص عليه بقية عمره ، فكيف برؤيته في مثل تلك الحال

وأما المطيع فإنه يراه في أحسن صورة وأجملها . فقد روى عكرمة عن ابن عباس ، أن إبراهيم عليه السلام كان رجلا غيورا ، وكان له بيت يتعبد فيه فإذا خرج

ورويناه في الأربعين لأبي هدبة ابراهيم بن هدبة عن أنس وأبو هدبة هالك

(1) حديث أبي هريرة ان داود كان رجلا غيورا ـ الحديث : أحمد باسناد جيد نحوه وابن أبي الدنيا في كتاب الموت بلفظه

أغلقه. فرجع ذات يوم فإذا برجل فى جوف البيت ، فقال من أدخلك دارى ؟ فقال أدخلنيها ربها . فقال أنا ربها . فقال أدخلنيها من هو أملك بها منى ومنك . فقال من أنت من الملائكة ؟ قال أنا ملك الموت . قال هل تستطيع أن تريني الصورة التى تقبض فيها روح المؤمن؟ قال نعم فأعرض عنى، فأعرض ثم التفت فإذا هو بشاب، فذكر من حسن وجهه وحسن ثيابه وطيب ريحه ، فقال ياملك الموت ، لو لم يلق المؤمن عند الموت إلا صورتك كان حسبه

ومنها مشاهدة الملكين الحافظين . قال وهيب : بلغنا أنه ما من ميت يموت حتى يتراءى له ملكاه الكاتبان عمله . فإن كان مطيعا قالا له . جزاك الله عنا خيرا ، فرب مجلس صدق أجلستنا ، وعمل صالح أحضرتنا . وإن كان فاجرا قالا له لاجزاك الله عنا خيراً فرب مجلس سوء أجلستنا ، وعمل غير صالح أحضرتنا ، وكلام قبيح أسمعتنا ، فلا جزاك الله عنا خيرا . فذلك شخوص بصر الميت إليهما ، ولا يرجع إلى الدنيا أبدا

الداهية الثالثة : مشاهدة العصاة مواضعهم من النار ، وخوفهم قبل المشاهدة. فإنهم فى حال السكرات قد تخاذلت قواهم ، واستسلمت للخروج أرواحهم ، ولن تخرج أرواحهم مالم يسمعوا نغمة ملك الموت بأحد البشريين ، إما أبشريا عدوّ الله بالنار ، أو أبشريا ولىّ الله بالجنة . ومن هذا كان خوف أرباب الألباب . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم [1] « لَنْ يَخْرُجَ أَحَدُكُمْ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يَعْلَمَ أَيْنَ مَصِيرُهُ وَحَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ أَوِ النَّارِ » . وقال صلى الله عليه وسلم [2] « مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ » فقالوا . كلنا نكره الموت . قال « لَيْسَ ذَاكَ بِذَاكَ إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا فُرِجَ لَهُ عَمَّا هُوَ قَادِمٌ عَلَيْهِ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ وَأَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ »

وروي أن حذيفة بن اليمان قال لابن مسعود وهو لما به من آخر الليل . قم فانظر

---

(١) حديث لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار : ابن أبي الدنيا فى الموت من رواية رجل لم يسم عن على موقوفا لاتخرج نفس ابن آدم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره الى الجنة أم إلى النار وفى رواية حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هى أم من أهل النار وفى الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت مايشهد لذلك ان المؤمن اذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته وان الكافر اذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته ـ الحديث :

(٢) حديث من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ـ الحديث : متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت

أي ساعة هي . فقام ابن مسعود ، ثم جاءه فقال قد طلعت الحمراء . فقال حذيفة . أعوذ بالله من صباح إلى النار . ودخل مروان على أبي هريرة . فقال مروان . اللهم خفف عنه فقال أبو هريرة . اللهم اشدد ، ثم بكى أبو هريرة وقال : والله ما أبكي حزنا على الدنيا ، ولا جزعا من فراقكم ، ولكن أنتظر إحدى البشريين من ربي بجنة أم بنار

وروي في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم [1] أنه قال « إِنَّ اللهَ إِذَا رَضِيَ عَنْ عَبْدٍ قَالَ يَامَلَكَ الْمَوْتِ اذْهَبْ إِلَى فُلَانٍ فَأْتِنِي بِرُوحِهِ لِأُرِيحَهُ حَسْبِي مِنْ عَمَلِهِ قَدْ بَلَوْتُهُ فَوَجَدْتُهُ حَيْثُ أُحِبُّ فَيَنْزِلُ مَلَكُ الْمَوْتِ وَمَعَهُ خَمْسُمِائَةٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَمَعَهُمْ قُضْبَانُ الرَّيْحَانِ وَأُصُولُ الزَّعْفَرَانِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يُبَشِّرُهُ بِبِشَارَةٍ سِوَى بِشَارَةِ صَاحِبِهِ وَتَقُومُ الْمَلَائِكَةُ صَفَّيْنِ لِخُرُوجِ رُوحِهِ مَعَهُمُ الرَّيْحَانُ فَإِذَا نَظَرَ إِلَيْهِمْ إِبْلِيسُ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ ثُمَّ صَرَخَ » قال « فَيَقُولُ لَهُ جُنُودُهُ مَا لَكَ يَاسَيِّدَنَا فَيَقُولُ أَمَا تَرَوْنَ مَا أُعْطِيَ هَذَا الْعَبْدُ مِنَ الْكَرَامَةِ أَيْنَ كُنْتُمْ مِنْ هَذَا قَالُوا قَدْ جَهَدْنَا بِهِ فَكَانَ مَعْصُوماً »

وقال الحسن : لا راحة للمؤمن إلا في لقاء الله ومن كانت راحته في لقاء الله تعالى فيوم الموت يوم سروره ، وفرحه ، وأمنه ، وعزه ، وشرفه

وقيل لجابر بن زيد عند الموت . ما تشتهي ؟ قال نظرة إلى الحسن . فلما دخل عليه الحسن قيل له . هذا الحسن فرفع طرفه إليه ثم قال . ياإخواناه ، الساعة والله أفارقكم إلى النار أو إلى الجنة . وقال محمد بن واسع عند الموت : ياإخواناه ، عليكم السلام إلى النار أو يعفو الله . وتمنى بعضهم أن يبقى في النزع أبدا ولا يبعث لثواب ولا عقاب

فخوف سوء الخاتمة قطع قلوب العارفين ، وهو من الدواهي العظيمة عند الموت وقد ذكرنا معنى سوء الخاتمة ، وشدة خوف العارفين منه في كتاب الخوف والرجاء ، وهو لائق بهذا الموضع ، ولكنا لا نطول بذكره وإعادته

---

(١) حديث ان الله اذا رضى على عبده قال ياملك الموت اذهب الى فلان فأتنى بروحه لأريحه ـ الحديث : ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث تميم الداري باسناد ضعيف بزيادة كثيرة ولم يصرح في أول الحديث برفعه وفي آخره مادل على أنه مرفوع وللنسائي من حديث أبي هريرة باسناد صحيح إذا حضر الميت أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء فيقولون اخرجي راضية مرضية عنك إلى روح الله وريحان ورب راض غير غضبان ـ الحديث :

بيان

ما يستحب من أحوال المحتضر عند الموت

اعلم أن المحبوب عند الموت من صورة المحتضر هو الهدوء والسكون : ومن لسانه أن يكون ناطقا بالشهادة ، ومن قلبه أن يكون حسن الظن بالله تعالى

أما الصورة فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال [1] « ارْقُبُوا الْمَيِّتَ عِنْدَ ثَلَاثٍ إِذَا رَشَحَ جَبِينُهُ وَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ وَيَبِسَتْ شَفَتَاهُ فَهِيَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ قَدْ نَزَلَتْ بِهِ وَإِذَا غَطَّ غَطِيطَ الْمَخْنُوقِ وَاحْمَرَّ لَوْنُهُ وَأَرْبَدَتْ شَفَتَاهُ فَهُوَ مِنْ عَذَابِ اللهِ قَدْ نَزَلَ بِهِ »

وأما انطلاق لسانه بكلمة الشهادة فهي علامة الخير . قال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] « لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ » وفي رواية [3] حذيفة « فَإِنَّهَا تَهْدِمُ مَاقَبْلَهَا مِنَ الْخَطَايَا » . وقال عثمان : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [4] « مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ » وقال عبيد الله « وَهُوَ يَشْهَدُ »

وقال عثمان : إذا احتضر الميت فلقنوه لا إله إلا الله فإنه ما من عبد يختم له بها عند موته إلا كانت زاده إلى الجنة

وقال عمر رضي الله عنه . احضروا موتاكم وذكروهم ، فإنهم يرون مالا ترون ، ولقنوهم لا إله إلا الله . وقال [5] أبو هريرة . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « حَضَرَ مَلَكُ الْمَوْتِ رَجُلًا يَمُوتُ فَنَظَرَ فِي قَلْبِهِ فَلَمْ يَجِدْ فِيهِ شَيْئًا فَفَكَّ لَحْيَيْهِ فَوَجَدَ طَرَفَ لِسَانِهِ لَاصِقًا بِحَنَكِهِ يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَغُفِرَ لَهُ بِكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ »

---

(١) حديث ارقبو الميت عند ثلاث اذا رشح جبينه وذرفت عيناه ـ الحديث : الترمذي الحكيم في نوادر الاصول من حديث سلمان ولا يصح

(٢) حديث لقنوا موتاكم لا إله إلا الله : تقدم "

(٣) حديث حذيفة فانها تهدم ماقبلها : تقدم

(٤) حديث من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة : تقدم

(٥) حديث أبي هريرة حضر ملك الموت رجلا يموت فنظر في قلبه فلم يجد فيه شيئا ـ الحديث : ابن أبي الدنيا في كتاب المحتضرين والطبراني والبيهقي في الشعب واسناده جيد الا أن في رواية البيهقي رجلا لم يسم وسمى في رواية الطبراني اسحق بن يحيى بن طلحة وهو ضعيف

وينبغى للملقن أن لا يلح فى التلقين ، ولكن يتلطف ، فربما لا ينطق لسان المريض ، فيشق عليه ذلك ، ويؤدى إلى استثقاله التلقين ، وكراهيته للكلمة ، ويخشى أن يكون ذلك سبب سوء الخاتمة . وإنما معنى هذه الكلمة أن يموت الرجل وليس فى قلبه شيء غير الله ، فإذا لم يبق له مطلوب سوى الواحد الحق ، كان قدومه بالموت على محبوبه غاية النعيم فى حقه . وإن كان القلب مشغوفا بالدنيا ، ملتفتا إليها ، متأسفا على لذاتها ، وكانت الكلمة على رأس اللسان ، ولم ينطبق القلب على تحقيقها ، وقع الأمر فى خطر المشيئة فإن مجرد حركة اللسان قليل الجدوى إلا أن يتفضل الله تعالى بالقبول

وأما حسن الظن فهو مستحب فى هذا الوقت وقد ذكرنا ذلك فى كتاب الرجاء ، وقد وردت الأخبار بفضل حسن الظن بالله [1] دخل واثلة بن الأسقع على مريض فقال : أخبرنى كيف ظنك بالله ؟ قال أغرقتنى ذنوب لى ، وأشرفت على هلكة ، ولكنى أرجو رحمة ربى فكبّر واثلة ، وكبّر أهل البيت بتكبيره ، وقال الله أكبر . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يَقُولُ اللهُ تَعَالَى أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ »

[2] ودخل النبي صلى الله عليه وسلم على شاب وهو يموت ، فقال « كَيْفَ تَجِدُكَ » قال أرجو الله وأخاف ذنوبى فقال النبي صلى الله عليه وسلم « مَا اجْتَمَعَا فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ الَّذِي يَرْجُو وَآمَنَهُ مِنَ الَّذِي يَخَافُ »

وقال ثابت البنانى : كان شاب به حدّة ، وكان له أم تعظه كثيرا وتقول له . يابنى ، إن لك يوما فاذكر يومك . فلما نزل به أمر الله تعالى أكبت عليه أمه ، وجعلت تقول له يابنى ، قد كنت أحذرك مصرعك هذا وأقول إن لك يوما . فقال يا أمه ، إن لى ربا كثير المعروف ، وإنى لأرجو أن لا يعدمنى اليوم بعض معروفه . قال ثابت . فرحمه الله بحسن ظنه بربه • وقال جابر بن وداعة . كان شاب به رهق فاحتضر ، فقالت له أمه يابنى توصى بشيء ؟ قال نعم خاتمى لا تسلبينيه ، فإن فيه ذكر الله تعالى ، فلعل الله يرحمنى . فلما دفن رؤى فى المنام فقال . أخبروا أمى أن الكلمة قد نفعتنى ، وأن الله قد غفر لى

---

(١) حديث دخل واثلة بن الاسقع على مريض فقال أخبرنى كيف ظنك بالله وفيه يقول الله أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ماشاء ابن حبان بالمرفوع منه وقد تقدم وأحمد والبيهقى فى الشعب به جميعا

(٢) حديث دخل على شاب وهو يموت فقال كيف تجدك فقال أرجو الله وأخاف ذنوبى ـ الحديث : تقدم

ومرض أعرابي ، فقيل له إنك تموت . فقال أين يذهب بي ؟ قالوا إلى الله قال فما كراهتي أن أذهب إلى من لا أرى الخير إلا منه

وقال أبو المعتمر بن سليمان : قال أبي لما حضرته الوفاة : يامعتمر ، حدثني بالرخص لعلي ألقى الله عز وجل وأنا حسن الظن به . وكانوا يستحبون أن يذكر للعبد محاسن عمله عند موته لكي يحسن ظنه بربه

بيان

الحسرة عند لقاء ملك الموت بحكايات يعرب لسان الحال عنها

قال أشعث بن أسلم : سأل ابراهيم عليه السلام ملك الموت ، واسمه عزرائيل ، وله عينان ، عين في وجهه ، وعين في قفاه ، فقال يا ملك الموت ، ماتصنع إذا كان نفس بالمشرق ونفس بالمغرب ، ووقع الوباء بأرض ، والتقى الزحفان ، كيف تصنع ؟ قال أدعو الأرواح بإذن الله فتكون بين أصبعي هاتين . وقال قد دحيت له الأرض فتركت مثل الطشت بين يديه ، يتناول منها مايشاء . قال وهو يبشره بأنه خليل الله عز وجل

وقال سليمان بن داود عليهما السلام لملك الموت عليه السلام : مالي لا أراك تعدل بين الناس ، تأخذ هذا وتدع هذا ؟ قال ماأنا بذلك بأعلم منك إنما هي صحف أو كتب تلقى إليّ فيها أسماء . وقال وهب بن منبه : كان ملك من الملوك أراد أن يركب إلى أرض ، فدعا بثياب ليلبسها ، فلم تعجبه ، فطلب غيرها حتى لبس ماأعجبه بعد مرات . وكذلك طلب دابة فأتي بها فلم تعجبه ، حتى أتي بدواب ، فركب أحسنها . فجاء إبليس فنفخ في منخره نفخة ، فملاه كبرا ثم سار وسارت معه الخيول ، وهو لا ينظر إلى الناس كبرا . فجاءه رجل رث الهيئة ، فسلم فلم يرد عليه السلام . فأخذ بلجام دابته ، فقال أرسل اللجام فقد تعاطيت أمرا عظيما . قال إن لي إليك حاجة . قال أصبر حتى أنزل . قال لا الآن . فقهره على لجام دابته . فقال اذكرها . قال هو سر . فأدنى له رأسه ، فساره وقال : أنا ملك الموت . فتغير لون الملك ، واضطرب لسانه ؛ ثم قال دعني حتى أرجع إلى أهلي ، وأقضي حاجتي ، وأودعهم قال لا والله لا ترى أهلك وثقلك أبدا . فقبض روحه ، فخر كأنه خشبة ، ثم مضى فلقي

عبدا مؤمنا فى تلك الحال ، فسلم عليه فرد عليه السلام ، فقال إن لى إليك حاجة أذكرها فى أذنك . فقال هات . فساره وقال : أنا ملك الموت . فقال أهلا ومرحبا بمن طالت غيبته عليّ ، فو الله ما كان فى الأرض غائب أحب إليّ أن ألقاه منك . فقال ملك الموت : اقض حاجتك التى خرجت لها . فقال مالى حاجة أكبر عندى ولا أحب من لقاء الله تعالى ، قال فاختر على أي حال شئت أن أقبض روحك ، فقال تقدر على ذلك ؟ قال نعم إنى أمرت بذلك ، قال فدعنى حتى أتوضأ وأصلى ، ثم اقبض روحى وأنا ساجد . فقبض روحه وهو ساجد

وقال أبو بكر بن عبد الله المزنى : جمع رجل من بنى إسرائيل مالا ، فلما أشرف على الموت قال لبنيه : أرونى أصناف أموالى . فأتي بشيء كثير من الخيل ، والإبل ، والرقيق ، وغيره فلما نظر إليه بكى تحسرا عليه . فرآه ملك الموت وهو يبكى . فقال له مايبكيك ؟ فو الذى خولك ما أنا بخارج من منزلك حتى أفرق بين روحك وبدنك . قال فالمهلة حتى أفرقه . قال هيهات انقطعت عنك المهلة ، فهلا كان ذلك قبل حضور أجلك ! فقبض روحه

وروي أن رجلا جمع مالا فأوعى ، ولم يدع صنفا من المال إلا اتخذه ، وابتنى قصرا ، وجعل عليه بابين وثيقين ، وجمع عليه حرسا من غلمانه ، ثم جمع أهله وصنع لهم طعاما ، وقعد على سرير ، ورفع إحدى رجليه على الأخرى وهم يأكلون . فلما فرغوا قال : يانفس أنعمى لسنين ، فقد جمعت لك ما يكفيك . فلم يفرغ من كلامه حتى أقبل إليه ملك الموت فى هيئة رجل عليه خلقان من الثياب ، وفى عنقه مخلاة يتشبه بالمساكين . فقرع الباب بشدة عظيمة قرعا أفزعه وهو على فراشه . فوثب إليه الغلمان وقالوا : ما شأنك ؟ فقال ادعو إليّ مولاكم . فقالوا وإلى مثلك يخرج مولانا ؟ قال نعم . فأخبروه بذلك . فقال هلا فعلتم به وفعلتم : فقرع الباب قرعة أشد من الأولى ، فوثب إليه الحرس . فقال أخبروه أنى ملك الموت . فلما سمعوه ألقى عليهم الرعب ، ووقع على مولاهم الذل والتخشع . فقال قولوا له قولا لينا ، وقولوا هل تأخذ به أحدا ؟ فدخل عليه وقال : اصنع فى مالك ما أنت صانع ، فأنى لست بخارج منها حتى أخرج روحك . فأمر بماله حتى وضع بين يديه ، فقال حين رآه لعنك الله من مال أنت شغلتنى عن عبادة ربى ، ومنعتنى أن أتخلى لربى . فأنطق الله المال فقال : لم تسبنى وقد كنت تدخل على السلاطين بى : ويرد المتقى عن بابهم ؟

وكنت تنكح المتنعمات بى ، وتخلس مجالس الملوك بى ؟ وتنفقنى فى سبيل الشر فلا أمتنع منك ، ولو أنفقتنى فى سبيل الخير نفعتك خلقت وابن آدم من تراب ، فنطاق ببر ، ومنطاق بإثم . ثم قبض ملك الموت روحه فسقط

وقال وهب بن منبه : قبض ملك الموت روح جبار من الجبابرة ، ما فى الأرض مثله ، ثم عرج إلى السماء ، فقالت الملائكة لمن كنت أشد رحمة ممن قبضت روحه ؟ قال أمرت بقبض نفس امرأة فى فلاة من الأرض ، فأتيتها وقد ولدت مولودا ، فرحمتها لغربتها ، ورحمت ولدها لصغره وكونه فى الفلاة لامتعهد له بها فقالت الملائكة · الجبار الذى قبضت الآن روحه هو ذلك المولود الذى رحمته . فقال ملك الموت · سبحان اللطيف لمن يشاء

قال عطاء بن يسار : إذا كان ليلة النصف من شعبان ، دفع إلى ملك الموت صحيفة ، فيقال اقبض فى هذه السنة من فى هذه الصحيفة . قال فإن العبد ليغرس الغراس ، وينكح الأزواج ، ويبنى البنيان ، وإن اسمه فى تلك الصحيفة وهو لا يدرى

وقال الحسن : مامن يوم إلا وملك الموت يتصفح كل بيت ثلاث مرات ، فمن وجده منهم قد استوفى رزقه ، وانقضى أجله ، قبض روحه . فإذا قبض روحه أقبل أهله برنة وبكاء ، فيأخذ ملك الموت بعضادتي الباب فيقول : والله ماأكلت له رزقا ، ولا أفنيت له عمرا ، ولا انتقصت له أجلا . وإن لى فيكم لعودة بعد عودة ، حتى لا أبقى منكم أحدا . قال الحسن : فوالله لو يرون مقامه ، ويسمعون كلامه ، لذهلوا عن ميتهم ، ولبكوا على أنفسهم

وقال يزيد الرقاشي : بينما جبار من الجبابرة من بنى إسرائيل جالس فى منزله قد خلا ببعض أهله ، إذ نظر إلى شخص قد دخل من باب بيته ، فثار إليه فزعا مغضبا ، فقال له من أنت ؟ ومن أدخلك على دارى ؟ فقال أما الذى أدخلنى الدار فربها . وأما أنا فالذى لا يمنع منى الحجاب ، ولا أستأذن على الملوك ، ولا أخاف صولة المتسلطنين ، ولا يمتنع منى كل جبار عنيد ، ولا شيطان مريد . قال فسقط فى يده الجبار ، وارتعد حتى سقط منكبا على وجهه ، ثم رفع رأسه إليه مستجديا متذللا له ، فقال له : أنت إذاً ملك الموت . قال أنا هو . قال فهل أنت ممهلى حتى أحدث عهدا ؟ قال هيهات انقطعت مدتك ، وانقضت أنفاسك ، ونفدت ساعاتك ،

فليس إلى تأخيرك سبيل . قال فإلى أين تذهب بى ؟ قال إلى عملك الذى قدمته : وإلى بيتك الذى مهدته قال فإنى لم أقدم عملا صالحا . ولم أمهد بيتا حسنا . قال فإلى لظى نزاعة للشوى. ثم قبض روحه ، فسقط ميتا بين أهله . فمن بين صارخ وباك

قال يزيد الرقاشى : لو يعلمون سوء المنقلب كان العويل على ذلك أكثر

وعن الأعمش ، عن خيثمة قال : دخل ملك الموت على سليمان بن داود عليهما السلام ، فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه ، فلما خرج قال الرجل من هذا ؟ قال هذا ملك الموت . قال لقد رأيته ينظر إلىّ كأنه يريدني . قال فماذا تريد ؟ قال أريد أن تخلصنى منه فتأمر الريح حتى تحملنى إلى أقصى الهند . ففعلت الريح ذلك . ثم قال سليمان لملك الموت بعد أن أتاه ثانيا : رأيتك تديم النظر إلى واحد من جلسائى ، قال نعم : كنت أتعجب منه ، لأنى كنت أمرت أن أقبضه بأقصى الهند فى ساعة قريبة ، وكان عندك فعجبت من ذلك

الباب الرابع

فى وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده

وفاة .. رسول الله صلى الله عليه وسلم

اعلم أن فى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة حيا وميتا ، وفعلا وقولا . وجميع أحواله عبرة للناظرين ، وتبصرة للمستبصرين ، إذ لم يكن أحد أكرم على الله منه إذ كان خليل الله وحبيبه ونجيه ، وكان صفيه ، ورسوله ، ونبيه . فانظر هل أمهله ساعة عند انقضاء مدته ؟ وهل أخره لحظة بعد حضور منيته ؟ لا بل أرسل إليه الملائكة الكرام الموكلين بقبض أرواح الأنام ، فجدوا بروحه الزكية الكريمة لينقلوها ، وعالجوها ليرحلوها عن جسده الطاهر إلى رحمة ورضوان ، وخيرات حسان . بل إلى مقعد صدق فى جوار الرحمن . فاشتد مع ذلك فى النزع كربه وظهر أنينه ، وترادف قلقه وارتفع حنينه ، وتغير لونه وعرق جبينه، واضطربت فى الانقباض والانبساط شماله ويمينه ، حتى بكى لمصرعه من حضره ، وانتحب لشدة حاله من شاهد منظره . فهل رأيت منصب النبوّة دافعا عنه مقدورا ؟ وهل راقب

الملك فيه أهلا وعشيرا ؟ وهل سامحه إذ كان للحق نصيرا ، وللخلق بشيرا ونذيرا ؟ هيهات، بل امتثل ما كان به مأمورا ، واتبع ماوجده فى اللوح مسطورا . فهذا كان حاله وهو عند الله ذو المقام المحمود ، والحوض المورود . وهو أول من تنشق عنه الأرض ، وهو صاحب الشفاعة يوم العرض . فالعجب أنا لانعتبر به ، ولسنا على ثقة فيما نلقاه . بل نحن أسراء الشهوات ، وقرناء المعاصى والسيآت ، فما بالنا لا نتعظ بمصرع محمد سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، وحبيب رب العالمين ؟ لعلنا نظن أنا مخلدون ، أو نتوهم أنا مع سوء أفعالنا عند الله مكرمون ، هيهات هيهات ، بل نتيقن أنا جميعا على النار واردون ، ثم لا ينجو منها إلا المتقون . فنحن للورود مستيقنون، وللصدور عنها متوهمون. لا بل ظلمنا أنفسنا إن كنا كذلك لغالب الظن منتظرين ، فما نحن والله من المتقين. وقد قال الله رب العالمين (وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا [1])

فلينظر كل عبد إلى نفسه أنه إلى الظالمين أقرب أم إلى المتقين. فانظر إلى نفسك بعد أن تنظر إلى سيرة السلف الصالحين، فلقد كانوا مع ماوفقوا له من الخائفين. ثم انظر إلى سيد المرسلين، فإنه كان من أمره على يقين ، إذ كان سيد النبيين ، وقائد المتقين . واعتبر كيف كان كربه عند فراق الدنيا ، وكيف اشتد أمره عند الانقلاب إلى جنة المأوى . قال [1] ابن مسعود رضي الله عنه : دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت أمنا عائشة رضي الله عنها حين دنا الفراق ، فنظر إلينا فدمعت عيناه صلى الله عليه وسلم ثم قال « مَرْحَبًا بِكُمْ حَيَّاكُمُ اللهُ آوَاكُمُ اللهُ نَصَرَكُمُ اللهُ وَأُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ وَأُوصِي بِكُمُ اللهَ

﴿ الباب الرابع فى وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ﴾

(١) حديث ابن مسعود دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت أمنا عائشة حين دنا الفراق الحديث : رواه البزار وقال هذا الكلام قد روى عن مرة عن عبد الله من غير وجه وأسانيدها متقاربة قال وعبد الرحمن الاصبهانى لم يسمع هذا من مرة وانما هو عمن أخبره عن مرة قال ولا أعلم أحدا رواه عن عبد الله غير مرة * قلت وقد روى من غير ما وجه رواه ابن سعد فى الطبقات من رواية ابن عوف عن ابن مسعود ورويناه فى مشيخة القاضى أبى بكر الانصارى من رواية الحسن العربى عن ابن مسعود ولكنهما منقطعان وضعيفان والحسن العربى انما يرويه عن مرة كما رواه ابن أبى الدنيا والطبرانى فى الأوسط

(١) مريم : ٧١ ، ٧٢

إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَى اللهِ فِي بِلاَدِهِ وَعِبَادِهِ وَقَدْ دَنَا الأَجَلُ وَالْمُنْقَلَبُ إِلَى اللهِ وَإِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَإِلَى جَنَّةِ الْمَأْوَى وَإِلَى الْكَأْسِ الأَوْفَى فَاقْرَءُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَعَلَى مَنْ دَخَلَ فِي دِينِكُمْ بَعْدِي مِنِّي السَّلاَمَ وَرَحْمَةَ اللهِ »

وروي (١) أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام عند موته « مَنْ لأُمَّتِي بَعْدِي ؟ » فأوحى الله تعالى إلى جبريل أن بشر حبيبي أني لا أخذله في أمته وبشّره بأنه أسرع الناس خروجا من الأرض إذا بعثوا ، وسيدهم إذا جمعوا ، وأن الجنة محرمة على الأمم حتى تدخلها أمته . فقال « الآنَ قَرَّتْ عَيْنِي » . وقالت (٢) عائشة رضي الله عنها أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نغسله بسبع قرب من سبعة آبار . ففعلنا ذلك ، فوجد راحة ، فخرج فصلى بالناس ، واستغفر لأهل أحد . ودعا لهم ، وأوصى بالأنصار فقال « أَمَّا بَعْدُ يَامَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ فَإِنَّكُمْ تَزِيدُونَ وَأَصْبَحَتِ الأَنْصَارُ لاَ تَزِيدُ عَلَى هَيْئَتِهَا الَّتِي هِيَ عَلَيْهَا الْيَوْمَ وَإِنَّ الأَنْصَارَ عَيْبَتِي » الَّتِي آوَيْتُ إِلَيْهَا فَأَكْرِمُوا كَرِيمَهُمْ » يعني محسنهم « وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ » ثم قال « إِنَّ عَبْداً خُيِّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَ اللهِ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللهِ » فبكى أبو بكر رضي الله عنه ، وظن أنه يريد نفسه . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « عَلَى رِسْلِكَ يَا أَبَا بَكْرٍ سُدُّوا هَذِهِ الأَبْوَابَ الشَّوَارِعَ فِي الْمَسْجِدِ إِلَّا بَابَ أَبِي بَكْرٍ فَإِنِّي لاَ أَعْلَمُ أَمْرأً أَفْضَلَ عِنْدِي فِي الصُّحْبَةِ مِنْ أَبِي بَكْرٍ » قالت (٣) عائشة رضي الله عنها فقبض صلى الله عليه وسلم في بيتي ، وفي يومي ، وبين سحري ونحري وجمع الله بين ريقي وريقه عند الموت ، فدخل عليّ أخي عبد الرحمن وبيده سواك ، فجعل ينظر إليه ، فعرفت أنه يعجبه ذلك ، فقلت له آخذه لك ؟ فأومأ برأسه أي نعم . فناولته إياه ، فأدخله في فيه ،

---

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عند موته من لأمتي بعدي فأوحى الله تعالى إلى جبريل أن بشر حبيبي أني لا أخذله في أمته ـ الحديث : الطبراني من حديث جابر وابن عباس في حديث طويل فيه من لأمتي المصطفاة من بعدي قال أبشر يا حبيب الله فان الله عز وجل يقول قد حرمت الجنة على جميع الانبياء والأمم حتى تدخلها أنت وأمتك قال الآن طابت نفسي واسناده ضعيف

(٢) حديث عائشة أمرنا أن نغسله بسبع قرب من سبعة آبار ففعلنا ذلك فوجد راحة فخرج فصلى بالناس واستغفر لأهل أحد ـ الحديث : الدارمي في مسنده وفيه ابراهيم المختار مختلف فيه عن محمد ابن اسحق وهو مدلس وقد رواه بالعنعنة

(٣) حديث عائشة قبض في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري وجمع الله بين ريقي وريقه عند الموت الحديث : متفق عليه

* عيبتي : خاصتي وموضع سري

فاشتد عليه . فقلت أليّنه لك ؟ فأومأ برأسه أي نعم فلينته . وكان بين يديه ركوة ماء ، فجعل يدخل فيها يده ويقول « لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ إِنَّ لِلْمَوْتِ لَسَكَرَاتٍ » ثم نصب يده يقول « الرَّفِيقَ الْأَعْلَى الرَّفِيقَ الْأَعْلَى » فقلت إذاً والله لا يختارنا

وروى [1] سعيد بن عبد الله عن أبيه قال : لما رأت الأنصار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يزداد ثقلا ، أطافوا بالمسجد ، فدخل العباس رضي الله عنه ، على النبي صلى الله عليه وسلم فأعلمه بمكانهم وإشفاقهم . ثم دخل عليه الفضل ، فأعلمه بمثل ذلك . ثم دخل عليه عليّ رضي الله عنه ، فأعلمه بمثله . فمد يده وقال ها فتناولوه . فقال « مَا تَقُولُونَ ؟ » قالوا نقول نخشى أن تموت . وتصايح نساؤهم لاجتماع رجالهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم . فثار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج متوكئا على عليّ والفضل ، والعباسُ أمامه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم معصوب الرأس يخط برجليه ، حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر ، وثاب الناس إليه ، فحمد الله وأثنى عليه وقال « أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تَخَافُونَ عَلَيَّ الْمَوْتَ كَأَنَّهُ اسْتِنْكَارٌ مِنْكُمْ لِلْمَوْتِ وَمَا تُنْكِرُونَ مِنْ مَوْتِ نَبِيِّكُمْ أَلَمْ أَنْعَ إِلَيْكُمْ وَتُنْعَى إِلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ هَلْ خُلِّدَ نَبِيٌّ قَبْلِي فِيمَنْ بُعِثَ فَأُخَلَّدَ فِيكُمْ أَلَا إِنِّي لَاحِقٌ بِرَبِّي وَإِنَّكُمْ لَاحِقُونَ بِهِ وَإِنِّي أُوصِيكُمْ بِالْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ خَيْرًا وَأُوصِي الْمُهَاجِرِينَ فِيمَا بَيْنَهُمْ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ (وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا [1]) إلى آخرها « وَإِنَّ الْأُمُورَ تَجْرِي بِإِذْنِ اللهِ فَلَا يَحْمِلَنَّكُمُ اسْتِبْطَاءُ أَمْرٍ عَلَى اسْتِعْجَالِهِ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَعْجَلُ لِعَجَلَةِ أَحَدٍ وَمَنْ غَالَبَ اللهَ غَلَبَهُ وَمَنْ خَادَعَ اللهَ خَدَعَهُ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ وَأُوصِيكُمْ بِالْأَنْصَارِ خَيْرًا فَإِنَّهُمُ الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ

---

(١) حديث سعيد بن عبد الله عن أبيه قال لما رأت الانصار رسول الله صلى الله عليه وسلم يزداد ثقلا أطافوا بالمسجد فدخل العباس فأعلمه بمكانهم واشفاقهم فذكر الحديث في خروجه متوكئا معصوب الرأس يخط رجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر فذكر خطبته بطولها هو حديث مرسل ضعيف وفيه نكارة ولم أجد له أصلا وأبوه عبد الله بن ضرار بن الازور تابعي روى عن ابن مسعود قال أبو حاتم فيه وفي أبيه سعيد ليس بالقوى

---

(١) العصر : ١ ، ٢ ، ٣

مِنْ قَبْلِكُمْ أَنْ تَحْسُنُوا إِلَيْهِمْ أَلَمْ يُشَاطِرُوكُمُ الثِّمَارَ أَلَمْ يُوَسِّعُوا عَلَيْكُمْ فِي الدِّيَارِ أَلَمْ يُؤْثِرُوكُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَبِهِمُ الْخَصَاصَةُ أَلاَ فَمَنْ وُلِّيَ أَنْ يَحْكُمَ بَيْنَ رَجُلَيْنِ فَلْيَقْبَلْ مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَلْيَتَجَاوَزْ عَنْ مُسِيئِهِمْ أَلاَ وَلاَ تَسْتَأْثِرُوا عَلَيْهِمْ أَلاَ وَإِنِّي فَرَطٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لاَحِقُونَ بِي أَلاَ وَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْحَوْضُ حَوْضِي أَعْرَضُ مِمَّا بَيْنَ بُصْرَى الشَّامِ وَصَنْعَاءَ الْيَمَنِ يَصُبُّ فِيهِ مِيزَابُ الْكَوْثَرِ مَاءً أَشَدَّ بَيَاضاً مِنَ اللَّبَنِ وَأَلْيَنَ مِنَ الزُّبْدِ وَأَحْلَى مِنَ الشَّهْدِ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ أَبَداً حَصْبَاؤُهُ اللُّؤْلُؤُ وَبَطْحَاؤُهُ الْمِسْكُ مَنْ حُرِمَهُ فِي الْمَوْقِفِ غَداً حُرِمَ الْخَيْرَ كُلَّهُ أَلاَ فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَرِدَهُ عَلَيَّ غَداً فَلْيَكْفُفْ لِسَانَهُ وَيَدَهُ إِلاَّ مِمَّا يَنْبَغِي » فقال العباس : يانبي الله ، أوص بقريش . فقال « إِنَّمَا أُوصِي بِهَذَا الأَمْرِ قُرَيْشاً وَالنَّاسُ تَبَعٌ لِقُرَيْشٍ بَرُّهُمْ لِبَرِّهِمْ وَفَاجِرُهُمْ لِفَاجِرِهِمْ فَاسْتَوْصُوا آلَ قُرَيْشٍ بِالنَّاسِ خَيْراً يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الذُّنُوبَ تُغَيِّرُ النِّعَمَ وَتُبَدِّلُ الْقَسْمَ فَإِذَا بَرَّ النَّاسُ بَرَّهُمْ أَئِمَّتُهُمْ وَإِذَا فَجَرَ النَّاسُ عَقُّوهُمْ قَالَ اللهُ تَعَالَى (وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [1])

وروى [1] ابن مسعود رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر رضي الله عنه « سَلْ يَاأَبَا بَكْرٍ » فقال يارسول الله دنا الأجل ؟ فقال « قَدْ دَنَا الأَجَلُ وَتَدَلَّى » فقال ليهنك يانبي الله ماعند الله ، فليت شعري عن منقلبنا فقال « إِلَى اللهِ وَإِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ثُمَّ إِلَى جَنَّةِ الْمَأْوَى وَالْفِرْدَوْسِ الأَعْلَى وَالْكَأْسِ الأَوْفَى وَالرَّفِيقِ الأَعْلَى وَالْحَظِّ وَالْعَيْشِ الْمُهَنَّأِ » فقال يانبي الله ، من يلي غسلك ؟ قال « رِجَالٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي الأَدْنَى فَالأَدْنَى » قال ففيم نكفنك ؟ فقال « فِي ثِيَابِي هَذِهِ وَفِي حُلَّةٍ يَمَانِيَّةٍ وَفِي بَيَاضِ مِصْرَ » فقال كيف الصلاة عليك منا ؟ وبكينا وبكى . ثم قال « مَهْلاً غَفَرَ اللهُ لَكُمْ

(١) حديث ابن مسعود إن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر سل ياأبا بكر فقال يارسول الله دنا الأجل فقال قددنا الأجل ـ الحديث : في سؤالهم له من يلي غسلك وفيم نكفنك وكيفية الصلاة عليه رواه ابن سعد في الطبقات عن محمد بن عمر وهو الواقدي باسناد ضعيف الى ابن عوف عن ابن مسعود وهو مرسل ضعيف كما تقدم

(١) الأنعام : ١٢٩

وَجَزَاكُمْ عَنْ نَبِيِّكُمْ خَيْرًا إِذَا غَسَّلْتُمُونِي وَكَفَّنْتُمُونِي فَضَعُونِي عَلَى سَرِيرِي فِي بَيْتِي هَذَا عَلَى شَفِيرِ قَبْرِي ثُمَّ اخْرُجُوا عَنِّي سَاعَةً فَإِنَّ أَوَّلَ مَنْ يُصَلِّي عَلَيَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ (هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ [1]) ثُمَّ يَأْذَنُ لِلْمَلَائِكَةِ فِي الصَّلَاةِ عَلَيَّ فَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ عَلَيَّ مِنْ خَلْقِ اللهِ وَيُصَلِّي عَلَيَّ جِبْرِيلُ ثُمَّ مِيكَائِيلُ ثُمَّ إِسْرَافِيلُ ثُمَّ مَلَكُ الْمَوْتِ مَعَ جُنُودٍ كَثِيرَةٍ ثُمَّ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْمَعِهَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَنْتُمْ فَادْخُلُوا عَلَيَّ أَفْوَاجًا فَصَلُّوا عَلَيَّ أَفْوَاجًا زُمْرَةً زُمْرَةً وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا وَلَا تُؤْذُونِي بِتَزْكِيَةٍ وَلَا صَيْحَةٍ وَلَا رَنَّةٍ وَلْيَبْدَأْ مِنْكُمُ الْإِمَامُ وَأَهْلُ بَيْتِي الْأَدْنَى فَالْأَدْنَى ثُمَّ زُمَرُ النِّسَاءِ ثُمَّ زُمَرُ الصِّبْيَانِ » قال فمن يدخلك القبر ؟ قال « زُمَرٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِيَ الْأَدْنَى فَالْأَدْنَى مَعَ مَلَائِكَةٍ كَثِيرَةٍ لَا تَرَوْنَهُمْ وَهُمْ يَرَوْنَكُمْ . قُومُوا فَأَدُّوا عَنِّي إِلَى مَنْ بَعْدِي » . وقال (١) عبد الله بن زمعة . جاء بلال فى أول شهر ربيع الأول، فأذن بالصلاة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مُرُوا أَبَا بَكْرٍ يُصَلِّي بِالنَّاسِ » فخرجت فلم أر بحضرة الباب إلا عمر فى رجال ليس فيهم أبو بكر . فقلت قم ياعمر فصل بالناس ، فقام عمر ، فلما كبّر وكان رجلا صيتا. سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته بالتكبير ، فقال « أَيْنَ أَبُو بَكْرٍ يَأْبَى اللهُ ذَلِكَ وَالْمُسْلِمُونَ » قالها ثلاث مرات « مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ » فقالت عائشة رضي الله عنها ، يارسول الله إن أبا بكر رجل رقيق القلب ، إذا قام فى مقامك غلبه البكاء. فقال « إِنَّكُنَّ صُوَيْحِبَاتُ يُوسُفَ مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ » قال فصلى أبو بكر بعد الصلاة التى صلى عمر . فكان عمر يقول لعبد الله بن زمعة بعد ذلك : ويحك ماذا صنعت بي؟ والله لولا أني ظننت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث عبد الله بن زمعة جاء بلال فى أول ربيع الأول فأذن بالصلاة فقال النبى صلى الله عليه وسلم مروا أبابكر فليصل بالناس فخرجت فلم أر بحضرة الباب الاعمر فى رجال ليس فيهم أبوبكر الحديث : أبوداود باسناد جيد نحوه مختصرا دون قوله فقالت عائشة انأبابكر رجل رقيق الىآخره ولم يقل فى أول ربيع الأول وقال مروا من يصلى بالناس وقال يأبىالله ذلك والمؤمنون مرتين وفى رواية له فقال لا لا لا ليصل للناس ابن أبى قحافة يقول ذلك مغضبا وأما مافى آخره من قول عائشة ففى الصحيحين من حديثها فقالت عائشة يارسول الله انأبابكر رجل رقيق اذاقام مقامك لم يسمع الناس من البكاء. فقال انكن صواحبات يوسف مروا أبابكر فليصل بالناس

[1] الأحزاب : ٤٣

أمرك مافعلت . فيقول عبد الله : إنى لم أر أحدا أولى بذلك منك . قالت عائشة رضي الله عنها : وماقلت ذاك ولاصرفته عن أبى بكر إلا رغبة به عن الدنيا ، ولما فى الولاية من المخاطرة والهلكة إلا من سلم الله ، وخشيت أيضا أن لايكون الناس يحبون رجلا صلى فى مقام النبي صلى الله عليه وسلم وهو حي أبدا إلا أن يشاء الله فيحسدونه ويبغون إليه ، ويتشاءمون به ، فإذاً الأمر أمر الله ؟ والقضاء قضاؤه ، وعصمه الله من كل مانخوفت عليه من أمر الدنيا والدين

وقالت [١] عائشة رضي الله عنها : فلما كان اليوم الذى مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رأوا منه خفة فى أول النهار ، فتفرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوائجهم مستبشرين ، وأخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنساء ، فبينا نحن على ذلك ، لم نكن على مثل حالنا

---

(١) حديث عائشة لما كان اليوم الذى مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوامنه خفة في أول النهار فتفرق عنه الرجال الى منازلهم وحوائجهم مستبشرين وأخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنساء فبينا نحن على ذلك لم يكن على مثل حالنا فى الرجاء والفرح قبل ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرجن عنى هذا الملك يستأذن على ـ الحديث: بطوله فى مجيء ملك الموت ثم ذهابه ثم مجيء جبريل ثم مجيء ملك الموت ووفاته صلى الله عليه وسلم :الطبرانى فى الكبير من حديث جابر وابن عباس مع اختلاف فى حديث طويل فيه فلما كان يوم الاثنين اشتد الامر وأوحى الله الى ملك الموت أن اهبط الى حبيبى وصفيي محمد صلى الله عليه وسلم فى أحسن صورة وارفق به فى قبض روحه وفيه دخول ملك الموت واستئذانه فى قبضه فقال ياملك الموت أين خلفت حبيبي جبريل قال خلفته فى سماء الدنيا والملائكة يعزونه فيك فما كان بأسرع أن أتاه جبريل فقعد عند رأسه وذكر بشارة جبريل له بما أعد الله له وفيه أدن ياملك الموت فانته الى ماأمرت به ـ الحديث : وفيه فدنا ملك الموت يعالج قبض روح النبي صلى الله عليه وسلم وذكر كربه لذلك الى أن قال فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو حديث طويل فى ورقتين كبار وهو منكر وفيه عبد المنعم بن ادريس بن سنان عن أبيه عن وهب بن منبه قال أحمد كان يكذب على وهب بن منبه وأبوه ادريس أيضا متروك قاله الدارقطنى ورواه الطبرانى ايضا من حديث الحسين بن علي أن جبريل جاءه أولا فقال له عن ربه كيف تجدك ثم جاءه جبريل اليوم الثالث ومعه ملك الموت وملك الهواء اسماعيل وان جبريل دخل أولا فسأله ثم استأذن ملك الموت وقوله امض لماأمرت به وهو منكر أيضا فيه عبد الله بن ميمون القداح قال البخارى ذاهب ـ الحديث : ورواه أيضا من حديث ابن عباس فى مجيء ملك الموت أولا واستئذانه وقوله ان ربك يقرئك السلام فقال أين جبريل فقال هو قريب منى الآن يأتى فخرج ملك الموت حتى نزل عليه جبريل ـ الحديث : وفيه المختار ابن نافع منكر الحديث قاله البخارى وابن حبان

فى الرجاء والفرح قبل ذلك ، قال رسول الله صلى الله عليــــه وسلم « أَخْرِجْنَ عَنِّي هَـذَا الْمَلَكُ يَسْتَأْذِنُ عَلَيَّ » فخرج من فى البيت غيرى ، ورأسه فى حجرى ، فجلس وتنحيت فى جانب البيت ، فناجى الملك طويلا ، ثم إنه دعانى ، فأعاد رأسه فى حجرى ، وقال للنسوة « أُدْخُلْنَ » فقلت ما هذا بحس جبريل عليه السلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَجَلْ يَاعَائِشَةُ هَذَا مَلَكُ الْمَوْتِ جَاءَنِى فَقَالَ إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَرْسَلَنِى وَأَمَرَنِى أَنْ لَا أَدْخُلَ عَلَيْكَ إِلَّا بِإِذْنٍ فَإِنْ لَمْ تَأْذَنْ لِى أَرْجِعْ وَإِنْ أَذِنْتَ لِى دَخَلْتُ وَأَمَرَنِى أَنْ لَا أَقْبِضَكَ حَتَّى تَأْمُرَنِى فَمَاذَا أَمْرُكَ فَقُلْتُ أَكْفُفْ عَنِّي حَتَّى يَأْتِيَنِى جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَهَذِهِ سَاعَةُ جِبْرِيلَ »

فقالت عائشة رضي الله عنها . فاستقبلنا بأمر لم يكن له عندنا جواب ولا رأي ، فوجمنا وكأنما ضربنا بصاخة ما نحير إليه شيئا ، وما يتكلم أحد من أهل البيت إعظاما لذلك الأمر وهيبة ملأت أجوافنا . قالت وجاء جبريل فى ساعته . فسلّم فعرفت حسّه ، وخرج أهل البيت ، فدخل فقال : إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول كيف تجدك ؟ وهو أعلم بالذى تجد منك ، ولكن أراد أن يزيدك كرامة وشرفا ؛ وأن يتم كرامتك وشرفك على الخلق ، وأن تكون سنّة فى أمتك . فقال « أَجِدُنِى وَجِعاً » فقال : أبشر ، فإن الله تعالى أراد أن يبلغك ما أعدّ لك . فقال « يَاجِبْرِيلُ إِنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ إِسْتَأْذَنَ عَلَيَّ » وأخبره الخبر فقال جبريل . يا محمد ، إن ربك إليك مشتاق ، ألم يعلمك الذى يريد بك؟ لا والله ما استأذن ملك الموت على أحد قط ، ولا يستأذن عليه أبدا ، إلا أن ربك متمّ شرفك ، وهو إليك مشتاق . قال « فَلَا تَبْرَحْ إِذاً حَتَّى يَجِيءَ » وأذن للنساء فقال « يَافَاطِمَةُ أُدْنِى » فأكبت عليه ، فناجاها ، فرفعت رأسها وعيناها تدمع ، وما تطيق الكلام ثم قال « أُدْنِى مِنِّى رَأْسَكِ » فأكبت عليه ، فناجاها فرفعت رأسها وهي تضحك ، وما تطيق الكلام . فكان الذى رأينا منها عجبا . فسألتها بعد ذلك فقالت : أخبرنى وقال « إِنِّى مَيِّتٌ الْيَوْمَ » فبكيت : ثم قال « إِنِّى دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُلْحِقَكِ بِى فِى أَوَّلِ أَهْلِى وَأَنْ يَجْعَلَكِ مَعِى » فضحكت ، وأدنت ابنيها منه ، فشمهما ; قالت وجاء ملك الموت ، فسلم واستأذن ، فأذن له

فقال الملك : ما تأمرنا يا محمد ؟ قال « أَلْحِقْنِي بِرَبِّي الْآنَ » فقال بلى من يومك هذا ، أما إنه ربك إليك مشتاق ، ولم يتردد عن أحد تردده عنك ، ولم ينهني عن الدخول على أحد إلا بإذن غيرك ، ولكن ساعتك أمامك . وخرج . قالت وجاء جبريل فقال : السلام عليك يارسول الله ، هذا آخر ما أنزل فيه إلى الأرض أبدا ، طوي الوحي ، وطويت الدنيا ، وما كان لى فى الأرض حاجة غيرك ، ومالى فيها حاجة إلا حضورك ثم لزوم موقفى . لا و الذى بعث محمدا بالحق ، مافى البيت أحد يستطيع أن يحير إليه فى ذلك كلمة ، ولا يبعث إلى أحد من رجاله لعظم ما يسمع من حديثه ، ووجْدنا وإشفاقنا . قالت فقمت إلى النبي صلى الله عليه وسلم حتى أضع رأسه بين ثديي ، وأمسكت بصدره ، وجعل يغمى عليه حتى يغلب ، وجبهته ترشح رشحا ما رأيته من إنسان قط ، فجعلت أسلت ذلك العرق ، وما وجدت رائحة شيء أطيب منه ، فكنت أقول له إذا أفاق : بأبى أنت وأمى ، ونفسي وأهلى ما تلقى جبهتك من الرشح فقال « يَاعَائِشَةُ إِنَّ نَفْسَ الْمُؤْمِنِ تَخْرُجُ بِالرَّشْحِ وَنَفْسَ الْكَافِرِ تَخْرُجُ مِنْ شِدْقَيْهِ كَنَفْسِ الْحِمَارِ » فعند ذلك ارتعنا ، وبعثنا إلى أهلنا فكان أول رجل جاءنا ولم يشهده أخى ، بعثه إلي أبى ، فمات رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يجيء أحد . وإنما صدهم الله عنه لأنه ولاه جبريل وميكائيل ، وجعل إذا أغمي عليه قال « بَلِ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى » كأن الخيرة تعاد عليه . فإذا أطاق الكلام قال « الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ إِنَّكُمْ لَا تَزَالُونَ مُتَمَاسِكِينَ مَاصَلَّيْتُمْ جَمِيعاً الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ » كان يوصى بها حتى مات وهو يقول « الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ »

قالت [1] عائشة رضي الله عنها : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار يوم الإثنين . قالت فاطمة رضي الله عنها : مالقيت من يوم الإثنين ؟ والله لاتزال الأمة تصاب فيه بعظيمة . وقالت أم كلثوم : يوم أصيب علي كرم الله وجهه بالكوفة مثلها : مالقيت من يوم الإثنين ؟ مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيه قتل علي ، وفيه قتل أبى ، فما لقيت من يوم الإثنين ؟

---

(١) حديث عائشة مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار يوم الاثنين رواه ابن عبد البر

وقالت عائشة [١] رضي الله عنها : لمّا مات رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتحم الناس حين ارتفعت الرّنة ، وسجّى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم الملائكةُ بثوبه ، فاختلفوا فكذّب بعضهم بموته ، وأخرس بعضهم فما تكلم إلا بعد البعد ، وخلط آخرون فلاثوا الكلام بغير بيان ، وبقي آخرون معهم عقولهم ، وأقعد آخرون . فكان عمر بن الخطاب فيمن كذّب بموته ؛ وعلي فيمن أقعد ، وعثمان فيمن أخرس . فخرج عمر على الناس وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمت ، وليرجعنه الله عز وجل ، وليقطعن أيدى وأرجل رجال من المنافقين يتمنون لرسول الله صلى الله عليه وسلم الموت . إنما واعده الله عز وجل كما واعد موسى ، وهو آتيكم . وفى رواية أنه قال : يأيها الناس كفوا ألسنتكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لم يمت . والله لاأسمع أحدا يذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات إلا علوته بسيفى هذا . وأما على فإنه أقعد فلم يبرح فى البيت وأما عثمان فجعل لايكلم أحدا ، يؤخذ بيده فيجاء به ويذهب به . ولم يكن أحد من المسلمين فى مثل حال أبى بكر والعباس ، فإن الله عز وجل أيدهما بالتوفيق والسداد وإن كان الناس لم يرعوا إلا بقول أبى بكر ، حتى جاء العباس فقال : والله الذى لا إله إلا هو لقد ذاق رسول الله صلى الله عليه وسلم الموت ، ولقد قال وهو بين أظهركم (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ [١])

[٢] وبلغ أبا بكر الخبر وهو فى بنى الحارث بن الخزرج ، فجاء ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنظر إليه ، ثم أكب عليه فقبّله ، ثم قال : بأبى أنت وأمى يارسول الله ،

---

(١) حديث عائشة لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتحم الناس حين ارتفعت الرنه وسجى رسول الله صلى الله عليه وسلم الملائكة بثوبه فاختلفوا فكذب بعضهم بموته واخرس بعضهم فماتكلم الا بعد البعد وخلط آخرون ومعهم عقولهم وأقعد آخرون وكان عمر بن الخطاب ممن كذب بموته وعلي فيمن أقعد وعثمان فيمن أخرس فخرج عمر على الناس وقال ان رسول الله صلي الله عليه وسلم لم يمت ـ الحديث : الى قوله عند ربكم تختصمون لم أجد له أصلا وهو منكر

(٢) حديث بلغ أبابكر الخبر وهو فى بنى الحارث بن الخزرج فجاء فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر اليه ثم أكب عليه فقبله وبكى ثم قال بأبى انت وأمي ما كان الله ليذيقك الموت مرتين الحديث : الى آخر قوله وكأن الناس لم يسمعوا هذه الآية الا يومئذ : البخارى ومسلم من حديث عائشة ان أبابكر أقبل على فرس من مسكنه بالسنح حتى نزل ودخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فيمم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مغشى بثوب حبرة فكشف عن وجهه

---

(١) الزمر : ٣٠ ، ٣١

ما كان الله ليذيقك الموت مرتين ، فقد والله توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم خرج إلى الناس فقال : أيها الناس ، من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد رب محمد فإنه حي لا يموت . قال الله تعالى (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ [1]) الآية . فكأن الناس لم يسمعوا هذه الآية إلا يومئذ . وفي رواية [1] أن أبا بكر رضي الله عنه لما بلغه الخبر ، دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ، وعيناه تهملان . وغصصه ترتفع كقصع الجرة ، وهو في ذلك جلد الفعل والمقال ، فأكب عليه ، فكشف عن وجهه ، وقبل جبينه وخديه ، ومسح وجهه ، وجعل يبكي ويقول : بأبي أنت وأمي ، ونفسي ، وأهلي ، طبت حيا وميتا ، انقطع لموتك مالم ينقطع لموت أحد من الأنبياء والنبوة ، فعظمت عن الصفة ، وجللت عن البكاء . وخصصت حتى صرت مسلاة ، وعممت حتى صرنا فيك سواء ولولا أن موتك كان اختيارا منك لجدنا لحزنك بالنفوس . ولولا أنك نهيت عن البكاء لأنفذنا عليك ماء العيون : فأما مالا نستطيع نفيه عنا فكمد وادكار محالفان لا يبرحان . اللهم فأبلغه عنا ، اذكرنا يامحمد صلى الله عليك عند ربك ، ولنكن من بالك ، فلولا ما خلفت من السكينة لم يقم أحد لما خلفت من الوحشة . اللهم أبلغ نبيك عنا واحفظه فينا

وعن ابن عمر ، أنه لما دخل أبو بكر البيت وصلى وأثنى ، عج أهل البيت عجيجا سمعه أهل المصلى كلما ذكر شيئا ازدادوا ، فما سكن عجيجهم إلا تسليم رجل على الباب صيت جلد قال: السلام عليكم ياأهل البيت (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ [2]) الآية [2] إن في الله خلفا من كل أحد

ثم أكب عليه فقبله وبكى ثم قال بأبي وامي أنت والله لا يجمع الله عليك موتتين أما الموتة التي كتبت عليك فقدمتها ولهما من حديث ابن عباس ان أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس ـ الحديث : وفيه والله لكأن الناس لم يعلموا ان الله انزل هذه الآية تلاها أبو بكر لفظ البخاري فيهما

(١) حديث ان أبابكر لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وعيناه تهملان وغصصه ترتفع كقصع الجرة وهو في ذلك جلد الفعل والمقال فأكب عليه فكشف الثوب عن وجهه ـ الحديث : الى قوله واحفظه فينا ابن أبي الدنيا في كتاب العزاء من حديث ابن عمر باسناد ضعيف جاء ابوبكر رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجى فكشف الثوب عن وجهه ـ الحديث : إلى آخره

(٢) حديث ابن عمر في سماع التعزية به صلى الله عليه وسلم ان في الله خلفا من كل أحد ودركا لكل رغبة ونجاة

---

[1] آل عمران : ١٤٤ [2] العنكبوت : ٥٧

ودركا لكل رغبة ، ونجاة من كل مخافة ، فالله فارجوا ، وبه فثقوا . فاستمعوا له وأنكروه ، وقطعوا البكاء . فلما انقطع البكاء فقد صوته ، فاطّلع أحدهم فلم ير أحدا . ثم عادوا فبكوا ، فناداهم مناد آخر لا يعرفون صوته ، ياأهل البيت اذكروا الله واحمدوه على كل حال تكونوا من المخلصين ، إن في الله عزاء من كل مصيبة ، وعوضا من كل رغيبة ، فالله فأطيعوا ، وبأمره فاعملوا : فقال أبو بكر : هذا الخضر واليسع عليهما السلام حضرا النبي صلى الله عليه وسلم

واستوفى القعقاع بن عمرو حكاية خطبة أبي بكر رضي الله عنه فقال : قام أبو بكر في الناس خطيبا حيث قضى الناس عبراتهم ، بخطبة جُلّها الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، فحمد الله وأثنى عليه على كل حال وقال . أشهد أن لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وغلب الأحزاب وحده ، فلله الحمد وحده . وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وخاتم أنبيائه ، وأشهد أن الكتاب كما نزل ، وأن الدين كما شرع ، وأن الحديث كما حدث ، وأن القول كما قال ، وأن الله هو الحق المبين . اللهم فصل على محمد عبدك ، ورسولك ، ونبيك ، وحبيبك ، وأمينك ، وخيرتك ، وصفوتك ، بأفضل ماصليت به على أحد من خلقك

من كل مخافة فالله فارجوا وبه فثقوا ثم سمعوا آخر بعده ان في الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل رغبة فالله فأطيعوا وبأمره فاعملوا فقال أبو بكر هذا الخضر واليسع : لم أجد فيه ذكر اليسع وأما ذكر الخضر في التعزية فأنكر النووي وجوده في كتب الحديث وقال انما ذكره الاصحاب قلت بلى قد رواه الحاكم في المستدرك في حديث أنس ولم يصححه ولا يصح ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب العزاء من حديث أنس أيضا قال لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتمع أصحابه حوله يبكون فدخل عليهم رجل طويل شعر المنكبين في ازار ورداء يتخطى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أخذ بعضادتي باب البيت فبكى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أقبل على أصحابه فقال ان في الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل فائت وخلفا من كل هالك فالى الله تعالى فانيبوا ونظره اليكم في البلاء فانظروا فان المصاب من لم يجبره الثواب ثم ذهب الرجل فقال أبو بكر على الرجل فنظروا يمينا وشمالا فلم يروا أحدا فقال أبو بكر لعل هذا الخضر أخو نبينا عليه السلام جاء يعزينا ورواه الطبراني في الاوسط واسناده ضعيف جدا ورواه ابن أبي الدنيا أيضا من حديث على بن أبي طالب لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء آت فسمع حسه ولا نرى شخصه قال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ان في الله عوضا من كل مصيبة وخلفا من كل هالك ودركا من كل فائت فبالله فثقوا واياه فارجوا فان المحروم من حرم الثواب والسلام عليكم فقال علي تدرون من هذا هو الخضر وفيه محمد بن جعفر الصادق تكلم فيه وفيه انقطاع بين علي بن الحسين وبين جده على والمعروف عن على بن الحسين مرسلا من غير ذكر على كما رواه الشافعي في الام وليس فيه ذكر الخضر

اللهم واجعل صلواتك ، ومعافاتك ، ورحمتك ، وبركاتك ، على سيد المرسلين ، وخاتم النبيين ، وإمام المتقين ، محمد قائد الخير ، وإمام الخير ، ورسول الرحمة . اللهم قرّب زلفته ، وعظم برهانه ، وكرم مقامه ، وابعثه مقاما محمودا يغبطه به الأوّلون والآخرون، وانفعنا بمقامه المحمود يوم القيامة ، واخلفه فينا فى الدنيا والآخرة ، وبلّغه الدرجة والوسيلة فى الجنة . اللهم صل على محمد ، وعلى آل محمد ، وبارك على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت وباركت على إبراهيم ، إنك حميد مجيد . أيها الناس،إنه من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لم يمت . وإن الله قد تقدم إليكم فى أمره فلا تدعوه جزعا، فإن الله عز وجل قد اختار لنبيه صلى الله عليه وسلم ماعنده على ماعندكم ، وقبضه إلى ثوابه ، وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم . فمن أخذ بهما عرف ، ومن فرّق بينهما أنكر (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ[1]) ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم ولا يفتننكم عن دينكم، وعاجلوا الشيطان بالخير تعجزوه، ولا تستنظروه فيلحق بكم ويفتنكم

وقال ابن عباس : لما فرغ أبو بكر من خطبته قال : ياعمر ، أنت الذى بلغنى أنك تقول ما مات نبي الله صلى الله عليه وسلم ، أما ترى أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال يوم كذا . كذا وكذا ، ويوم كذا. كذا وكذا ، وقال تعالى فى كتابه (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ[2]) فقال : والله لكأنى لم أسمع بها فى كتاب الله قبل الآن لما نزل بنا. أشهد أن الكتاب كما أنزل ، وأن الحديث كما حدث ، وأن الله حي لا يموت ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، وصلوات الله على رسوله ، وعند الله نحتسب رسوله صلى الله عليه وسلم . ثم جلس إلى أبى بكر

وقالت عائشة رضي الله عنها . لما اجتمعوا لغسله قالوا : والله ماندرى كيف نغسّل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أنجرده عن ثيابه كما نصنع بموتانا ؟ أو نغسله فى ثيابه ؟ قالت فأرسل الله عليهم النوم ، حتى مابقي منهم رجل إلا واضع لحيته على صدره نائما . ثم قال قائل لايدرى من هو : غسّلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه ثيابه : فانتبهوا ففعلوا ذلك . فغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قميصه ، حتى إذا فرغوا من غسله كفن . وقال عليّ كرم الله وجهه : أردنا خلع قميصه فنودينا لا تخلعوا عن رسول الله

---

(١) النساء : ١٣٥ (٢) الزمر : ٣٠

صلى الله عليه وسلم ثيابه ، فافررناه ، فغسلناه فى قميصه كما نغسل موتانا مستلقيا ، مانشاء أن يقلب لنا منه عضو لم يبالغ فيه إلا قلب لنا حتى نفرغ منه ، وإن معنا لحفيفا فى البيت كالريح الرخاء ، ويصوت بنا ارفقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فإنكم ستكفون

فهكذا كانت وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يترك سبدا ولالبدا إلا دفن معه . قال [1] أبو جعفر : فرش لحده بمفرشه وقطيفته ، وفرشت ثيابه عليها التى كان يلبس يقظان على القطيفة والمفرش ، ثم وضع عليها فى أكفانه . فلم يترك بعد وفاته مالا ، ولا بنى فى حياته لبنة على لبنة ، ولا وضع قصبة على قصبة . ففى وفاته عبرة تامة ، وللمسلمين به أسوة حسنة

وفاة .. أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه

لما احتضر أبو بكر رضي الله تعالى عنه ، جاءت عائشة رضي الله عنها ، فتمثلت بهذا البيت

لعمرك مايغنى الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فكشف عن وجهه وقال : ليس كذا . ولكن قولى (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ [1]) انظروا ثوبيّ هذين ، فاغسلوهما وكفنونى فيهما ، فإن الحي إلى الجديد أحوج من الميت . وقالت عائشة رضي الله عنها عند موته :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ربيع اليتامى عصمة للأرامل

فقال أبو بكر : ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم . ودخلوا عليه فقالوا ألا ندعو لك طبيبا ينظر إليك ؟ قال قد نظر إليّ طبيبي ، وقال إنى فعال لما أريد

ودخل عليه سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه يعوده ، فقال ياأبا بكر ، أوصنا . فقال إن الله فاتح عليكم الدنيا ، فلا تأخذن منها إلا بلاغك واعلم أن من صلى صلاة الصبح فهو

---

(١) حديث أبي جعفر فرش لحده بمفرشة وقطيفة وفيه . فلم يترك بعد وفاته مالا ولا بنى فى حياته لبنة على لبنة ولا وضع قصبة على قصبة اماوضع المفرشة والقطيفة فالذى وضع القطيفة شقران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس ذكر ذلك من شرط كتابنا وأما كونه لم يترك مالا فقد تقدم من حديث عائشة وغيرها وأما كونه مابنى فى حياته فتقدم أيضا

---

(١) ق : ١٩

فى ذمة الله ، فلا تحقرن الله فى ذمته فيكبك فى النار على وجهك

ولما ثقل أبو بكر رضي الله تعالى عنه ، وأراد الناس منه أن يستخلف ، فاستخلف عمر رضي الله عنه ، فقال الناس له . استخلفت علينا فظا غليظا ، فماذا تقول لربك ؟ فقال أقول : استخلفت على خلقك خير خلقك . ثم أرسل إلى عمر رضي الله عنه ، فجاء فقال : إنى موصيك بوصية ، اعلم أن لله حقا فى النهار لا يقبله فى الليل ، وأن لله حقا فى الليل لا يقبله فى النهار ، وأنه لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة ، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق فى الدنيا وثقله عليهم ، وحقٌ لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يثقل . وإنما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة باتباع الباطل وخفّته عليهم ، وحقٌ لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يخف . وإن الله ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم ، وتجاوز عن سيئاتهم . فيقول القائل أنا دون هؤلاء ، ولا أبلغ مبلغ هؤلاء . فإن الله ذكر أهل النار بأسوأ أعمالهم ، ورد عليهم صالح الذى عملوا ، فيقول القائل أنا أفضل من هؤلاء . وإن الله ذكر آية الرحمة وآية العذاب ليكون المؤمن راغباً راهبا ، ولا يلقى بيديه إلى التهلكة ، ولا يتمنى على الله غير الحق . فإن حفظت وصيتى هذه فلا يكون غائب أحب إليك من الموت ولا بدّ لك منه . وإن ضيعت وصيتي فلا يكون غائب أبغض إليك من الموت ولا بدّ لك منه ، ولست بمعجزه.

وقال سعيد بن المسيب : لما احتضر أبو بكر رضي الله عنه أتاه ناس من الصحابة ، فقالوا ياخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم زودنا ، فإنا نراك لما بك . فقال أبو بكر : من قال هؤلاء الكلمات ثم مات ، جعل الله روحه فى الأفق المبين . قالوا وما الأفق المبين ؟ قال قاع بين يدي العرش ، فيه رياض الله ، وأنهار وأشجار ، يغشاه كل يوم مائة رحمة . فمن قال هذا القول جعل الله روحه فى هذا المكان . اللهم إنك ابتدأت الخلق من غير حاجة بك إليهم ، ثم جعلتهم فريقين ، فريقا للنعيم ، وفريقا للسعير . فاجعلنى للنعيم ، ولا تجعلنى للسعير . اللهم إنك خلقت الخلق فرقا ، وميزتهم قبل أن تخلقهم ، فجعلت منهم شقيا وسعيدا ، وغويا ورشيدا ، فلا تشقنى بمعاصيك . اللهم إنك علمت ما تكسب كل نفس قبل أن تخلقها ، فلا محيص لها مما علمت

فاجعلني ممن تستعمله بطاعتك . اللهم إن أحدا لايشاء حتى تشاء ؛ فاجعل مشيئتك أن أشاء مايقربني إليك . اللهم إنك قد قدّرت حركات العباد ، فلا يتحرك شيء إلا بإذنك ، فاجعل حركاتي في تقواك . اللهم إنك خلقت الخير والشر ، وجعلت لكل واحد منهما عاملا يعمل به ، فاجعلني من خير القسمين . اللهم إنك خلقت الجنة والنار ، وجعلت لكل واحدة منهما أهلا ، فاجعلني من سكان جنتك . اللهم إنك أردت بقوم الضلال ، وضيقت به صدورهم ، فاشرح صدري للإيمان وزيّنه في قلبي . اللهم إنك دبرت الأمور ، وجعلت مصيرها إليك ، فأحيني بعد الموت حياة طيبة ، وقربني إليك زلفى . اللهم من أصبح وأمسى ثقته ورجاؤه غيرك فأنت ثقتي ورجائي ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله . قال أبو بكر هذا كله في كتاب الله عز وجل

وفاة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه

قال عمرو بن ميمون : كنت قائما غداة أصيب عمر ، ما بيني وبينه إلا عبد الله بن عباس وكان إذا مرّ بين الصفين قام بينهما ، فإذا رأى خللا قال استووا ، حتى إذا لم ير فيهم خللا تقدم فكبر . قال وربما قرأ سورة يوسف ، أو النحل ، أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس . فما هو إلا أن كبر ، فسمعته يقول : قتلني أو أكلني الكلاب ، حين طعنه أبو لؤلؤة . وطار العلج بسكين ذات طرفين ، لايمر على أحد يمينا أو شمالا إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلا . فمات منهم تسعة . وفي رواية سبعة . فلما رأى ذلك رجل من من المسلمين طرح عليه بُرنسا . فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه . وتناول عمر رضي الله عنه عبدالرحمن بن عوف فقدّمه . فأما من كان يلي عمر فقد رأى ما رأيت . وأما نواحي المسجد ما يدرون ما الأمر ، غير أنهم فقدوا صوت عمر ، وهم يقولون سبحان الله سبحان الله ، فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة ، فلما انصرفوا قال : يا ابن العباس ، انظر من قتلني قال فغاب ساعة ثم جاء فقال : غلام المغيرة بن شعبة . فقال عمر رضي الله عنه ، قاتله الله ، لقد كنت أمرت به معروفا . ثم قال : الحمد لله الذي لم يجعل منيّتي بيد رجل مسلم . قد كنت

أنت وأبوك تحبان أن يكثر العلوج بالمدينة . وكان العباس أكثرهم رقيقا . فقال ابن عباس: إن شئت فعلت . أى إن شئت قتلناهم . قال بعد ما تكلموا بلسانكم ، وصلوا إلى قبلتكم ، وحجوا حجكم ، فاحتمل إلى بيته ، فانطلقنا معه . قال وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ . قال فقائل يقول أخاف عليه ، وقائل يقول لا بأس . فأتي* بنبيذ فشرب منه ، فخرج من جوفه . ثم أتي بلبن فشرب منه ، فخرج من جوفه . فعرفوا أنه ميت . قال : فدخلنا عليه ، وجاء الناس يثنون عليه ، وجاء رجل شاب فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى من الله عز وجل ، قد كان لك صحبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقدم فى الإسلام ما قد علمت ، ثم وليت فعدلت ، ثم شهادة فقال وددت أن ذلك كان كفافا لا علي ولا لى . فلما أدبر الرجل إذا إزاره يمس الأرض، فقال ردوا علي الغلام . فقال يا ابن أخى ، ارفع ثوبك فإنه أبقى لثوبك ، وأتقى لربك . ثم قال : ياعبد الله انظر ما علي من الدين . فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفا أو نحوه . فقال إن وفى به مال آل عمر فأده من أموالهم ، وإلا فسل فى بنى عدي بن كعب ، فإن لم تف أموالهم فسل في قريش ، ولا تعدهم إلى غيرهم وأد عنى هذا المال . انطلق إلى أم المؤمنين عائشة ، فقل عمر يقرأ عليك السلام ، ولا تقل أمير المؤمنين . فإنى لست اليوم للمؤمنين أميرا . وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه . فذهب عبد الله فسلم واستأذن ، ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكى . فقال يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ، ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه . فقالت كنت أريده لنفسى ، ولأوثرنه اليوم على نفسى . فلما أقبل قيل هذا عبد الله بن عمر قد جاء ، فقال : ارفعونى ، فأسنده رجل إليه ، فقال مالديك ؟ قال الذى تحب يا أمير المؤمنين ، قد أذنت . قال: الحمد لله ، ما كان شيء أهم إلي من ذلك ، فإذا أنا قبضت فاحملونى ، ثم سلم وقل : يستأذن عمر . فإن أذنت لى فأدخلونى ، وإن ردتنى ردونى إلى مقابر المسلمين

وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء يسترنها ، فلما رأيناها قمنا ، فولجت عليه ، فبكت عنده ساعة . واستأذن الرجال ، فولجت داخلا ، فسمعنا بكاءها من داخل . فقالوا أوص ياأمير المؤمنين واستخلف . فقال ماأرى أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض . فسمى عليا ، وعثمان ، والزبير ،

* النبيذ : شراب من التمر غير مسكر

وطلحة ، وسعدا ، وعبد الرحمن . وقال يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء ، كهيئة التعزية له . فإن أصابت الإمارة سعدا فذاك ، وإلا فليستعن به أيكم أمّر ، فإني لم أعزله من عجز ولا خيانة . وقال: أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم فضلهم ، ويحفظ لهم حرمتهم . وأوصيه بالأنصار خيرا ، الذين تبوّءوا الدار والإيمان من قبلهم ، أن يقبل من محسنهم ، وأن يعفو عن مسيئهم . وأوصيه بأهل الأمصار خيرا ، فإنهم ردء الإسلام ، وجباة الأموال ، وغيظ العدوّ ، وأن لا يأخذ منهم إلا فضلهم عن رضا منهم. وأوصيه بالأعراب خيرا ، فإنهم أصل العرب ، ومادة الإسلام ، وأن يأخذ من حواشي أموالهم ويرد على فقرائهم ، وأوصيه بذمة الله عز وجل ، وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل لهم من ورائهم، ولا يكلفهم إلا طاقتهم

قال فلما قبض خرجنا به ، فانطلقنا نمشي ، فسلم عبد الله بن عمر وقال : يستأذن عمر بن الخطاب. فقالت أدخلوه . فأدخلوه في موضع هنالك مع صاحبيه الحديث

وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال [1] «قَالَ لِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِيَبْكِ الْإِسْلَامُ عَلَى مَوْتِ عُمَرَ » . وعن [2] ابن عباس قال: وضع عمر على سريره ، فتكنفه الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع ، وأنا فيهم ، فلم يرعني إلا رجل قد أخذ بمنكبي ، فالتفت فإذا هو عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فترحم على عمر وقال : ماخلفت أحدا أحب إلي أن ألقى الله بمثل عمله منك . وأيم الله إن كنت لأظن ليجعلنك الله مع صاحبيك ، وذلك أني كنت كثيرا أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول « ذَهَبْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَدَخَلْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ » فإني كنت لأرجو أو لأظن أن يجعلك الله معهما

---

(١) حديث قال لي جبريل عليه السلام ليبك الاسلام على موت عمر :أبو بكر الآجري في كتاب الشريعة من حديث أبي بن كعب بسند ضعيف جدا وذكره ابن الجوزي في الموضوعات

(٢) حديث ابن عباس قال وضع عمر على سريره فكنفه الناس يدعون ويصلى فذكر قول علي بن أبي طالب كنت كثيرا أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول ذهبت أنا وأبو بكر وعمر ـ الحديث: متفق عليه

وفاة .. عثمان رضي الله عنه

الحديث في قتله مشهور. وقد قال عبد الله بن سلام : أتيت أخي عثمان لأسلم عليه وهو محصور فدخلت عليه فقال مرحبا يا أخي رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة في هذه الخوخة، وهي خوخة في البيت فقال يا عثمان، حصروك؟ قلت نعم. قال عطشوك، قلت نعم. فأدلى إلي دلوا فيه ماء، فشربت حتى رويت، حتى أني لأجد برده بين ثديي وبين كتفي، وقال لي: إن شئت نصرت عليهم، وإن شئت أفطرت عندنا. فاخترت أن أفطر عنده. فقتل ذلك اليوم رضي الله عنه. وقال عبد الله بن سلام لمن حضر تشحط عثمان في الموت حين جرح، ماذا قال عثمان وهو يتشحط؟ قالوا سمعناه يقول: اللهم اجمع أمة محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثا. قال والذي نفسي بيده، لو دعا الله أن لا يجتمعوا أبدا ما اجتمعوا إلى يوم القيامة

وعن[1] ثمامة بن حزن القشيري قال : شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان رضي الله عنه، فقال ائتوني بصاحبيكم اللذين ألباكم علي؟ قال فجيء بهما كأنما هما جملان أو حماران فأشرف عليهم عثمان رضي الله عنه فقال : أنشدكم بالله والإسلام، هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة، فقال « مَنْ يَشْتَرِي رُومَةَ يَجْعَلْ دَلْوَهُ مَعَ دِلَاءِ الْمُسْلِمِينَ بِخَيْرٍ لَهُ مِنْهَا فِي الْجَنَّةِ » فاشتريتها من صلب مالي، فأنتم اليوم تمنعوني أن أشرب منها ومن ماء البحر؟ قالوا اللهم نعم. قال أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أني جهزت جيش العسرة من مالي؟ قالوا نعم. قال أنشدكم الله والإسلام، هل تعلمون أن المسجد كان قد ضاق بأهله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ يَشْتَرِي بُقْعَةَ آلِ فُلَانٍ فَيَزِيدُهَا فِي الْمَسْجِدِ بِخَيْرٍ مِنْهَا فِي الْجَنَّةِ » فاشتريتها من صلب مالي، فأنتم اليوم تمنعوني أن أصلي فيها ركعتين؟ قالوا اللهم نعم. قال أنشدكم الله والإسلام، هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على ثبير بمكة، ومعه أبو بكر وعمر وأنا، فتحرك الجبل حتى تساقطت حجارته بالحضيض قال فركضه برجله وقال « اسْكُنْ ثَبِيرُ فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ » قالوا اللهم نعم. قال الله أكبر شهدوا لي ورب الكعبة أني شهيد

(١) حديث ثمامة بن حزن القشيري شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان ـ الحديث: الترمذي وقال حسن والنسائي

وروي عن شيخ من ضبّة : أن عثمان حين ضرب والدماء تسيل على لحيته جعل يقول : لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، اللهم إني أستعديك عليهم ، واستعينك على جميع أموري ، وأسألك الصبر على ماابتليتني

وفاة .. علي كرم الله وجهه

قال الأصبغ الحنظلي : لما كانت الليلة التي أصيب فيها عليّ كرم الله وجهه، أتاه ابن التياح حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة ، وهو مضطجع متثاقل ، فعاد الثانية وهو كذلك ، ثم عاد الثالثة ؛ فقام عليّ يمشي وهو يقول :

أشدد حيا زيمك للموت فإن الموت لاقيكا
ولا تجزع من الموت إذا حل بواديكا

فلما بلغ الباب الصغير ، شد عليه ابن ملجم فضربه ، فخرجت أم كلثوم ابنة عليّ رضي الله عنه ، فجعلت تقول : مالي ولصلاة الغداة ، قتل زوجي أمير المؤمنين صلاة الغداة ، وقتل أبي صلاة الغداة. وعن شيخ من قريش ؛ أن عليا كرم الله وجهه. لما ضربه ابن ملجم ، قال فزتُ ورب الكعبة . وعن محمد بن علي ، أنه لما ضرب أوصى بنيه، ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله حتى قبض

ولما ثقل الحسن بن علي رضي الله عنهما ، دخل عليه الحسين رضي الله عنه ، فقال يا أخي لأي شيء تجزع ؟ تقدمُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى عليّ بن أبي طالب ، وهما أبواك ، وعلى خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وهما أماك ، وعلى حمزة وجعفر ، وهما عماك . قال يا أخي ، أقدم على أمر لم أقدم على مثله

وعن محمد بن الحسن رضى الله عنهما قال : لما نزل القوم بالحسين رضى الله عنه ، وأيقن أنهم قاتلوه ، قام فى أصحابه خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : قد نزل من الأمر ماترون ، وإن الدنيا قد تغيرت ، وتنكرت ، وأدبر معروفها ، وانشمرت حتى لم يبق منها إلا كصبابة الإناء . ألا حسبي من عيش كالمرعى الوبيل . ألا ترون الحق لا يعمل به، والباطل لا يتناهى عنه . ليرغب المؤمن فى لقاء الله تعالى ، وإنى لا أرى الموت إلا سعادة ، والحياة مع الظالمين إلا جرما

الباب الخامس

فى كلام المحتضرين من الخلفاء والأمراء والصالحين

لما حضرت معاوية بن أبى سفيان الوفاة قال : أقعدونى . فأقعد ، فجعل يسبح الله تعالى ويذكره ، ثم بكى وقال : تذكر ربك يامعاوية بعد الهرم والانحطاط ، ألا كان هذا وغصن الشباب نضر ريان ! وبكى حتى علا بكاؤه وقال : يارب ارحم الشيخ العاصى ، ذا القلب القاسى اللهم أقل العثرة ، واغفر الزلة ، وعد بحلمك على من لم يرج غيرك ، ولم يثق بأحد سواك . وروي عن شيخ من قريش ، أنه دخل مع جماعة عليه فى مرضه ، فرأوا فى جلده غضونا . فحمد الله وأثني عليه ثم قال : أما بعد ، فهل الدنيا أجمع إلا ماجربنا ورأينا ، أما والله لقد استقبلنا زهرتها بجدتنا ، وباستلذاذنا بعيشنا ، فالبثتنا الدنيا أن نقضت ذلك منا حالا بعد حال ، وعروة بعد عروة، فأصبحت الدنيا وقدوترتنا وأخلقتنا ، واستلأمت إلينا . أف للدنيا من دار ، ثم أف لها من دار

ويروى أن آخر خطبة خطبها معاوية أن قال : أيها الناس ، إنى من زرع قداستحصد، وإني قد وليتكم ، ولن يليكم أحد من بعدى إلا وهو شر منى ، كما كان من قبلى خيرا منى. ويايزيد ، إذا وفى أجلى فول غسلى رجلا لبيبا ، فإن اللبيب من الله بمكان ، فلينعم الغسل ، وليجهر بالتكبير . ثم أعمد إلى منديل فى الخزانة فيه ثوب من ثياب النبي صلى الله عليه وسلم، وقراضة من شعره وأظفاره ، فاستودع القراضة أنفى ، وفمى ، وأذنى ، وعينى ، واجعل الثوب على جلدى دون أكفانى . ويايزيد ، احفظ وصية الله فى الوالدين ، فإذا أدرجتمونى فى جديدى ، ووضعتمونى فى حفرتى ، فخلوا معاوية وأرحم الراحمين .

وقال محمد بن عقبة : لما نزل بمعاوية الموت قال : ياليتنى كنت رجلا من قريش بذى طوي ، وأنى لم أل من هذا الأمر شيئا . ولما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة ، نظر إلى غسال بجانب دمشق يلوى ثوبا بيده ، ثم يضرب به المغسلة ، فقال عبد الملك ليتنى كنت غسالا آكل من كسب يدى يوما بيوم ، ولم أل من أمر الدنيا شيئا. فبلغ ذلك أبا حازم فقال : الحمد لله الذى جعلهم إذا حضرهم الموت يتمنون مانحن فيه ، وإذا حضرنا

الموت لم تسمن ماهم فيه . وقيل لعبد الملك بن مروان فى مرضه الذى مات فيه . كيف تجدك يا أمير المؤمنين ؟ قال أجدنى كما قال الله تعالى (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ (١)) الآية ، ومات

وقالت فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، امرأة عمر بن عبد العزيز . كنت أسمع عمر فى مرضه الذى مات فيه يقول : اللهم اخف عليهم موتى ولوساعة من نهار . فلما كان اليوم الذى قبض فيه ، خرجت من عنده ، فجلست فى بيت آخر بينى وبينه باب ، وهو فى قبة له فسمعته يقول (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٢)) ثم هدأ ، فجعلت لا أسمع له حركة ولا كلاما ، فقلت لوصيف له : انظر أنائم هو ؟ فلما دخل صاح ، فوثبت فإذا هو ميت . وقيل لما حضره الموت : أعهد يا أمير المؤمنين ؟ قال أحذركم مثل مصرعى هذا ، فإنه لابد لكم منه

وروي أنه لما ثقل عمر بن عبد العزيز دعي له طبيب ، فلما نظر إليه قال : أرى الرجل قد سقي السم . ولا آمن عليه الموت . فرفع عمر بصره وقال . ولا تأمن الموت أيضا على من لم يسق السم . قال الطبيب : هل أحسست بذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال نعم قد عرفت ذلك حين وقع فى بطنى قال فتعالج يا أمير المؤمنين ، فإنى أخاف أن تذهب نفسك . قال ربى خير مذهوب إليه . والله لو علمت أن شفائي عند شحمة أذنى مارفعت يدى إلى أذنى فتناولته . اللهم خر لعمر فى لقائك . فلم يلبث إلا أياما حتى مات

وقيل لما حضرته الوفاة بكى فقيل له مايبكيك يا أمير المؤمنين ؟ أبشر فقد أحيا الله بك سننا ، وأظهر بك عدلا . فبكى ثم قال : أليس أوقف فأسئل عن أمر هذا الخلق ؟ فوالله لو عدلت فيهم لخفت على نفسي أن لاتقوم بحجتها بين يدي الله ، إلا أن يلقنها الله حجتها فكيف بكثير مما ضيعنا ، وفاضت عيناه ، فلم يلبث إلا يسيرا حتى مات

ولما قرب وقت موته قال : أجلسونى . فأجلسوه فقال أنا الذى أمرتنى فقصرت ونهيتنى فعصيت ؟ ثلاث مرات ولكن لا إله إلا الله . ثم رفع رأسه فأحد النظر ، فقيل له فى ذلك ، فقال : إنى لأرى خضرة ماهم بإنس ولا جن . ثم قبض رحمه الله

---

(١) الانعام : ٩٤ (٢) القصص : ٨٣

وحكي عن هرون الرشيد أنه انتقى أكفانه بيده عند الموت ، وكان ينظر إليها ويقول ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ (١)

وفرش المأمون رمادا واضطجع عليه، وكان يقول : يامن لايزول ملكه ارحم من قد زال ملكه

وكان المعتصم يقول عند موته : لو علمت أن عمرى هكذا قصير مافعلت

وكان المنتصر يضطرب على نفسه عند موته ، فقيل له لا بأس عليك ياأمير المؤمنين . فقال ليس إلا هذا لقد ذهبت الدنيا وأقبلت الآخرة

وقال عمرو بن العاص عند الوفاة، وقد نظر إلى صناديق لبنيه : من يأخذها بمافيها ليته كان بعرا

وقال الحجاج عند موته : اللهم اغفر لى ، فإن الناس يقولون إنك لاتغفر لى . فكان عمر بن عبد العزيز تعجبه هذه الكلمة منه ، ويغبطه عليها . ولما حكى ذلك للحسن قال : أقالها ؟ قيل نعم . قال عسى .

بيان

أقاويل جماعة من خصوص الصالحين من الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم من أهل التصوف رضى الله عنهم أجمعين

لما حضر معاذا رضي الله عنه الوفاة قال . اللهم إنى قد كنت أخافك ، وأنا اليوم أرجوك اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجري الأنهار ، ولا لغرس الأشجار ولكن لظمأ الهواجر ، ومكابدة الساعات ، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر . ولما اشتد به النزع ، ونزع نزعا لم ينزعه أحد ، كان كلما أفاق من غمرة فتح طرفه ثم قال : رب ماأخنقنى خنقك ، فوعزتك إنك تعلم أن قلبي يحبك

(١) ولما حضرت سلمان الوفاة بكى ، فقيل له مايبكيك ؟ قال ماأبكى جزعا على الدنيا ، ولكن عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تكون بلغة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب . فلما مات سلمان نظر فى جميع ماترك فإذا قيمته بضعة عشر درهما

---

(١) حديث لما حضرت سلمان الوفاة بكى وفيه عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون بلغة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب : أحمد والحاكم وصححه وقد تقدم

(١) الحاقة ٢٨ ، ٢٩

ولما حضر بلالا الوفاة قالت امرأته : واحزناه . فقال : بل واطرباه ، غداً نلقى الأحبة محمداً وحزبه . وقيل :فتح عبد الله بن المبارك عينه عند الوفاة وضحك وقال (لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ [١]) . ولما حضر إبراهيم النخعي الوفاة بكى فقيل له مايبكيك؟ قال :أنتظر من الله رسولا يبشرني بالجنة أو بالنار

ولما حضر ابن المنكدر الوفاة بكى ، فقيل له مايبكيك؟ فقال : والله ماأبكي لذنب أعلم أني أتيته ، ولكن أخاف أني أتيت شيئا حسبته هينا وهو عند الله عظيم

ولما حضر عامر بن عبد القيس الوفاة بكى،فقيل له مايبكيك؟ قال ماأبكي جزعا من الموت ولا حرصا على الدنيا،ولكن أبكي على مايفوتني من ظمأ الهواجر،وعلى قيام الليل في الشتاء

ولما حضرت فضيلا الوفاة غشي عليه ثم فتح عينيه وقال : وابعد سفراه وا قلة زاداه

ولما حضرت ابن المبارك الوفاة قال لنصر مولاه : اجعل رأسي على التراب ، فبكى نصر فقال له مايبكيك ؟ قال ذكرت ما كنت فيه من النعيم ، وأنت هو ذا تموت فقيرا غريبا قال اسكت ، فإني سألت الله تعالى أن يحييني حياة الأغنياء ، وأن يميتني موت الفقراء . ثم قال له : لقني ، ولا تعد عليّ مالم أتكلم بكلام ثان

وقال عطاء بن يسار : تبدى إبليس لرجل عند الموت،فقال له نجوت فقال ما أمنتك بعد

وبكى بعضهم عند الموت ، فقيل له مايبكيك ؟ قال آية في كتاب الله تعالى ، قوله عز وجل (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ [٢])

ودخل الحسن رضي الله عنه على رجل يجود بنفسه فقال : إن امرا هذا أوله لجدير أن يتقى آخره ، وإن أمرا هذا آخره لجدير أن يزهد في أوله

وقال الجريري : كنت عند الجنيد في حال نزعه ، وكان يوم الجمعة ويوم النيروز وهو يقرأ القرآن ، فختم فقلت له في هذه الحالة ياأبا القاسم ؟ فقال ومن أولى بذلك مني ، وهو ذا تطوى صحيفتي

وقال رويم : حضرت وفاة أبي سعيد الخراز وهو يقول :

---

(١) الصافات : ٦١ (٢) المائدة : ٢٧

حنين قلوب العارفين إلى الذكر وتذكارهم وقت المناجاة للسر
أديرت كؤس للمنايا عليهم فأغفوا عن الدنيا كإغفاء ذى الشكر
همو مهمو جوالة بعسكر به أهل ودّ الله كالأنجم الزهر
فأجسامهم فى الأرض قتلى بحبه وأرواحهم فى الحجب نحو العلا تسرى
فما عرّسوا إلا بقرب حبيبهم وما عرجوا من مس بؤس ولا ضر

وقيل للجنيد . إن أبا سعيد الخراز كان كثير التواجد عند الموت . فقال لم يكن بعجب أن تطير روحه اشتياقا : وقيل لذى النون عندموته ما تشتهى ؟ قال أن أعرفه قبل موتى بلحظة

وقيل لبعضهم وهو فى النزع . قل الله . فقال إلى متى تقولون الله ، وأنا محترق بالله

وقال بعضهم . كنت عند ممشاد الدينورى ، فقدم فقير وقال . السلام عليكم ، هل هنا موضع نظيف يمكن الإنسان أن يموت فيه ؟ قال فأشاروا إليه بمكان ، وكان ثمّ عين ماء ، فجدد الفقير الوضوء ، وركع ماشاء الله ، ومضى إلى ذلك المكان ، ومدّ رجليه ، ومات

وكان أبو العباس الدينورى يتكلم فى مجلسه ، فصاحت امرأة تواجدا ، فقال لها موتى فقامت المرأة ، فلما بلغت باب الدار التفتت إليه وقالت . قد متّ . ووقعت ميتة

ويحكى عن فاطمة أخت أبى على الروزبارى قالت . لما قرب أجل أبى علي الروزبارى وكان رأسه فى حجرى ، فتح عينيه وقال . هذه أبواب السماء قد فتحت ، وهذه الجنان قد زينت ، وهذا قائل يقول . ياأبا علي قد بلغناك الرتبة القصوى ، وإن لم تردها. ثم أنشأ يقول

وحقك لانظرت إلى سواكا بعين مودّة حتى أراكا
أراك معذبى بفتور لحظ وبالخد المورد من حياكا

وقيل للجنيد قل لا إله إلا الله . فقال مانسيته فأذكره

وسأل جعفر بن نصير بكران الدينوري خادم الشبلي ، ما الذى رأيت منه ؟ فقال : قال عليّ درهم مظلمة ، وتصدقت عن صاحبه بألوف ، فما على قلبي شغل أعظم منه . ثم قال : وضئني للصلاة ، ففعلت ، فنسيت تخليل لحيته ، وقد أمسك على لسانه ، فقبض على يدى وأدخلها فى لحيته ، ثم مات . فبكى جعفر وقال : ما تقولون فى رجل لم يفته فى آخر عمره أدب من آداب الشريعة . وقيل لبشر بن الحارث لما احتضر : وكان يشق عليه : كأنك

تحب الحياة ؟ فقال : القدوم على الله شديد

وقيل لصالح بن مسمار : ألا توصى بابنك وعيالك ؟ فقال إنى لأستحي من الله أن أوصى بهم إلى غيره . ولما احتضر أبو سليمان الدارانى ، أتاه أصحابه فقالوا : أبشر فإنك تقدُم على رب غفور رحيم ؛ فقال لهم : ألا تقولون احذر فإنك تقدم على رب يحاسبك بالصغير، ويعاقبك بالكبير . ولما احتضر أبو بكر الواسطى قيل له : أوصنا . فقال احفظوا مراد الحق فيكم . واحتضر بعضهم ، فبكت امرأته ، فقال لها ما يبكيك؟ فقالت عليك أبكى فقال : . إن كنت باكية فابكى على نفسك ، فلقد بكيت لهذا اليوم أربعين سنة

وقال الجنيد : دخلت على سري السقطي أعوده فى مرض موته ، فقلت كيف تجدك؟ فأنشأ يقول

كيف أشكو إلى طبيبي مابى والذى بى أصابنى من طبيبي

فأخذت المروحة لأروّحه فقال : كيف يجد ريح المروحة مَن جوفُه يحترق ! ثم أنشأ يقول

القلب محترق والدمع مستبق والكرب مجتمع والصبر مفترق

كيف القرار على من لا قرار له مما جناه الهوى والشوق والقلق

يارب إن يك شيء فيه لى فرج فامنن عليّ به مادام بى رمق

وحكي أن قوما من أصحاب الشبلى دخلوا عليه وهو فى الموت ، فقالوا له : قل لا إله إلا الله . فأنشأ يقول

إن بيتا أنت ساكنه غير محتاج إلى السرج

وجهك المأمول حجتنا يوم يأتى الناس بالحجج

لا أتاح الله لى فرجا يوم أدعو منك بالفرج

وحكي أن أبا العباس بن عطاء دخل على الجنيد فى وقت نزعه ، فسلم عليه فلم يجبه ، ثم أجاب بعدساعة وقال : اعذرنى فإني كنت فى وردى . ثم ولى وجهه إلى القبلة وكبر ومات

وقيل للكتانى لما حضرته الوفاة ما كان عملك ؟ فقال لولم يقرب أجلى ما أخبرتكم به وقفت على باب قلبي أربعين سنة ، فكلما مرّ فيه غير الله حجبته عنه

وحكي عن المعتمر قال : كنت فيمن حضر الحكَم بن عبد الملك حين جاءه الحق ، فقلت اللهم هوّن عليه سكرات الموت فإنه كان وكان ، فذكرت محاسنه ، فأفاق فقال : مَن المتكلم ؟

فقلت أنا . فقال إن ملك الموت عليه السلام يقول لي : إني بكل سخي رفيق ، ثم طفي

ولما حضرت يوسف بن أسباط الوفاة ، شهده حذيفة فوجده قلقا . فقال : يا أبا محمد هذا أوان القلق والجزع ؟ فقال يا أبا عبد الله ، وكيف لا أقلق ولا أجزع وإني لا أعلم أني صدقت الله في شيء من عملي ! فقال حذيفة : واعجباه لهذا الرجل الصالح ، يحلف عند موته أنه لا يعلم أنه صدق الله في شيء من عمله

وعن المغازلي قال . دخلت على شيخ لي من أصحاب هذه الصفة وهو عليل ، وهو يقول يمكنك أن تعمل ما تريد ، فارفق بي . ودخل بعض المشايخ على ممشاد الدينوري في وقت وفاته فقال له . فعل الله تعالى وصنع من باب الدعاء ، فضحك ثم قال . منذ ثلاثين سنة تعرض علي الجنة بما فيها فما أعرتها طرفي

وقيل لرويم عند الموت . قل لا إله إلا الله . فقال لا أحسن غيره

ولما حضر الثوري الوفاة قيل له . قل لا إله إلا الله . فقال أليس ثم أمر

ودخل المزني على الشافعي رحمة الله عليهما في مرضه الذي توفي فيه ، فقال له . كيف أصبحت يا أبا عبد الله ؟ فقال أصبحت من الدنيا راحلا ، وللإخوان مفارقا ، ولسوء عملي ملاقيا ، ولكأس المنية شاربا ، وعلى الله تعالى واردا ، ولا أدري أروحي تصير إلى الجنة فأهنيها ، أم إلى النار فأعزيها . ثم أنشأ يقول

ولما قسى قلبي وضاقت مذاهبي	جعلت رجائي نحو عفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته	بعفوك ربي كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل	تجود وتعفو منة وتكرما
ولولاك لم يغوى بإبليس عابد	فكيف وقد أغوى صفيك آدما

ولما حضر أحمد بن خضرويه الوفاة ، سئل عن مسألة . فدمعت عيناه وقال يا بني ، باب كنت أدقه خمسا وتسعين سنة ، هوذا يفتح الساعة لي ، لا أدري أيفتح بالسعادة أو الشقاوة ، فأنى لي أوان الجواب . فهذه أقاويلهم . وإنما اختلفت بحسب اختلاف أحوالهم فغلب على بعضهم الخوف ، وعلى بعضهم الرجاء ، وعلى بعضهم الشوق والحب ، فتكلم كل واحد منهم على مقتضى حاله والكل صحيح بالإضافة إلى أحوالهم

الباب السادس

فى أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور

اعلم أن الجنائز عبرة للبصير ، وفيها تنبيه وتذكير لأهل الغفلة ، فإنها لاتزيدهم مشاهدتها إلا قساوة ، لأنهم يظنون أنهم أبدا إلى جنازة غيرهم ينظرون، ولايحسبون أنهم لامحالة على الجنائز يحملون ،أو يحسبون ذلك ولكنهم على القرب لايقدرون ، ولايتفكرون أن المحمولين على الجنائز هكذا كانوا يحسبون ، فبطل حسبانهم ، وانقرض على القرب زمانهم . فلاينظر عبد إلى جنازة إلا ويقدّر نفسه محمولا عليها ، فإنه محمول عليها على القرب ، وكأن قد ، ولعله فى غد أو بعد غد ؛ ويروى عن أبى هريرة أنه كان إذا رأى جنازة قال . امضوا فإنّا على الأثر

وكان مكحول الدمشقى إذا رأى جنازة قال . اغدوا فإنا رائحون ، موعظة بليغة وغفلة سريعة ، يذهب الأوّل والآخرُ لاعقل له . وقال أسيد بن حضير . ماشهدت جنازة فحدثتنى نفسى بشيء سوى ماهو مفعول به وما هو صائر إليه

ولما مات أخو مالك بن دينار . خرج مالك فى جنازته يبكى ويقول : والله لاتقرّعينىَ حتى أعلم إلى ماذا صرت إليه ، ولاأعلم مادمت حيا . وقال الأعمش . كنا نشهد الجنائز فلا ندري من نعزّى لحزن الجميع

وقال ثابت البنانى . كنا نشهد الجنائز فلا نرى إلا متقنعا باكيا

فهكذا كان خوفهم من الموت ، والآن لانظر إلى جماعة يحضرون جنازة إلا وأكثرهم يضحكون ويلهون ، ولا يتكلمون إلا فى ميراثه وما خلّفه لورثته ، ولا يتفكر أقرانه وأقاربه إلا فى الحيلة التى بها يتناول بعض ماخلّفه ، ولا يتفكر واحد منهم إلا ماشاء الله فى جنازة نفسه ، وفى حاله إذا حمل عليها . ولا سبب لهذه الغفلة إلا قسوة القلوب بكثرة المعاصى والذنوب ، حتى نسينا الله تعالى واليومَ الآخر ، والأهوال التى بين أيدينا ، فصرنا نلهو ، و نغفل ، ونشتغل بما لايعنينا . فنسأل الله تعالى اليقظة من هذه الغفلة ، فإن أحسن أحوال الحاضرين على الجنائز بكاؤهم على الميت ، ولو عقلوا لبكوا على أنفسهم لاعلى الميت

نظر ابراهيم الزيات إلى أناس يترحمونه على الميت ، فقال لو ترحمّون على أنفسكم لكان خيرا لكم ، إنه نجا من أهوال ثلاثة . وجه ملك الموت وقد رأى ، ومرارة الموت وقد ذاق

وخوف الخاتمة وقد أمن . وقال أبو عمرو بن العلاء . جلست إلى جرير وهو يملى على كاتبه شعرا ، فأطلعت جنازة فأمسك وقال . شيبتني والله هذه الجنائز . وأنشأ يقول

تروعنا الجنائز مقبلات ونلهو حين تذهب مدبرات
كروعة ثلة لمغار ذئب فلما غاب عادت راتعات

فمن آداب حضور الجنائز التفكر والتنبه ، والاستعداد ، والمشي أمامها على هيئة التواضع كما ذكرنا آدابه وسننه في فن الفقه

ومن آدابه حسن الظن بالميت وإن كان فاسقا ، وإساءة الظن بالنفس وإن كان ظاهرها الصلاح ، فإن الخاتمة مخطرة لاتدرى حقيقتها . ولذلك روي عن عمر بن ذر أنه مات واحد من جيرانه ، وكان مسرفا على نفسه ، فتجافى كثير من الناس عن جنازته ، فحضرها هو وصلى عليها ، فلما دلى فى قبره وقف على قبره وقال : يرحمك الله ياأبا فلان ، فلقد صحبت عمرك بالتوحيد ، وعفّرت وجهك بالسجود . وإن قالوا مذنب وذو خطايا ، فمن منا غير مذنب وغير ذى خطايا ؟ . ويحكى أن رجلا من المنهمكين فى الفساد مات فى بعض نواحى البصرة ، فلم تجد امرأته من يعينها على حمل جنازته ، إذ لم يدر بها أحد من جيرانه لكثرة فسقه . فاستأجرت حمالين ، وحملتها إلى المصلى ، فما صلى عليه أحد، فحملتها إلى الصحراء للدفن فكان على جبل قريب من الموضع زاهد من الزهاد الكبار ، فرأته كالمنتظر للجنازة ، ثم قصد أن يصلى عليها . فانتشر الخبر فى البلد بأن الزاهد نزل ليصلى على فلان فخرج أهل البلد ؛ فصلى الزاهد وصلوا عليه ، وتعجب الناس من صلاة الزاهد عليه ، فقال قيل لى فى المنام انزل إلى موضع فلان ترى فيه جنازة ليس معها أحد إلا امرأة فصلّ عليه فإنه مغفور له . فزاد تعجب الناس ، فاستدعى الزاهد امرأته ، وسألها عن حاله ، وأنه كيف كانت سيرته . قالت كما عُرف ، كان طول نهاره فى الماخور مشغولا بشرب الخمر . فقال انظرى هل تعرفين منه شيئا من أعمال الخير ؟ قالت نعم ، ثلاثة أشياء . كان كل يوم يفيق من سكره وقت الصبح يبدل ثيابه ، ويتوضأ ، ويصلى الصبح فى جماعة ، ثم يعود إلى الماخور ، ويشتغل بالفسق والثانى أنه كان أبدا لايخلو بيته من يتيم أو يتيمين ، وكان إحسانه إليهم أكثر من إحسانه إلى أولاده ، وكان شديد التفقد لهم . والثالث أنه كان يفيق فى أثناء سكره فى ظلام الليل

فيبكي ويقول يارب أي زاوية من زوايا جهنم تريد أن تملأها بهذا الشيخ؟ يعني نفسه فانصرف الزاهد وقد ارتفع إشكاله من أمره

وعن صلة بن أشيم، وقد دفن أخ له، فقال على قبره

فإن تنج منها تنج من ذى عظيمة ... وإلا فإنى لا أخالك ناجيا

بيان

حال القبر وأقاويلهم عند القبور

قال [1] الضحاك: قال رجل يارسول الله من أزهد الناس؟ قال « مَنْ لَمْ يَنْسَ الْقَبْرَ وَالْبِلَى وَتَرَكَ فَضْلَ زِينَةِ الدُّنْيَا وَآثَرَ مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى وَلَمْ يَعُدَّ غَداً مِنْ أَيَّامِهِ وَعَدَّ نَفْسَهُ مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ » . وقيل لعلي كرم الله وجهه: ما شأنك جاورت المقبرة؟ قال إنى أجدهم خير جيران، إنى أجدهم جيران صدق، يكفون الألسنة، ويذكرون الآخرة

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] « مَارَأَيْتُ مَنْظَراً إِلَّا وَالْقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ »

وقال [3] عمر بن الخطاب رضي الله عنه. خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقابر، فجلس إلى قبر، وكنت أدنى القوم منه، فبكى وبكيت وبكوا، فقال « مَا يُبْكِيكُمْ؟ » قلنا بكينا لبكائك قال « هَذَا قَبْرُ أُمِّي آمِنَةَ بِنْتِ وَهْبٍ اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي زِيَارَتِهَا فَأَذِنَ لِي فَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَأَبَى عَلَيَّ فَأَدْرَكَنِي مَا يُدْرِكُ الْوَلَدَ مِنَ الرِّقَّةِ »

وكان [4] عثمان بن عفان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته، فسئل

﴿ الباب السادس فى أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر ﴾

(١) حديث الضحاك قال رجل يارسول الله من ازهد الناس قال من لم ينس القبور والبلى ـ الحديث: تقدم

(٢) حديث مارايت منظرا الا والقبر افظع منه: تقدم فى الباب الثالث من آداب الصحبة

(٣) حديث عمر خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المقابر فجلس على قبر وكنت أدنى القوم ـ الحديث: وفيه هذا قبر آمنة بنت وهب استأذنت ربى فى زيارتها فأذن لى ـ الحديث: وتقدم فى آداب الصحبة ايضا ورواه ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور من حديث ابن مسعود وفيه ذكر لعمر بن الخطاب وآخره عند ابن ماجه مختصرا وفيه ايوب بن هانئ ضعفه ابن معين وقال ابوحاتم صالح

(٤) حديث عثمان كان اذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته وفيه ان القبر أول منازل الآخرة: الترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه وتقدم فى آداب الصحبة

عن ذلك وقيل له . تذكر الجنة والنار فلا تبكي ، وتبكي إذا وقفت قبر ! فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الآخِرَةِ فَإِنْ نَجَا مِنْهُ صَاحِبُهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ »

وقيل إن عمرو بن العاص نظر إلى المقبرة ، فنزل وصلى ركعتين ، فقيل له هـذا شيء لم تكن تصنعه ! فقال ذكرت أهل القبور وما حيل بينهم وبينه ، فأحببت أن أتقرب إلى الله بهما . وقال مجاهد : أول مايكلم ابن آدم حفرته فتقول . أنا بيت الدود وبيت الوحدة ، وبيت الغربة ، وبيت الظلمة . هذا ماأعددت لك ، فما أعددت لى ؟

وقال أبو ذر : ألا أخبركم بيوم فقرى ؟ يوم أوضع فى قبرى . وكان أبو الدرداء يقعد إلى القبور ، فقيل له فى ذلك . فقال أجلس إلى قوم يذكرونى معادى ، وإذا قمت لم يغتابونى

وكان جعفر بن محمد يأتى القبور ليلا ويقول . يا أهل القبور مالى إذا دعوتكم لاتجيبونى ثم يقول : حيل والله بينهم وبين جوابى ، وكأنى بى أكون مثلهم . ثم يستقبل الصلاة إلى طلوع الفجر ، وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه ! يافلان ، لقد أرقت الليلة أتفكر فى القبر وساكنه ، إنك لو رأيت الميت بعد ثلاثة فى قبره لاستوحشت من قربه بعد طول الأنس منك به ، ولرأيت بيتا تجول فيه الهوام ، ويجرى فيه الصديد ، وتخترقه الديدان مع تغير الريح ، وبلى الأكفان بعد حسن الهيئة ، وطيب الريح ، ونقاء الثوب . قال ثم شهق شهقة خر مغشيا عليه . وكان يزيد الرقاشي يقول : أيها المقبور فى حفرته ، والمتخلى فى القبر بوحدته ، المستأنس فى بطن الأرض بأعماله ، ليت شعرى بأي أعمالك استبشرت ، وبأى إخوانك اغتبطت . ثم يبكى حتي يبل عمامته ، ثم يقول . استبشر والله بأعماله الصالحة ، واغتبط والله بإخوانه المتعاونين على طاعة الله تعالى . وكان إذا نظر إلى القبور خاركما يخور الثور

وقال حاتم الأصم : من مر بالمقابر فلم يتفكر لنفسه ، ولم يدع لهم ، فقد خان نفسه وخانهم

وكان بكر العابد يقول : ياأماه ، ليتك كنت بى عقيما ، إن لابنك فى القبر حبسا طويلا ، ومن بعد ذلك منه رحيلا . وقال يحيي بن معاذ : ابن آدم ، دعاك ربك إلى دار السلام فانظر من أين تجيبه . إن أجبته من دنياك ، واشتغلت بالرحلة إليـه

دخلتها وإن أجبته من قبرك منعتها . وكان الحسن بن صالح إذا أشرف على المقابر يقول : ماأحسن ظواهرك ، إنما الدواهى فى بواطنك

وكان عطاء السلمى إذا جنّ عليه الليل خرج إلى المقبرة ثم يقول : ياأهل القبور ، متم فواموتاه ، وعاينتم أعمالكم فوا عملاه . ثم يقول : غدا عطاء فى القبور ، غدا عطاء فى القبور . فلا يزال ذلك دأبه حتى يصبح . وقال سفيان : من أكثر من ذكر القبر وجدَه روضة من رياض الجنة ؛ ومن غفل عن ذكره وجده حفرة من حفر النار

وكان الربيع بن خثيم قد حفر فى داره قبرا ، فكان إذا وجد فى قلبه قساوة دخل فيه فاضطجع ومكث ماشاء الله ، ثم يقول (رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ[1]) يرددها ، ثم يرد على نفسه ، ياربيع ، قد رجعتك فاعمل

وقال أحمد بن حرب . تتعجب الأرض من رجل يمهد مضجعه ، ويسوّى فراشه للنوم فتقول : ياابن آدم ، لم لا تذكر طول بلاك ومابينى وبينك شيء ؟

وقال ميمون بن مهران : خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة ، فلما نظر إلى القبور بكى ، ثم أقبل عليّ فقال : ياميمون ، هذه قبور آبائى بنى أمية ، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا فى لذاتهم وعيشهم ، أما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلات ، واستحكم فيهم البلى ، وأصابت الهوام مقيلا فى أبدانهم . ثم بكى وقال : والله ماأعلم أحدا أنعم ممن صار إلى هذه القبور وقد أمن من عذاب الله . وقال ثابت البنانى : دخلت المقابر ، فلما قصدت الخروج منها فإذا بصوت قائل يقول : ياثابت ، لايغرنك صموت أهلها ، فكم من نفس مغمومة فيها . ويروى أن فاطمة بنت الحسين نظرت إلى جنازة زوجها الحسن بن الحسن فغطّت وجهها وقالت :

وكانوا رجاء ثم أمسوا رزية لقد عظمت تلك الرزايا وجلت .

وقيل إنها ضربت على قبره فسطاطا واعتكفت عليه سنة ، فلما مضت السنة قلعوا الفسطاط ودخلت المدينة ، فسمعوا صوتا من جانب البقيع : هل وجدوا مافقدوا ؟

(1) المؤمنون : ٩٩ ، ١٠٠

فيمموا من الجانب الآخر ، بل يئسوا فانقلبوا *

وقال أبو موسى التميمي : توفيت امرأة الفرزدق ، فخرج في جنازتها وجوه البصرة وفيهم الحسن . فقال له الحسن : ياأبا فراس ، ماذا أعددت لهذا اليوم ؟ فقال شهادة أن لا إله إلا الله منذ ستين سنة . فلما دفنت أقام الفرزدق على قبرها فقال :

أخاف وراء القبر إن لم تعافني   أشد من القبر التهابا وأضيقا

إذا جاءني يوم القيامة قائد   عنيف وسواق يسوق الفرزدقا

لقد خاب من أولاد آدم من مشى   إلى النار مغلول القلادة أزرقا

وقد أنشدوا في أهل القبور :

قف بالقبور وقل على ساحاتها   مَن منكم المغمور في ظلماتها

ومَن المكرّم منكم في قعرها   قد ذاق برد الأمن من روعاتها

أما السكون لذى العيون فواحد   لايستبين الفضل في درجاتها

لو جاوبوك لأخبروك بألسن   تصف الحقائق بعد من حالاتها

أما المطيع فنازل في روضة   يفضى إلى ماشاء من دوحاتها

والمجرم الطاغي بها متقلب   في حفرة يأوى إلى حيّاتها

وعقارب تسعى إليه فروحه   في شدة التعذيب من لدغاتها

ومرّ داود الطائي على امرأة تبكي على قبر وهي تقول :

عدمت الحياة ولا نلتها   إذا كنت في القبر قد ألحدوكا

فكيف أذوق لطعم الكرى   وأنت بيمناك قد وسّدوكا

ثم قالت: ياابناه، ليت شعرى بأي خديك بدأ الدود؟ فصعق داود مكانه وخرّ مغشيا عليه

وقال مالك بن دينار . مررت بالمقبرة فأنشأتُ أقول :

أتيت القبور فناديتها   فأين المعظم والمحتقر

وأين المدل بسلطانه   وأين المزكى إذا ما افتخر

قال . فنوديت من بينها أسمع صوتا ولا أرى شخصا وهو يقول :

تفانوا جميعا فما مخبر   وماتوا جميعا ومات الخبر

تروح وتغدو بنات الثرى ... فتمحو محاسن تلك الصور
فياسائلي عن أناس مضوا ... أما لك فيما ترى معتبر

قال : فرجعت وأنا باكٍ

أبيات وجدت مكتوبة على القبور

وجد مكتوبا على قبر .

تناجيك أجداث وهن صموت ... وسكانها تحت التراب خفوت
أيا جامع الدنيا لغـــير بلاغه ... لمن تجمع الدنيا وأنت تموت

ووجد على قبر آخر مكتوبا

أيا غانم أما ذراك فواسع ... وقبرك معمور الجوانب محكم
وما ينفع المقبور عمران قبره ... إذا كان فيه جسمه يتهـــدم

وقال ابن السماك : مررت على المقابر فإذا على قبر مكتوب .

يمر أقاربى جنبات قبرى ... كأن أقاربى لم يعـــرفونى
ذوو الميراث يقتسمون مالى ... وما يألون أن جحدوا ديونى
وقد أخذوا سهامهم وعاشوا ... فيـــالله أسرع مانســونى

ووجد على قبر مكتوبا

إن الحبيب من الأحباب مختلس ... لايمنع الموت بواب ولا حرس
فكيف تفرح بالدنيا ولذتها ... يامن يعد عليه اللفظ والنفس
أصبحت ياغافلا فى النقص منغمسا ... وأنت دهرك فى اللذات منغمس
لايرحم الموت ذا جهل لغرته ... ولا الذى كان منه العلم يقتبس
كم أخرس الموت فى قبر وقفت به ... عن الجواب لسانا مابه خرس
قد كان قصرك معمورا له شرف ... فقبرك اليوم فى الأجداث مندرس

ووجد على قبر آخر مكتوبا :

وقفت على الأحبة حين صفت ... قبورهم كأفراس الرهـــان
فلمـــا أن بكيت وفاض دمعى ... رأت عينـــاى بينهم مكانى

ووجد على قبر طبيب مكتوبا :

قد قلت لما قال لى قائل قد صار لقمان إلى رمسه
فأين مايوصف من طبّه وحذقه فى الماء مع جسّه
هيهات لايدفع عن غيره من كان لايدفع عن نفسه

ووجد على قبر آخر مكتوبا

ياأيها الناس كان لى أمل قصر بى عن بلوغه الأجل
فليتق اللهَ. ربه رجل أمكنه فى حياته العمل
ماأناوحدى نقلت حيث ترى كل إلى مثله سينتقل

فهذه أبيات كتبت على قبور لتقصير سكانها عن الاعتبار قبل الموت ، والبصير هو الذى ينظر إلى قبر غيره فيرى مكانه بين أظهرهم ، فيستعد للحوق بهم ، ويعلم أنهم لايبرحون من مكانهم مالم يلحق بهم . وليتحقق أنه لو عرض عليهم يوم من أيام عمره الذى هو مضيع له لكان ذلك أحب إليهم من الدنيا بحذافيرها ، لأنهم عرفوا قدر الأعمال ، وانكشفت لهم حقائق الأمور . فإنما حسرتهم على يوم من العمر ليتدارك المقصّر به تقصيره فيتخلص من العقاب ، وليستزيد الموفق به رتبته فيتضاعف له الثواب فإنهم إنما عرفوا قدر العمر بعد انقطاعه ، فحسرتهم على ساعة من الحياة ، وأنت قادر على تلك الساعة ، وأملك تقدر على أمثالها ، ثم أنت مضيع لها . فوطّن نفسك على التحسر على تضييعها عند خروج الأمر من الاختيار ، إذلم تأخذ نصيبك من ساعتك على سبيل الابتدار فقد قال بعض الصالحين : رأيت أخا لى فى الله فيما يرى النائم ، فقلت يافلان عشت الحمد لله رب العالمين ، قال لأن أقدر على أن أقولها ، يعنى الحمد لله رب العالمين ، أحب إليّ من الدنيا ومافيها . ثم قال : ألم تر حيث كانوا يدفنوننى ، فإن فلانا قدقام فصلى ركعتين ، لأن أكون أقدر على أن أصليهما أحب إليّ من الدنيا ومافيها

بيان

أقاويلهم عند موت الولد

حق على من مات ولده أو قريب من أقاربه ، أن ينزله فى تقدمه عليه فى الموت منزلة مالو كانا فى سفر ، فسبقه الولد إلى البلد الذى هو مستقره ووطنه ، فإنه لايعظم عليه تأسفه

لعلمه أنه لاحق به على القرب، وليس بينهما إلا تقدم وتأخر. وهكذا الموت فإن معناه السبق إلى الوطن ، إلى أن يلحق المتأخر . وإذا اعتقد هذا قل جزعه وحزنه ، لاسيما وقد ورد في موت الولد من الثواب مايعزى به كل مصاب . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « لَأَنْ أُقَدِّمَ سَقْطاً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُخَلِّفَ مِائَةَ فَارِسٍ كُلُّهُمْ يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ » وإنما ذكر السقط تنبيها بالأدنى على الأعلى، وإلا فالثواب على قدر محل الولد من القلب

وقال زيد بن أسلم : توفى ابن لداود عليه السلام ، فحزن عليه حزنا شديدا ، فقيل له : ما كان عدله عندك؟ قال ملء الأرض ذهبا. قيل له : فإن لك من الأجر في الآخرة مثل ذلك

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) «لاَ يَمُوتُ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ فَيَحْتَسِبُهُمْ إِلَّا كَانُوا لَهُ جُنَّةً مِنَ النَّارِ » فقالت امرأة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أو اثنان ؟ قال « أَوِ اثْنَانِ »

وليخلص الوالد الدعاء لولده عند الموت ، فإنه أرجى دعاء وأقربه إلى الإجابة . ووقف محمد ابن سليمان على قبر ولده فقال : اللهم إني أصبحت أرجوك له ، وأخافك عليه ، فحقق رجائي وآمن خوفي . ووقف أبو سنان على قبر ابنه فقال : اللهم إني قد غفرت له ماوجب لى عليه ، فاغفر له ماوجب لك عليه ، فإنك أجود وأكرم

ووقف أعرابي على قبر ابنه فقال : اللهم إني قد وهبت له ماقصر فيه من برّي ، فهب له ماقصر فيه من طاعتك .

ولما مات ذر بن عمر بن ذر ، قال أبوه عمر بن ذر بعد ماوضعه في لحده فقال : ياذر ، لقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك ، فليت شعري ماذا قلت وماذا قيل لك . ثم قال : اللهم إن هذا ذر ، متعتني به مامتعتني ، ووفيته أجله ورزقه ولم تظلمه . اللهم وقد كنت ألزمته طاعتك وطاعتي ، اللهم وما وعدتني عليه من الأجر في مصيبتي فقد وهبت له ذلك فهب لى عذابه ولا تعذبه. فأبكى الناس، ثم قال عند انصرافه : ماعلينا بعدك من خصاصة ياذر

---

(١) حديث لأن أقدم سقطا أحب الى من أن أخلف مائة فارس كلهم يقاتل فى سبيل الله : لم أجد فيه ذكر مائة فارس وروى ابن ماجه من حديث أبى هريرة لسقط أقدمه بين يدى أحب الىّ من فارس اخلفه خلفى

(٢) حديث لايموت لاحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم ـ الحديث : تقدم فى النكاح

وما بنا إلى إنسان مع الله حاجة ، فلقد مضينا وتركناك ، ولو أقمنا ما نفعناك

ونظر رجل إلى امرأة بالبصرة فقال : ما رأيت مثل هذه النضارة ، وما ذاك إلا من قلة الحزن . فقالت ياعبد الله ، إني لفي حزن مايشركني فيه أحد . قال فكيف ؟ قالت إن زوجي ذبح شاة في يوم عيد الأضحى ، وكان لي صبيان مليحان يلعبان ، فقال أكبرهما للآخر . أتريد أن أريك كيف ذبح أبي الشاة ؟ قال نعم . فأخذه وذبحه ، وما شعرنا به إلا متشحطا في دمه . فلما ارتفع الصراخ هرب الغلام فلجأ إلى جبل ، فرهقه ذئب فأكله ، وخرج أبوه يطلبه ، فمات عطشا من شدة الحر . قالت فأفردني الدهر كما ترى

فأمثال هذه المصائب ينبغي أن تتذكر عند موت الأولاد ليتسلى بها عن شدة الجزع فما من مصيبة إلا ويتصور ماهو أعظم منها ، وما يدفعه الله في كل حال فهو الأكثر

بيان

زيارة القبور والدعاء للميت وما يتعلق به

زيارة القبور مستحبة على الجملة للتذكر والاعتبار . وزيارة قبور الصالحين مستحبة لأجل التبرك مع الاعتبار . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم [(١)] نهى عن زيارة القبور ثم أذن في ذلك بعد : روي عن علي رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [(٢)] أنه قال « كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُمْ الآخِرَةَ غَيْرَ أَنْ لاَ تَقُولُوا هُجْرًا » . وزار رسول الله صلى الله عليه وسلم قبر أمه في ألف مقنع ، فلم ير باكيا أكثر من يومئذ [(٣)] وفي هذا اليوم قال « أُذِنَ لِي فِي الزِّيَارَةِ دُونَ الاسْتِغْفَارِ »

---

(١) حديث نهيه عن زيارة القبور ثم أذنه في ذلك : مسلم من حديث بريدة وقد تقدم

(٢) حديث علي كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فانها تذكركم الآخرة غير أن لاتقولوا هجرا : رواه أحمد وابو يعلى في مسنده وابن أبي الدنيا في كتاب القبور واللفظ له ولم يقل أحمد وأبو يعلى غير ان لاتقولوا هجرا وفيه علي بن زيد بن جدعان عن ربيعة بن النابغة قال البخاري لم يصح وربيعة ذكره ابن حبان في الثقات

(٣) حديث زار رسول الله صلى الله عليه وسلم قبر أمه في ألف مقنع فلم ير باكيا أكثر من يومئذ : ابن أبي الدنيا في كتاب القبور من حديث بريدة وشيخه أحمد بن عمران الأخنس متروك ورواه بنحوه من وجه آخر كنا معه قريبا من ألف راكب وفيه انه لم يؤذن له في الاستغفار لها

(٤) حديث وقال في هذا اليوم أذن لي في الزيارة دون الاستغفار : تقدم في الحديث قبله من حديث بريدة

كما أوردنا من قبل . وقال [1] ابن أبي مليكة : أقبلت عائشة رضي الله عنها يوما من المقابر ، فقلت يا أم المؤمنين من أين أقبلت ؟ قالت من قبر أخي عبد الرحمن . فقلت أليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها ؟ قالت : نعم ثم أمر بها

ولا ينبغي أن يتمسك بهذا فيؤذن للنساء في الخروج إلى المقابر ، فإنهن يكثرن الهجر على رءوس المقابر ، فلا يفي خير زيارتهن بشرّها ، ولا يخلون في الطريق عن تكشف وتبرج وهذه عظائم ، والزيارة سنة ، فكيف يحتمل ذلك لأجلها ؟ نعم لا بأس بخروج المرأة في ثياب بذلة ترد أعين الرجال عنها ، وذلك بشرط الاقتصار على الدعاء ، وترك الحديث على رأس القبر . وقال [2] أبو ذر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « زُرِ ٱلْقُبُورَ تَذْكُرْ بِهَا الآخِرَةَ وَاغْسِلِ ٱلْمَوْتَى فَإِنَّ مُعَالَجَةَ جَسَدٍ خَاوٍ مَوْعِظَةٌ بَلِيغَةٌ وَصَلِّ عَلَى الْجَنَائِزِ لَعَلَّ ذَلِكَ أَنْ يُحْزِنَكَ فَإِنَّ الْحَزِينَ فِي ظِلِّ اللهِ »

وقال ابن أبي مليكة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [3] « زُورُوا مَوْتَاكُمْ وَسَلِّمُوا عَلَيْهِمْ فَإِنَّ لَكُمْ فِيهِمْ عِبْرَةً »

وعن نافع ، أن ابن عمر كان لا يمر بقبر أحد إلا وقف عليه وسلّم عليه

وعن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، أن فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم كانت تزور قبر عمها حمزة في الأيام ، فتصلي وتبكي عنده

وقال النبي صلى الله عليه وسلم [4] « مَنْ زَارَ قَبْرَ أَبَوَيْهِ أَوْ أَحَدِهِمَا فِي كُلِّ جُمُعَةٍ

ا.ه لم يؤذن له في الاستغفار لها ورواه مسلم من حديث أبي هريرة استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي واستأذنت أن أزور قبرها فأذن لي

(١) حديث ابن أبي مليكة أقبلت عائشة يوما من المقابر فقلت يا أم المؤمنين من أين أقبلت قالت من قبر أخي عبد الرحمن قلت أليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها قالت نعم ثم أمر بها : ابن أبي الدنيا في القبور بإسناد جيد

(٢) حديث أبي ذر زر القبور تذكر الآخرة واغسل الموتى فان معالجة جسد خاو موعظة بليغة ـ الحديث : ابن أبي الدنيا في القبور والحاكم بإسناد جيد

(٣) حديث ابن أبي مليكة زوروا موتاكم وسلموا عليهم وصلوا عليهم ـ الحديث : ابن أبي الدنيا فيه هكذا مرسلا وإسناده حسن

(٤) حديث من زار قبر أبويه أو أحدهما في كل جمعة غفر له وكتب برا : الطبراني في الصغير والاوسط من حديث أبي هريرة وابن أبي الدنيا في القبور من رواية محمد بن النعمان يرفعه وهو معضل ومحمد

غُفِرَ لَهُ وَكُتِبَ بَرًّا » . وعن ابن سيرين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَمُوتُ وَالِدَاهُ وَهُوَ عَاقٌّ لَهُمَا فَيَدْعُو اللهَ لَهُمَا مِنْ بَعْدِهِمَا فَيَكْتُبُهُ اللهُ مِنَ الْبَارِّينَ » . وقال النبي صلى الله عليه وسلم [2] « مَنْ زَارَ قَبْرِي فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُ شَفَاعَتِي »

وقال صلى الله عليه وسلم [3] « مَنْ زَارَنِي بِالْمَدِينَةِ مُحْتَسِباً كُنْتُ لَهُ شَفِيعاً وَشَهِيداً يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . وقال كعب الأحبار . ما من فجر يطلع إلا نزل سبعون ألفا من الملائكة حتى يحفوا بالقبر ، يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط مثلهم ، فصنعوا مثل ذلك ، حتى إذا انشقت الأرض خرج في سبعين ألفا من الملائكة يوقرونه .

والمستحب في زيارة القبور أن يقف مستدبر القبلة ، مستقبلا بوجهه الميت ، وأن يسلم ، ولا يمسح القبر ، ولا يمسه ، ولا يقبله ، فإن ذلك من عادة النصارى قال نافع : كان ابن عمر رأيته مائة مرة أو أكثر ، يجيء إلى القبر فيقول : السلام على النبي السلام على أبي بكر . السلام على أبي ، وينصرف

وعن أبي أمامة قال : رأيت أنس بن مالك أتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فوقف ، فرفع يديه حتى ظننت أنه افتتح الصلاة ، فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ثم انصرف

وقالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [4] « مَا مِنْ رَجُلٍ يَزُورُ قَبْرَ أَخِيهِ وَيَجْلِسُ عِنْدَهُ إِلاَّ اسْتَأْنَسَ بِهِ وَرَدَّ عَلَيْهِ حَتَّى يَقُومَ »

وقال سليمان بن سحيم ، رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم ، فقلت يا رسول الله ، هؤلاء الذين يأتونك ويسلمون عليك ، أتفقه سلامهم ؟ قال نعم وأرد عليهم

ابن النعمان مجهول وشيخه عند الطبراني يحيى بن العلاء البجلي متروك

(١) حديث ابن سيرين أن الرجل ليموت والداه وهو عاق لهما فيدعو الله لهما من بعدهما فيكتبه الله من البارين : ابن أبي الدنيا فيه وهو مرسل صحيح الاسناد ورواه ابن عدي من رواية يحيى بن عقبة ابن أبي العيزار عن محمد بن حجادة عن أنس قال ورواه الصلت بن الحجاج عن ابن حجادة عن قتادة عن أنس ويحيى بن عقبة والصلت بن الحجاج كلاهما ضعيف

(٢) حديث من زار قبري فقد وجبت له شفاعتي : تقدم في أسرار الحج

(٣) حديث من زارني بالمدينة محتسبا كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة : تقدم فيه

(٤) حديث عائشة ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم : ابن أبي الدنيا في القبور وفيه عبد الله بن سمعان ولم أقف على حاله ورواه ابن عبد البر في التمهيد من حديث ابن عباس نحوه وصححه عبد الحق الاشبيلي

وقال أبو هريرة . إذا مرّ الرجل بقبر الرجل يعرفه فسلّم عليه رد عليه السلام وعرفه وإذا مرّ بقبر لايعرفه وسلّم عليه ، رد عليه السلام

وقال رجل من آل عاصم الجحدرى : رأيت عاصما فى منامى بعد موته بسنتين ، فقلت أليس قد متّ ؟ قال بلى . فقلت أين أنت ؟ فقال أنا والله فى روضة من رياض الجنة أنا ونفر من أصحابى ، نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى أبى بكر بن عبد الله المزنى ، فنتلاقى أخباركم . قلت أجسامكم أم أرواحكم ؟ قال هيهات بليت الأجسام ، وإنما تتلاقى الأرواح . قال قلت فهل تعلمون بزيارتنا إياكم ؟ قال نعم نعلم بها عشيّة الجمعة ، ويوم الجمعة كله ، ويوم السبت إلى طلوع الشمس . قلت وكيف ذاك دون الأيام كلها . قال لفضل يوم الجمعة وعظمه

وكان محمد بن واسع يزور يوم الجمعة ، فقيل له لو أخرت إلى يوم الإثنين . قال بلغنى أن الموتى يعلمون بزوّارهم يوم الجمعة ، ويوما قبله ، ويوما بعده

وقال الضحاك : من زار قبرا قبل طلوع الشمس يوم السبت علم الميت بزيارته . قيل وكيف ذاك ، قال لمكان يوم الجمعة

وقال بشر بن منصور . لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف إلى الجبانة فيشهد الصلاة على الجنائز ، فإذا أمسى وقف على باب المقابر فقال . آنس الله وحشتكم ، ورحم غربتكم وتجاوز عن سيئاتكم ، وقبل الله حسناتكم . لايزيد على هذه الكلمات . قال الرجل . فأمسيت ذات ليلة ، فانصرفت إلى أهلى ، ولم آت المقابر فأدعو كما كنت أدعو ، فبينما أنا نائم ، إذا بخلق كثير قد جاءونى ، فقلت ما أنتم ، وما حاجتكم ؟ قالوا : نحن أهل المقابر قلت ماجاء بكم ، قالوا : إنك قد عودتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك . قلت وماهي؟ قالوا الدعوات التى كنت تدعو لنا بها . قلت فإنى أعود لذلك . فما تركتها بعد ذلك

وقال بشار بن غالب النجرانى : رأيت رابعة العدوية العابدة فى منامى ، وكنت كثير الدعاء لها ، فقالت لى يابشار بن غالب هداياك تأتينا على أطباق من نور ، مخمرة بمناديل الحرير قلت : وكيف ذاك ؟ قالت وهكذا دعاء المؤمنين الأحياء إذا دعوا للموتى فاستجيب لهم جعل ذلك الدعاء على أطباق النور ، وخمر بمناديل الحرير ، ثم أتى به الميت ، فقيل له هذه

هدية فلان إليك . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « مَا الْمَيِّتُ فِي قَبْرِهِ إِلَّا كَالْغَرِيقِ الْمُتَغَوِّثِ يَنْتَظِرُ دَعْوَةً تَلْحَقُهُ مِنْ أَبِيهِ أَوْ أَخِيهِ أَوْ صَدِيقٍ لَهُ فَإِذَا لَحِقَتْهُ كَانَتْ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَإِنَّ هَدَايَا الْأَحْيَاءِ لِلْأَمْوَاتِ الدُّعَاءُ وَالاسْتِغْفَارُ »

وقال بعضهم : مات أخ لي ، فرأيته في المنام فقلت ما كان حالك حيث وضعت في قبرك؟ قال أتاني آت بشهاب من نار ، فلولا أن داعيا دعا لي لرأيت أنه سيضربني به

ومن هذا يستحب تلقين الميت بعد الدفن والدعاء له . قال[2] سعيد بن عبد الله الأزدي : شهدت أبا أمامة الباهلي وهو في النزع ، فقال ياسعيد ، إذا مت فاصنعوا بي كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ فَسَوَّيْتُمْ عَلَيْهِ التُّرَابَ فَلْيَقُمْ أَحَدُكُمْ عَلَى رَأْسِ قَبْرِهِ ثُمَّ يَقُولُ يَافُلَانُ ابْنُ فُلَانَةَ فَإِنَّهُ يَسْمَعُ وَلَا يُجِيبُ ثُمَّ لِيَقُلْ يَافُلَانُ بْنُ فُلَانَةَ الثَّانِيَةَ فَإِنَّهُ يَسْتَوِي قَاعِدًا ثُمَّ لِيَقُلْ يَافُلَانُ بْنُ فُلَانَةَ الثَّالِثَةَ فَإِنَّهُ يَقُولُ أَرْشِدْنَا يَرْحَمُكَ اللهُ وَلَكِنْ لَا تَسْمَعُونَ فَيَقُولُ لَهُ اذْكُرْ مَاخَرَجْتَ عَلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ وَأَنَّكَ رَضِيتَ بِاللهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيًّا وَبِالْقُرْءَانِ إِمَامًا فَإِنَّ مُنْكَرًا وَنَكِيرًا يَتَأَخَّرُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فَيَقُولُ انْطَلِقْ بِنَا مَايُقْعِدُنَا عِنْدَ هَذَا وَقَدْ لُقِّنَ حُجَّتَهُ وَيَكُونُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ حَجِيجَهُ دُونَهُمَا » فقال رجل يارسول الله ، فإن لم يعرف اسم أمه ؟ قال فلينسبه إلى حواء

ولا بأس بقراءة القرآن على القبور . روي عن علي بن موسى الحداد قال : كنت مع أحمد بن حنبل في جنازة ، ومحمد بن قدامة الجوهري معنا ، فلما دفن الميت جاء رجل

---

(١) حديث ما الميت في قبره الا كالغريق المتغوث ينتظر دعوة تلحقه من أبيه أو من أخيه أو صديق له الحديث : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس وفيه الحسن بن علي ابن عبد الواحد قال الذهبي حدث عن هشام بن عمار بحديث باطل

(٢) حديث سعيد بن عبد الله الازدي قال شهدت أبا أمامة الباهلي ـ وهو في النزع فقال ياسعيد اذا مت فاصنعوا بي كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ثم يقول يافلان ابن فلانة ـ الحديث : في تلقين الميت في قبره الطبراني هكذا بإسناد ضعيف

ضرير يقرأ عند القبر، فقال له أحمد : ياهذا إن القراءة عند القبر بدعة فلما خرجنا من المقابر قال محمد بن قدامة لأحمد : ياأبا عبد الله ، ما تقول في مبشر بن اسماعيل الحلبي ؟ قال ثقة . قال هل كتبت عنه شيئا ؟ قال نعم . قال أخبرني مبشر بن اسماعيل ، عن عبد الرحمن بن العلاء بن اللجلاج ، عن أبيه ، أنه أوصى إذا دفن أن يقرأ عند رأسه فاتحة البقرة وخاتمتها . وقال : سمعت ابن عمر يوصي بذلك . فقال له أحمد . فارجع إلى الرجل فقل له يقرأ . وقال محمد بن أحمد المروزي . سمعت أحمد بن حنبل يقول : إذا دخلتم المقابر فاقرءوا بفاتحة الكتاب ، والمعوذتين ، وقل هو الله أحد ، واجعلوا ثواب ذلك لأهل المقابر فإنه يصل إليهم . وقال أبو قلابة : أقبلت من الشام إلى البصرة ، فنزلت الخندق ، فتطهرت وصليت ركعتين بليل ، ثم وضعت رأسي على قبر فنمت ، ثم تنبهت ، فإذا صاحب القبر يشتكيني يقول : لقد آذيتني منذ الليلة ، ثم قال : إنكم لاتعلمون ونحن نعلم ولا نقدر على العمل . ثم قال : للركعتان اللتان ركعتهما خيرٌ من الدنيا وما فيها . ثم قال : جزى الله عنا أهل الدنيا خيرا ، اقرئهم السلام ، فإنه قد يدخل علينا من دعائهم نور أمثال الجبال

فالمقصود من زيارة القبور للزائر الاعتبار بها ، وللمزور الانتفاع بدعائه ، فلا ينبغي أن يغفل الزائر عن الدعاء لنفسه وللميت ، ولا عن الاعتبار به . وإنما يحصل له الاعتبار بأن يصور في قلبه الميت كيف تفرقت أجزاؤه ، وكيف يبعث من قبره ، وأنه على القرب سيلحق به ، كما روي عن مطرف بن أبي بكر الهذلي قال . كانت عجوز في عبد القيس متعبدة ، فكان إذا جاء الليل تحزّمت ثم قامت إلى المحراب ، وإذا جاء النهار خرجت إلى القبور . فبلغني أنها عوتبت في كثرة إتيانها المقابر فقالت : إن القلب القاسي إذا جفا لم يلينه إلا رسوم البلى ، وإني لآتي القبور فكأني أنظر وقد خرجوا من بين أطباقها ، وكأني أنظر إلى تلك الوجوه المتعفرة ، وإلى تلك الأجسام المتغيرة ، وإلى تلك الأجفان الدسمة ، فيالها من نظرة لو أشربها العباد قلوبهم ما أنكل مرارتها للأنفس ، وأشد تلفها للأبدان . بل ينبغي أن يحضر من صورة الميت ما ذكره عمر بن عبد العزيز ، حيث دخل عليه فقيه ، فتعجب من تغير صورته لكثرة الجهد والعبادة ، فقال له يافلان ، لو رأيتني

بعد ثلاث وقد أدخلت قبري ، وقد خرجت الحدقتان فسالتا على الخدين ، وتقلصت الشفتان عن الاسنان ، وخرج الصديد من الفم ، وانفتح الفم ، ونتأ البطن فعلا الصدر ، وخرج الصلب من الدبر ، وخرج الدود والصديد من المناخر ، لرأيت أعجب مما تراه الآن

ويستحب الثناء على الميت ، وألا يذكر إلا بالجميل . قالت عائشة رضي الله عنها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « إِذَا مَاتَ صَاحِبُكُمْ فَدَعُوهُ وَلَا تَقَعُوا فِيهِ » وقال صلى الله عليه وسلم [2] « لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا » وقال صلى الله عليه وسلم [3] « لَا تَذْكُرُوا مَوْتَاكُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ فَإِنَّهُمْ إِنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ تَأْثَمُوا وَإِنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَحَسْبُهُمْ مَا هُمْ فِيهِ »

وقال [4] أنس بن مالك : مرت جنازة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأثنوا عليها شرا ، فقال عليه السلام « وَجَبَتْ » ومروا بأخرى ، فأثنوا عليها خيرا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وَجَبَتْ » فسأله عمر عن ذلك فقال « إِنَّ هَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا فَوَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ وَهَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ لِلَّهِ فِي الْأَرْضِ »

وقال [5] أبو هريرة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الْعَبْدَ لَيَمُوتُ فَيُثْنِي عَلَيْهِ الْقَوْمُ الثَّنَاءَ يَعْلَمُ اللَّهُ مِنْهُ غَيْرَهُ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِمَلَائِكَتِهِ أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ قَبِلْتُ شَهَادَةَ عَبِيدِي عَلَى عَبْدِي وَتَجَاوَزْتُ عَنْ عِلْمِي فِي عَبْدِي »

---

(١) حديث إذامات صاحبكم فدعوه ولا تقعوا فيه : أبوداود من حديث عائشة باسناد جيد

(٢) حديث لاتسبوا الأموات فانهم قدأفضوا الى ماقدموا :البخاري من حديث عائشة ايضا

(٣) حديث لاتذكروا موتاكم الابخير ـ الحديث : ابن أبي الدنيا في الموت هكذا باسناد ضعيف من حديث عائشة وهو عند النسائي من حديث عائشة جيد مقتصرا على ماذكر منه هنا بلفظ هلكاكم وذكره بالزيادة صاحب مسند الفردوس وعلم عليه علامة النسائي والطبراني

(٤) حديث أنس مرت جنازة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاثنوا عليها شرا فقال وجبت . الحديث: متفق عليه

(٥) حديث أبي هريرة ان العبد ليموت فيثني عليه القوم الثناء يعلم الله منه غير ذلك ـ الحديث : أحمد من رواية شيخ من أهل البصرة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم يرويه عن ربه عزوجل مامن عبد مسلم يموت فيشهدله ثلاثة أبيات من جيرانه الأدنين بخير الاقال الله عزوجل قدقبلت شهادة عبادي على ماعلموا وغفرت له ماأعلم

الباب السابع

فى حقيقة الموت وما يلقاه الميت فى القبر إلى نفخة الصور

بيان

حقيقة الموت

اعلم أن للناس فى حقيقة الموت ظنونا كاذبة قد أخطؤا فيها . فظن بعضهم أن الموت هو العدم ، وأنه لا حشر ولا نشر ، ولا عاقبة للخير والشر ، وأن موت الإنسان كموت الحيوانات وجفاف النبات ، وهذا رأي الملحدين . وكل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر

وظنّ قوم أنه ينعدم بالموت ، ولا يتألم بعقاب ، ولا يتنعم بثواب مادام فى القبر ، إلى أن يعاد فى وقت الحشر

وقال آخرون : إن الروح باقية لا تنعدم بالموت ، وإنما المثاب والمعاقب هي الأرواح دون الأجساد ، وإن الأجساد لا تبعث ولا تحشر أصلا

وكل هذه ظنون فاسدة ومائلة عن الحق . بل الذى تشهد له طرق الاعتبار ، وتنطق به الآيات والأخبار ، أن الموت معناه تغير حال فقط ، وأن الروح باقية بعد مفارقة الجسد إما معذبة وإما منعمة . ومعنى مفارقتها للجسد انقطاع تصرفها عن الجسد بخروج الجسد عن طاعتها ، فإن الأعضاء آلات للروح تستعملها ، حتى أنها لتبطش باليد ، وتسمع بالأذن وتبصر بالعين ، وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب . والقلب ههنا عبارة عن الروح . والروح تعلم الأشياء بنفسها من غير آلة ، ولذلك قد يتألم بنفسه بأنواع الحزن ، والغم ، والكمد ويتنعم بأنواع الفرح والسرور ، وكل ذلك لا يتعلق بالأعضاء . فكل ما هو وصف للروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة الجسد ، وما هو لها بواسطة الأعضاء فيتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسد ، ولا يبعد أن تعاد الروح إلى الجسد فى القبر ولا يبعد أن تؤخر إلى يوم البعث والله أعلم بما حكم به على كل عبد من عباده

وإنما تعطل الجسد بالموت يضاهى تعطل أعضاء الزمن بفساد مزاج يقع فيه ، وبشدة

تقع فى الأعصاب تمنع نفوذ الروح فيها ، فتكون الروح العالمة ، العاقلة ، المدركة ، باقية مستعملة لبعض الأعضاء ، وقد استعصى عليها بعضها والموت عبارة عن استعصاء الأعضاء كلها وكل الأعضاء آلات ، والروح هي المستعملة لهـا : وأعنى بالروح المعنى الذى يدرك من الإنسان العلوم ، وآلام الغموم ، ولذات الأفراح . ومهما بطل تصرفها فى الأعضاء لم تبطل منها العلوم والإدراكات ، ولا بطل منها الأفراح والغموم ، ولا بطل منها قبولها للآلام واللذات . والإنسان بالحقيقة هو المعنى المدرك للعلوم وللآلام واللذات وذلك لايموت ، أي لاينعدم ومعنى الموت انقطاع تصرفه عن البدن ، وخروج البدن عن أن يكون آلة له ، كما أن معنى الزمانة خروج اليد عن أن تكون آله مستعملة . فالموت زمانة مطلقة فى الأعضاء كلها . وحقيقة الإنسان نفسه وروحه ، وهي باقية نعم تغير حاله من جهتين .

إحداهما : أنه سلب منه عينه ، وأذنه ، ولسانه ، ويده ، ورجله ، وجميع أعضائه . وسلب منه أهله ، وولده ، وأقاربه ، وسائر معارفه : وسلب منه خيله ، ودوابه وغلمانه ، ودوره ، وعقاره ، وسائر أملاكه . ولا فرق بين أن تسلب هذه الأشياء من الإنسان ، وبين أن يسلب الإنسان من هذه الأشياء ، فإن المؤلم هو الفراق والفراق يحصل تارة بأن ينهب مال الرجل ، وتارة بأن يسبي الرجل عن الملك والمال ، والألم واحد فى الحالتين . وإنما معنى الموت سلب الإنسان عن أمواله بإزعاجه إلى عالم آخر لايناسب هذا العالم . فإن كان له فى الدنيا شيء يأنس به ويستريح إليه ، ويعتد بوجوده ، فيعظم تحسره عليه بعد الموت ، ويصعب شقاؤه فى مفارقته ، بل يلتفت قلبه إلى واحد واحد من ماله ، وجاهه ، وعقاره ، حتى إلى قميص كان يلبسه مثلا ويفرح به . وإن لم يكن يفرح إلا بذكر الله ، ولم يأنس إلا به ، عظم نعيمه ، وتمت سعادته ، إذ خلى بينه وبين محبوبه ، وقطعت عنه العوائق والشواغل ، إذ جميع أسباب الدنيا شاغلة عن ذكر الله . فهذا أحد وجهي المخالفة بين حال الموت وحال الحياة

والثانى : أنه ينكشف له بالموت مالم يكن مكشوفا له فى الحياة ، كما قد ينكشف للمتيقظ

مالم يكن مكشوفا فى النوم . والناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا . وأول ما ينكشف له مايضره وينفعه من حسناته وسيئاته ، وقد كان ذلك مسطورا فى كتاب مطوى فى سر قلبه ، وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا . فإذا انقطعت الشواغل انكشف له جميع أعماله ، فلا ينظر إلى سيئة إلا ويتحسر عليها تحسرا يؤثر أن يخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة، وعند ذلك يقال له (كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً [1]) وينكشف كل ذلك عند انقطاع النفس ، وقبل الدفن ، وتشتعل فيه نيران الفراق ، أعنى فراق ما كان يطمئن إليه من هذه الدنيا الفانية ، دون ما أراد منها لأجل الزاد والبلغة ، فإن من طلب الزاد للبلغة فإذا بلغ المقصد فرح بمفارقته بقية الزاد ، إذ لم يكن يريد الزاد لعينه ، وهذا حال من لم يأخذ من الدنيا إلا بقدر الضرورة ، وكان يود أن تنقطع ضرورته ليستغنى عنه ، فقد حصل ما كان يوده ، واستغنى عنه

وهذه أنواع من العذاب والآلام عظيمة ، تهجم عليه قبل الدفن ، ثم عند الدفن قد ترد روحه إلى الجسد لنوع آخر من العذاب ، وقد يعفى عنه . ويكون حال المتنعم بالدنيا ، المطمئن إليها ، كحال من تنعم عند غيبة ملك من الملوك فى داره ، وملكه ، وحريمه ، اعتمادا على أن الملك يتساهل فى أمره ، أو على أن الملك ليس يدرى ما يتعاطاه من قبيح أفعاله ، فأخذه الملك بغتة ، وعرض عليه جريدة قد دونت فيها جميع فواحشه وجناياته ذرة ذرة ، وخطوة خطوة ، والملك قاهر متسلط ، وغيور على حرمه ، ومنتقم من الجناة على ملكه وغير ملتفت إلى من يتشفع إليه فى العصاة عليه . فانظر إلى هذا المأخوذ كيف يكون حاله قبل نزول عذاب الملك به من الخوف ، والخجلة ، والحياء ، والتحسر ، والندم . فهذا حال الميت الفاجر المغتر بالدنيا ، المطمئن إليها ، قبل نزول عذاب القبر به ، بل عند موته نعوذ بالله منه ، فإن الخزي والافتضاح وهتك الستر أعظم من كل عذاب يحل بالجسد من الضرب والقطع ، وغيرهما . فهذه إشارة إلى حال الميت عند الموت شاهدها أولو البصائر بمشاهدة باطنة أقوى من مشاهدة العين . ويشهد لذلك شواهد الكتاب والسنة . نعم لا يمكن كشف الغطاء عن كنه حقيقة الموت ، إذ لا يعرف الموت من لا يعرف الحياة ، ومعرفة الحياة بمعرفة

---

(1) الاسراء : ١٤

حقيقة الروح فى نفسها ، وإدراك ما هية ذاتها [١] ولم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلم فيها ، ولا أن يزيد على أن يقول : الروح من أمر ربى ، فليس لأحد من علماء الدين أن يكشف عن سر الروح وإن اطلع عليه ، وإنما المأذون فيه ذكر حال الروح بعد الموت ويدل على أن الموت ليس عبارة عن انعدام الروح وانعدام إدراكها آيات وأخبار كثيرة

أما الآيات : فما ورد فى الشهداء ، إذ قال تعالى (وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ [(١)]) ولما [٢] قتل صناديد قريش يوم بدر ناداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يَا فُلاَنُ يَا فُلاَنُ يَا فُلاَنُ قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًا » فقيل يارسول الله أتناديهم وهم أموات ! فقال صلى الله عليه وسلم « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُمْ لأَسْمَعُ لِهَذَا الْكَلاَمِ مِنْكُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى الْجَوَابِ » فهذا نص فى بقاء روح الشقي ، وبقاء إدراكها ومعرفتها والآية نص فى أرواح الشهداء ؛ ولا يخلو الميت عن سعادة أو شقاوة .

وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « الْقَبْرُ إِمَّا حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ أَوْ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ » وهذا نص صريح على أن الموت معناه تغير حال فقط ، وأن ما سيكون من شقاوة الميت وسعادته يتعجل عند الموت من غير تأخر ، وإنما يتأخر بعض أنواع العذاب والثواب دون أصله

وروى [٤] أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « الْمَوْتُ الْقِيَامَةُ فَمَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ »

﴿ الباب السابع فى حقيقة الموت ومايلقاه الميت فى القبر ﴾

(١) حديث انه لم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ان يتكلم فى الروح : متفق عليه من حديث ابن مسعود فى سؤال اليهود له عن الروح ونزول قوله تعالى ويسئلونك عن الروح وقد تقدم

(٢) حديث ندائه من قتل من صناديد قريش يوم بدر يافلان قد وجدت ما وعدنى ربى حقا ـ الحديث : مسلم من حديث عمر بن الخطاب

(٣) حديث القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة : الترمذى من حديث أبى سعيد وتقدم فى الرجاء والخوف

(٤) حديث أنس الموت القيامة من مات فقد قامت قيامته : ابن أبى الدنيا فى الموت بإسناد ضعيف وقد تقدم

(١) آل عمران : ١٦٩

وقال صلى الله عليه وسلم [1] « إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ غُدْوَةً وَعَشِيَّةً إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنَ الْجَنَّةِ وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنَ النَّارِ وَيُقَالُ هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى تُبْعَثَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وليس يخفى مافى مشاهدة المقعدين من عذاب ونعيم فى الحال

وعن أبى قيس قال كنا مع علقمة فى جنازة ، فقال : أما هذا فقد قامت قيامته

وقال علي كرم الله وجهه : حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هي أم من أهل النار

وقال [2] أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ مَاتَ غَرِيباً مَاتَ شَهِيدًا وَوُقِيَ فَتَّانَاتِ الْقَبْرِ وَغُدِيَ وَرِيحَ عَلَيْهِ بِرِزْقِهِ مِنَ الْجَنَّةِ »

وقال مسروق : ماغبطت أحدا ماغبطت مؤمنا فى اللحد ، قد استراح من نصب الدنيا ، وأمن عذاب الله

وقال يعلى بن الوليد : كنت أمشي يوما مع أبي الدرداء ، فقلت له . ما تحب لمن تحب ؟ قال الموت . قلت فإن لم يمت ! قال يقلّ ماله وولده . وإنما أحب الموت لأنه لايحبه إلا المؤمن والموت إطلاق المؤمن من السجن . وإنما أحب قلة المال والولد لأنه فتنة وسبب للأنس بالدنيا ، والأنس بمن لا بدّ من فراقه غاية الشقاء ، فكل ما سوى الله ، وذكره ، والأنس به فلا بد من فراقه عند الموت لامحالة . ولهذا قال عبد الله بن عمرو : إنما مثل المؤمن حين تخرج نفسه أو روحه مثل رجل بات فى سجن فأخرج منه ، فهو يتفسح فى الأرض ويتقلب فيها . وهذا الذى ذكره حال من تجافى عن الدنيا وتبرّم بها ، ولم يكن له أنس إلا بذكر الله تعالى ، وكانت شواغل الدنيا تحبسه عن محبوبه ، ومقاساة الشهوات تؤذيه ، فكان فى الموت خلاصه من جميع المؤذيات ، وانفراده بمحبوبه الذى كان به أنسه من غير عائق ولا دافع ، وما أجدر ذلك بأن يكون منتهى النعيم واللذات

---

(١) حديث إذامات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشى ـ الحديث : متفق عليه من حديث ابن عمر
(٢) حديث أبى هريرة من مات غريبا مات شهيدا ووقى فتانى القبر : ابن ماجه بسند ضعيف وقال فتنة القبر وقال ابن أبى الدنيا فتان

وأكمل اللذات للشهداء الذين قتلوا فى سبيل الله، لأنهم ما أقدموا على القتال إلا قاطعين التفاتهم عن علائق الدنيا، مشتاقين إلى لقاء الله . راضين بالقتل فى طلب مرضاته . فإن نظر إلى الدنيا فقد باعها طوعا بالآخرة ، والبائع لا يلتفت قلبه إلى المبيع . وإن نظر إلى الآخرة فقد اشتراها وتشوق إليها ، فما أعظم فرحه بما اشتراه إذا رآه، وما أقل التفاته إلى ما باعه إذا فارقه . وتجرد القلب لحب الله تعالى قد يتفق فى بعض الأحوال ، ولكن لا يدركه الموت عليه فيتغير، والقتال سبب للموت، فكان سببا لإدراك الموت على مثل هذه الحالة

فلهذا عظم النعيم ، إذ معنى النعيم أن ينال الإنسان ما يريده . قال الله تعالى (وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ [١]) فكان هذا أجمع عبارة لمعانى لذات الجنة

وأعظم العذاب أن يمنع الإنسان عن مراده ، كما قال الله تعالى (وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ [٢]) فكان هذا أجمع عبارة لعقوبات أهل جهنم

وهذا النعيم يدركه الشهيد كما انقطع نفسه من غير تأخير ، وهذا أمر انكشف لأرباب القلوب بنور اليقين ، وإن أردت عليه شهادة من جهة السمع فجميع أحاديث الشهداء تدل عليه ، وكل حديث يشتمل على التعبير عن منتهى نعيمهم بعبارة أخرى : فقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجابر « أَلاَ أُبَشِّرُكَ يَاجَابِرُ » وكان قد استشهد أبوه يوم أحد، فقال بلى بشرك الله بالخير . فقال « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَحْيَا أَبَاكَ وَأَقْعَدَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَالَ تَمَنَّ عَلَيَّ عَبْدِي مَا شِئْتَ أُعْطِيكَهُ فَقَالَ يَارَبِّ مَا عَبَدْتُكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ أَتَمَنَّى عَلَيْكَ أَنْ تَرُدَّنِي إِلَى الدُّنْيَا فَأُقَاتِلَ مَعَ نَبِيِّكَ فَأُقْتَلَ فِيكَ مَرَّةً أُخْرَى قَالَ لَهُ إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّي أَنَّكَ إِلَيْهَا لاَ تَرْجِعُ » (١)

وقال كعب : يوجد رجل فى الجنة يبكى ، فيقال له لم تبكى وأنت فى الجنة ؟ قال أبكى لأنى لم أقتل فى الله إلا قتلة واحدة ، فكنت أشتهى أن أرد فأقتل فيه قتلات

---

(١) حديث عائشة ألا أبشرك ياجابر ـ الحديث : وفيه ان الله أحيا أباك فأقعده بين يديه ـ الحديث : ابن أبى الدنيا فى الموت باسناد فيه ضعف وللترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث جابر ألا أبشرك بما لقى الله به أباك قال بلى يارسول الله ـ الحديث : وفيه فقال ياعبدى تمن على أعطك قال يارب تحيينى فأقتل فيك ثانية قال الرب سبحانه انه سبق منى انهم لا يرجعون

---

[١] النحل : ٥٧ [٢] سبأ : ٥٤

واعلم أن المؤمن ينكشف له عقيب الموت من سعة جلال الله ما تكون الدنيا بالإضافة إليه كالسجن والمضيق ، ويكون مثاله كالمحبوس فى بيت مظلم فتح له باب إلى بستان واسع الأكناف ، لا يبلغ طرْفه أقصاه ، فيه أنواع الأشجار ، والأزهار ، والثمار ، والطيور ، فلا يشتهى العود إلى السجن المظلم . وقد ضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلا [١] فقال لرجل مات « أَصْبَحَ هَذَا مُرْتَحِلاً عَنِ الدُّنْيَا وَتَرَكَهَا لِأَهْلِهَا فَإِنْ كَانَ قَدْ رَضِيَ فَلَا يَسُرُّهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا كَمَا لَا يَسُرُّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى بَطْنِ أُمِّهِ » فعرّفك بهذا أن نسبة سعة الآخرة إلى الدنيا ، كنسبة سعة الدنيا إلى ظلمة الرحم

وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « إِنَّ مَثَلَ الْمُؤْمِنِ فِي الدُّنْيَا كَمَثَلِ الْجَنِينِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَطْنِهَا بَكَى عَلَى مَخْرَجِهِ حَتَّى إِذَا رَأَى الضَّوْءَ وَوُضِعَ لَمْ يُحِبَّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى مَكَانِهِ » وكذلك المؤمن يجزع من الموت ، فإذا أفضى إلى ربه لم يحب أن يرجع إلى الدنيا ، كما لا يحب الجنين أن يرجع إلى بطن أمه

وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن فلانا قد مات. فقال [٣] « مُسْتَرِيحٌ أَوْ مُسْتَرَاحٌ مِنْهُ » أشار بالمستريح إلى المؤمن ، وبالمستراح منه إلى الفاجر ، إذ يستريح أهل الدنيا منه

وقال أبو عمر صاحب السقيا مرّ بنا ابن عمر ونحن صبيان ، فنظر إلى قبر ، فإذا جمجمة بادية ، فأمر رجلا فواراها ثم قال : إن هذه الأبدان ليس يضرها هذا الثرى شيئا ، وإنما الأرواح التى تعاقب وتثاب إلى يوم القيامة

---

(١) حديث قال لرجل مات أصبح هذا قد خلا من الدنيا وتركها لأهلها فان كان قدرضي فلايسره انيرجع الى الدنيا كالايسر أحدكم أنيرجع الى بطن أمه : ابن أبي الدنيا من حديث عمرو بن دينار مرسلا ورجاله ثقات

(٢) حديث إنمثل المؤمن فى الدنيا كمثل الجنين فى بطن أمه اذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى اذا رأى الضوء ووضع لم يحب أن يرجع الى مكانه : ابن أبى الدنيا فيه من رواية بقية عن جابر ابن غانم السلفى عن سليم بن عامر الجنائزى مرسلا هكذا

(٣) حديث قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان فلانا قدمات فقال مستريح أومستراح منه : متفق عليه من حديث أبى قتادة بلفظ مرعليه بجنازة فقال ذلك وهو عند ابن أبى الدنيا فى الموت باللفظ الذى أورده المصنف

وعن عمرو بن دينار قال : مامن ميت يموت إلا وهو يعلم مايكون فى أهله بعده ، وإنهم ليغسلونه ويكفنونه ، وإنه لينظر إليهم

وقال مالك بن أنس : بلغنى أن أرواح المؤمنين مرسلة تذهب حيث شاءت

وقال [١] النعمان بن بشير : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر يقول « ألا إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مِثْلُ الذُّبَابِ يَمُورُ فِي جَوِّهَا فَاللَّهَ اللَّهَ فِي إِخْوَانِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ فَإِنَّ أَعْمَالَكُمْ تُعْرَضُ عَلَيْهِمْ »

وقال [٢] أبو هريرة : قال النبي صلى الله عليه وسلم « لَا تَفْضَحُوا مَوْتَاكُمْ بِسَيِّئَاتِ أَعْمَالِكُمْ فَإِنَّهَا تُعْرَضُ عَلَى أَوْلِيَائِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ »

ولذلك قال أبو الدرداء : اللهم إنى أعوذ بك أن أعمل عملا أخزى به عند عبد الله ابن رواحة ، وكان قد مات ، وهو خاله

وسئل عبد الله بن عمرو بن العاص عن أرواح المؤمنين إذا ماتوا أين هي ؟ قال : فى حواصل طير بيض فى ظل العرش ، وأرواح الكافرين فى الأرض السابعة

وقال [٣] أبو سعيد الخدرى : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إِنَّ الْمَيِّتَ يَعْرِفُ مَنْ يُغَسِّلُهُ وَمَنْ يَحْمِلُهُ وَمَنْ يُدَلِّيهِ فِي قَبْرِهِ »

وقال صالح المرى : بلغنى أن الأرواح تتلاقى عند الموت ، فتقول أرواح الموتى للروح

---

(١) حديث النعمان بن بشير ألا انه لم يبق من الدنيا الا مثل الذباب يمور فى جوها فالله الله فى إخوانكم من أهل القبور فان أعمالكم تعرض عليهم : ابن أبى الدنيا وأبو بكر بن لال من رواية مالك بن أدى عن النعمان من قوله الله الله ورواه بكماله الازدى فى الضعفاء وقال لا يصح اسناده وذكره ابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل بكماله فى ترجمة أبى اسماعيل السكونى رواية عن مالك بن أدى ونقل عن أبيه ان كلا منهما مجهول قال الازدى لا يصح اسناده وذكر ابن حبان فى الثقات مالك بن أدى

(٢) حديث أبى هريرة لا تفضحوا موتاكم بسيآت أعمالكم فانها تعرض على أوليائكم من أهل القبور : ابن أبى الدنيا والحاملى باسناد ضعيف ولأحمد من رواية من سمع انسانا عن أنس ان أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات ـ الحديث »

(٣) حديث أبى سعيد الخدرى ان الميت يعرف من يغسله ومن يحمله ومن يدليه فى قبره : رواه أحمد من رواية رجل عنه اسمه معاوية أو ابن معاوية نسبه عبد الملك بن حسن

التى تخرج إليهم . كيف كان مأواك ؟ وفى أي الجسدين كنت ؟ فى طيّب أو خبيث ؟

وقال عبيد بن عمير . أهل القبور يترقبون الأخبـار ، فإذا أتاهم الميت قالوا مافعل فلان فيقول ألم يأتـكم أو ماقدم عليكم ؟ فيقولون : إنا لله وإنا إليه راجعون ، سلك به غير سبيلنا

وعن جعفر بن سعيد قال: إذا مات الرجل استقبله ولده كما يستقبل الغائب

وقال مجاهد . إن الرجل ليبشّر بصلاح ولده فى قبره

وروى [1] أبو أيوب الأنصارى ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إِنَّ نَفْسَ الْمُؤْمِنِ إِذَا قُبِضَتْ تَلَقَّاهَا أَهْلُ الرَّحْمَةِ مِنْ عِنْدِ اللهِ كَمَا يُتَلَقَّى الْبَشِيرُ فِي الدُّنْيَا يَقُولُونَ أَنْظِرُوا أَخَاكُمْ حَتَّى يَسْتَرِيحَ فَإِنَّهُ كَانَ فِي كَرْبٍ شَدِيدٍ فَيَسْأَلُونَهُ مَاذَا فَعَلَ فُلَانٌ وَمَاذَا فَعَلَتْ فُلَانَةُ وَهَلْ تَزَوَّجَتْ فُلَانَةُ فَإِذَا سَأَلُوهُ عَنْ رَجُلٍ مَاتَ قَبْلَهُ وَقَالَ مَاتَ قَبْلِي قَالُوا إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ذُهِبَ بِهِ إِلَى أُمِّهِ الْهَاوِيَةِ »

بيان

كلام القبر للميت

وكلام الموتى إما بلسان المقال ، أو بلسان الحال التى هي أفصح فى تفهيم الموتى من لسان المقال فى تفهيم الأحياء . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] « يَقُولُ الْقَبْرُ لِلْمَيِّتِ حِينَ يُوضَعُ فِيهِ وَيْحَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَاغَرَّكَ بِي أَلَمْ تَعْلَمْ أَنِّي بَيْتُ الْفِتْنَةِ وَبَيْتُ

---

(١) حديث أبى ايوب ان نفس المؤمن اذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله كما يتلقى البشير يقولون انظروا اخاكم حتى يستريح : ابن ابى الدنيا فى كتاب الموت والطبرانى فى مسند الشاميين باسناد ضعيف ورواه ابن المبارك فى الزهد موقوفا على ابى ايوب باسناد جيد ورفعه ابن صاعد فى زوائده على الزهد وفيه سلام الطويل ضعيف وهو عند النسائى وابن حبان نحوه من حديث ابى هريرة باسناد جيد

(٢) حديث يقول القبر للميت حين يوضع فيه ويحك يا ابن آدم ماغرك بى ألم تعلم انى بيت الفتنة ـ الحديث : ابن ابى الدنيا فى كتاب القبور والطبرانى فى مسند الشاميين وابو احمد الحاكم فى الكنى من حديث أبى الحجاج الثملى باسناد ضعيف

الظُّلْمَةِ وَبَيْتُ الْوَحْدَةِ وَبَيْتُ الدُّودِ مَا غَرَّكَ بِي إِذْ كُنْتَ تَمُرُّ بِي فَذَّاذًا فَإِنْ كَانَ مُصْلِحًا أَجَابَ عَنْهُ مُجِيبُ الْقَبْرِ فَيَقُولُ أَرَأَيْتَ أَنْ كَانَ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ فَيَقُولُ الْقَبْرُ إِنِّي إِذًا أَتَحَوَّلُ عَلَيْهِ خَضِرًا وَيَعُودُ جَسَدُهُ نُورًا وَتَصْعَدُ رُوحُهُ إِلَى اللّٰهِ تَعَالَى » والفذّاذ هو الذي يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، هكذا فسره الراوى

وقال عبيد بن عمير الليثي : ليس من ميت يموت إلا نادته حفرته التي يدفن فيها . أنا بيت الظلمة والوحدة والانفراد ، فإن كنتَ في حياتك لله مطيعا كنت عليك اليوم رحمة ، وإن كنت عاصيا فأنا اليوم عليك نقمة . أنا الذى من دخلنى مطيعا خرج مسرورا ، ومن دخلنى عاصيا خرج مثبورا

وقال محمد بن صبيح : بلغنا أن الرجل إذا وضع فى قبره فعذب ، أو أصابه بعض مايكره ، ناداه جيرانه من الموتى : أيها المتخلف فى الدنيا بعد إخوانه وجيرانه ، أما كان لك فينا معتبر؟ أما كان لك فى متقدمنا إياك فكرة ؟ أما رأيت انقطاع أعمالنا عنا وأنت فى المهلة ؟ فهلا استدركت مافات إخوانك ! وتناديه بقاع الأرض . أيها المغتر بظاهر الدنيا ، هلا اعتبرت بمن غيب من أهلك فى بطن الأرض ممن غرته الدنيا قبلك ، ثم سبق به أجله إلى القبور ، وأنت تراه محمولا تهاداه أحبته إلى المنزل الذى لابد له منه

وقال يزيد الرقاشى : بلغنى أن الميت إذا وضع فى قبره احتوشته أعماله ؛ ثم أنطقها الله فقالت . أيها العبد المنفرد فى حفرته ، انقطع عنك الأخلاء والأهلون، فلا أنيس لك اليوم عندنا

وقال كعب : إذا وضع العبد الصالح فى القبر احتوشته أعماله الصالحة ، الصلاة ، والصيام والحج ، والجهاد ، والصدقة ، قال فتجيء ملائكة العذاب من قبل رجليه ، فتقول الصلاة : إليكم عنه فلا سبيل لكم عليه ، فقد أطال بى القيام لله عليهما . فيأتونه من قبل رأسه ، فيقول الصيام: لاسبيل لكم عليه ، فقد أطال ظمأه لله فى دار الدنيا ، فلا سبيل لكم عليه ، فيأتونه من قبل جسده ، فيقول الحج والجهاد إليكم عنه ، فقد أنصب نفسه وأتعب بدنه

وحج وجاهد لله ، فلا سبيل لكم عليه ، قال فيأتو نه من قبل يديه ، فتقول الصدقة : كُفوا عن صاحبى ، فكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وقعت فى يد الله تعالى ابتغاء وجهه ، فلا سبيل لكم عليه

قال فيقال له : هنيئا طبت حياً وطبت ميتا . قال وتأتيه ملائكة الرحمة ،فتفرش له فراشا من الجنة : ودثارا من الجنة ، ويفسح له فى قبره مد بصره ، ويؤتى بقنديل من الجنة فيستضيء بنوره إلى يوم يبعثه الله من قبره

وقال [١] عبد الله بن عبيد بن عمير فى جنازة . بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إِنَّ الْمَيِّتَ يَقْعُدُ وَهُوَ يَسْمَعُ خَطْوَ مُشَيِّعِيهِ فَلَا يُكَلِّمُهُ شَيْءٌ إِلَّا قَبْرُهُ يَقُولُ وَيْحَكَ ابْنَ آدَمَ أَلَيْسَ قَدْ حُذِّرْتَنِي وَحُذِّرْتَ ضِيقِي وَنَتْنِي وَهَوْلِي وَدُودِي فَمَا ذَا أَعْدَدْتَ لِي؟»

---

(١) حديث عبد الله بن عبيد بن عمير بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الميت يقعد وهو يسمع خطو مشيعيه فلا يكلمه إلا قبره يقول ويحك يا ابن آدم ـ الحديث : ابن ابى الدنيا فى القبور هكذا مرسلا ورجاله ثقات ورواه ابن المبارك فى الزهد إلا أنه قال بلغنى ولم يرفعه.